عادل حمودة

صلاة الجواسيس



الفرسان

الإسلام والسعودية والمخابرات الأمريكية

عادل حمودة

صلاة الجواسيس

الإسلام والسعودية والمخابرات الأمريكية



دار الفرسان للنشر

صلاة الجواسيس
الإسلام والسعودية
والمخابرات الأمريكية

الطبعة الأولى: يناير ١٩٩٥
الطبعة العاشرة: اغسطس ٢٠٠١

رقم الإيداع: ٢٠٠٠/٧٥٢٢
الترقيم الدولي: 977 / 5930 / 10 / 3

تصميم الغلاف: الفنان عمرو فهمى
مدير الإنتاج : شاهر وهبه
الجمع التصويرى: جى. سى. سنتر
الطباعة : إنتربرس

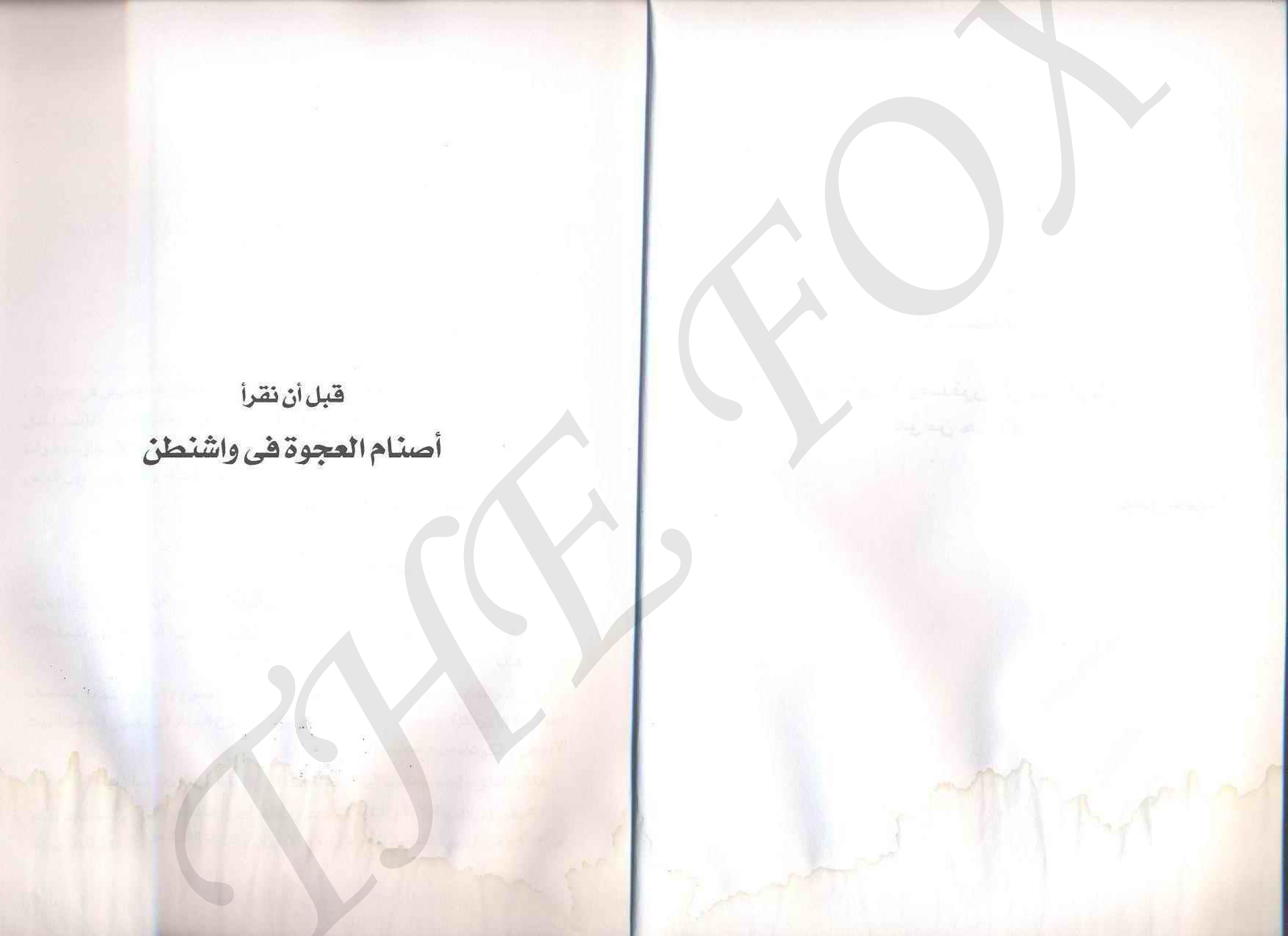


٦٧ شارع العروبة - هليوبوليس ١١٣٦١ - القاهرة.
تليفون وفاكس: ٤١٧٢٠٢٨(٢٠٢) - ٤١٧٢٠٢١(٢٠٢)
إدارة التسويق: ٣ شارع محمد أنيس - الزمالك
القاهرة ت: ٧٣٨٣٨٨٧ - ٠١٢/٢١٥٧٤٦١



إلى الذين لا يصدقون بأن حب الوطن
هو من حب الله

عادل حمودة



قبل أن نقرأ

أصنام العجوة فى واشنطن

■ حضارة مالحة مثل أوانى الفخار يسهل كسرها.. مآذنها مقلوبة.. تعيش فى غيبوبة.. صنعت من الشرك بالله أصناماً من عجوة .. أو أصناما من «ماكدونالد».. أقامت لكل زعيم سياسى زاراً.. نصبت لك رجل دين مشنقة .. استسلمت لعبادة الأحجار.. وقراءة الكف .. وأفلام الكارتون.. والغرائز المحمومة .. لا تفرق بين الحذاء والكرباج.. بين الناس والخيول .. بين شيوخ الإسلام وجنود المغول.

هكذا ..

يرى المسلمون فى أمريكا.. أمريكا.

فى ٢١ نوفمبر ١٩٩٤ أذاعت شبكة تليفزيون P.B.S الأمريكية برنامجاً عن الجهاد فى أمريكا.. أعده وعلق عليه الصحفى المعروف «ستيفن أمرسون» الذى اشتهر بتحقيقاته عن الإرهاب الدولى على مدى العشر سنوات الماضية.

وفى البرنامج انطلقت حناجر المتطرفين الإسلاميين تصرخ وتزوم وتهدد بنسف الحضارة الأمريكية .. وسفك دماء غير المسلمين .. وإعلان الجهاد فى سبيل الله من البيت الابيض والكونجرس ومجلس الأمن.

وقال المعلق : إنهم يهدفون إلى «مقاتلة الكفار وإقامة امبراطورية إسلامية».

وعرض البرنامج أفلاماً وثائقية لاحداث ومظاهرات ولقاءات وخطب فى مساجد تدعو أو تساهم فى الدعوة لتجنيد الأفراد وجمع الأموال وشراء الأسلحة وتجهيز المتفجرات

لتنفيذ أهداف «الجهاد» داخل وخارج الولايات المتحدة.

وفى البرنامج أعترف رجال المخابرات المركزية، ورجال المباحث الفيدرالية: أن علاقتهم بالمتطرفين بدأت خلال الحرب الأفغانية.. وأنهم دربوا منهم حوالى ٢٠ ألف مقاتل على العمليات الإرهابية.. وقد سُمح لبعضهم بدخول الولايات المتحدة.. حتى أصبحت شبكات «الجهاد» المتطرفة منتشرة فى ٣٨ مدينة أمريكية.. حيث توجد ٩ مواقع تدريب و١٣ منظمة تعمل فى مجالات الدعوة والتجنيد وجمع المساعدات.

والمعنى.. أن الأمريكيين هم الذين ربوا هذه «الديناصورات» التى استدعوها من أزمنة غابرة ليقاتلوا بها أعداء الله.. السوفييت الكفار فى افغانستان.. ونسوا أنهم أيضاً فى عرف جماعات الجهاد - أعداء الله - وكذلك خلفاءهم فى مصر وتونس والسعودية.

وقد استيقظوا من غفوتهم أو غفلتهم على صوت انفجارين وقعا فى يوم واحد.. يوم الجمعة ٢٩ فبراير ١٩٩٣.. وكانت المسافة بينهما آلاف الأميال.. بما فيها من بحور ومحيطات.. كان الانفجار الأول فى نيويورك فى مبنى مركز التجارة العالمى.. أكبر مبنى نجح الإنسان فى تشييده على سطح الدنيا.. وقُتل خمسة.. وأصيب أكثر من ألف.. أما الانفجار الثانى فكان فى مقهى بميدان التحرير.. أكبر وأهم ميادين القاهرة.. هو مقهى «وادى النيل».. وذهب ضحيته ٣ قتلى و٢١ مصابا!

وراحت أجهزة الأمن الأمريكية تفتش عن الجناة.. ولم يكن من الصعب التوصل إليهم.. فقد سبق أن أستعملتهم.. ولا تزال تتعامل مع قادتهم.. وتستخدمهم كأوراق ضغط سياسية على الدول العربية والإسلامية التى جاءوا منها.. بل أنها رحبت بأبرزهم وهو الشيخ عمر عبد الرحمن، وفتحت له الأبواب متجاوزة كل الاحتياطات والتعليمات.. متصورة أنه «البديل» القادم فى مصر.. و«الخومينى» الجديد الذى سيحكمها.. ومن ثم عليها أن تحتضنه وترعاه وتقويه وتركز عليه الأضواء.. فإذا ماقامت الثورة الإسلامية فى مصر.. استمرت إلى جواره بعد أن يصبح هو «الخليفة».

ونجحت المباحث الفيدرالية فى القبض على إحدى شبكات الجهاد قبل أن تقوم بعمليتها الكبرى فى نيويورك أيضاً.

كان ذلك فى شهر يونيو ١٩٩٣.. وفى عريضة الاتهام أنهم خططوا لإغتيال الأمين العام للأمم المتحدة د. بطرس غالى.. والرئيس المصرى حسنى مبارك.. وبعض النواب المتعصبين لليهود مثل دوج هايكان الذى يحرص على وضع طاقية الحاخامات فوق رأسه.. وفى عريضة الاتهام أيضاً.. أنهم خططوا لتفجير مبنى الأمم المتحدة.. وكان اسمه فى شفرتهم «البيت الكبير».. وتفجير مقر المباحث الفيدرالية فى جنوب جزيرة مانهاتن.. أو «المركز» حسب الشفرة.. وتفجير نفقى «لنكولن» و«هولاند» اللذين يصلان نيويورك بولاية نيوجرسى وطولهما معاً ٤ أميال وهما يمران تحت نهر هدسون.. ويمر بهما أكثر من ٢٠٠ ألف سيارة يوميا.

وكان على رأس المقبوض عليهم عمر عبد الرحمن.. إنه طرف الخيط المربوط فى يدهم.. لكنه كالعادة خرج من الورطة مثل خروج الشعرة من العجين.. لقد نجا الشيخ الضرير من كل القضايا التى وجد نفسه فيها.. إغتيال السادات.. تنظيم الجهاد.. إثارة الشغب فى الفيوم.. وتفجير نيويورك أو عملية «فخ كوينز».. لكن.. الأمريكيين لم ييأسوا.. فدائما هناك أوراق جاهزة.. وهكذا قدموه إلى المحاكمة بتهم ساذجة.. تعدد الزوجات.. وعدم تجديد الأقامة فى مواعيدها.. وكان أن دخل السجن وراحت الأمراض تتكاثر عليه.. فقد أرتفع السكر.. وزاد الكوليسترول.. وتصلبت الشرايين أكثر.. وكتم الربو على صدره.. لكن صوته ظل صاخبا.

فى اليوم التالى لعرض «برنامج الجهاد فى أمريكا» عرضت نفس المحطة برنامجاً آخر بعنوان «الأصولية الإسلامية والديمقراطية» ندد فيه عمر عبد الرحمن بالديمقراطية الغربية ووصفها بالتدنى والحقارة.

وقال المعلق ساخراً: إن الديمقراطية «تمثل شيئاً مدمراً بالنسبة للأصوليين الذين يسعون لأقامة حكومات ثيوقراطية».. أى حكومات دينية.. الكلمة الأولى والأخيرة فيها للمشايخ.. فهم ظل الله على الأرض.

لقد استعمل الأمريكيون الجماعات المتطرفة ومضغوها ثم بلعوها.. فإذا بهم تشعل ناراً فى جوفهم وتسبب لهم «قرحة» ملتهبة فى جهازهم الهضمى.. ومن ثم.. انقلبوا عليها.. أو على بعضها.. فلابد من أوراق للعب.

إن الانقلابات الحادة أو التحولات الحادة التى تحدث فى السياسة الأمريكية ليست تحولات بيولوجية، طبيعية كالتى تحدث لدى سائر الأحياء.. ولكنها تحولات قسرية تحدث بالطرق الجراحية ووسائل البتر والقطع والإستئصال مع موسيقى تصويرية، دعائية، صاخبة لا تخلو من الابتذال أو الابتزاز.. لا فرق.

ولقد احترقت ورقة عمر عبد الرحمن على مائدة البوكر الأمريكية وكان لابد من إبراز ورقة أخرى إسلامية أيضاً.. وكانت هذه الورقة هى ورقة أنور هدام ممثل جبهة الإنقاذ الجزائرية فى نيويورك.. إنه يقيم هناك بصفة شرعية، رسمية بعد أن وافقت الإدارة

الأمريكية على فتح مكتب للجبهة بشارع ١٢١٢ – نيويورك آفينو فى شهر سبتمبر ١٩٩٤ بدعوى التحضير للعلاقات المستقبلية بين الدولة الإسلامية «القادمة» فى الجزائر والولايات المتحدة.

ويوصف أنور هدام بأنه «الرئيس البرلمانى لجبهة الإنقاذ».. وقد لقى على حد قول مجلة «نوفيل أوبزرفاتور» الفرنسية عدد ٣ ديسمبر ١٩٩٤ جرعات كبيرة من الدعم والشرعية من إدارة الرئيس بيل كلينتون التى رفضت طلب وزير الداخلية الفرنسى شارل باسكا بطرده من الولايات المتحدة.

ويحتمى هدام بالخارجية الأمريكية التى تبرز فيها موجة من التأييد للحركة الإسلامية فى العالم العربى بدعوى أن لها جذوراً شعبية ومن خلالها تستطيع الولايات المتحدة السيطرة على الشرق الأوسط فى المستقبل أيضاً.. ويركب هذه الموجة كثيرون على رأسهم روبرت بللترو مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط وكان سفيراً لبلاده فى تونس.

وبهذا التشجيع أصبحت الولايات المتحدة حسب قول «نوفيل أوبزرفاتور» – الدولة الثالثة فى العالم – بعد إيران والسودان التى تستقبل قيادات وأعضاء التنظيمات الإسلامية المتطرفة.

وفى تقدير د. عز الدين لاباش أستاذ العلوم السياسية فى جامعة «سان جون» : ان التحول الحاد فى السياسية الأمريكية تجاه الحركات الإسلامية يرجع إلى إغراء المصالح الاقتصادية الأساسية مثل السيطرة على النفط والغاز.. وفتح أسواق جديدة.. وحماية «حلفاء» الولايات المتحدة فى المنطقة مثل مصر التى تلعب دوراً حيوياً فى مفاوضات السلام مع إسرائيل ومثل المغرب التى ترتبط باتفاق أمنى مع واشنطن ويحظى عاهلها بتعاطف من المجتمع اليهودى والأمريكى.. وكذلك عدم تكرار ما حدث فى إيران.

إن عقدة المخابرات الأمريكية فى إيران لا تقل عن عقدة البنتاجون فى فيتنام وقد وُصفت المخابرات الأمريكية بعد فشلها فى التنبؤ بسقوط الشاه وعودة الخومينى وقيام الثورة الإسلامية بأنها «مثل كلب كبير صدمته شاحنة».. وهى لا تزال تعانى من الصدمة والأرتطام حتى الآن.. لا تزال تنبح وتصرخ وتتخبط وتجرى دون وعى حول نفسها.

لقد أصبحت إيران – الشاه عورة المخابرات الأمريكية وعارها، والضربة المؤلمة على مؤخرتها.. و«كان خطؤها القاتل هو أنها لم تضع فى حسابها المشاعر الدينية يمكن أن تكون أشد من القوة العسكرية وأن سلطة الخومينى الروحية يمكن أن تنتصر على سلطة

الشاه الزمنية.. وأن المعارضة الإسلامية يمكن أن تصبح معارضة سياسية».. ويمكن أن تصل إلى السلطة وتحكم.

وهذا ما جعل المخابرات الأمريكية تتجسس على الأصدقاء، كما تتجسس على الأعداء وتسعى لفهم الجماعات الإسلامية بكل أنواعها ودرجات تشددها، وتخترقها وتراهن عليها وتستعملها إذا لزم الأمر.

لكن.. من جانبها طالبت هذه الجماعات بثمن الاستعمال.. ومن ثم شهدت العلاقة بين الطرفين أيام عسل.. وغرام.. وأحلام.. وأيام عنف وانفجارات.. ولم تمانع المخابرات الأمريكية فى اللجوء إلى أبغض الحلال.. وأسعدها كثيراً فى علاقاها بالأمراء والمشايخ – مبدأ تعدد الزوجات!

لكنها.. ليست المرة الأولى التى تستعمل فيها المخابرات الأمريكية الإسلام.. لقد سبق أن جربته فى مصر، عندما سعى – كيرميت روزفلت – مسئول الشرق الأوسط فى المخابرات المركزية إلى تجميل صورة الملك فاروق، وحاول إقناعه بأن يكون «أمير المؤمنين» وأن يتحالف مع الإخوان المسلمين لمنع الثورة الشيوعية فى مصر، وتعرف هذه العملية فى ملفات المخابرات الأمريكية بعملية «الزير السمين».

ويعترف كيرميت روزفلت بأنه استوعب نظرية استعمال الإسلام استعمالا سياسيا من نابليون بونابرت .. الذى حاول إقناع المصريين خلال حملته الشهيرة على مصر بأنه ولى من أولياء الله الصالحين.. وأن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم زاره فى المنام، وباركه ، وبشره بأنه سيصبح سلطانا على الشرق.. وراح نابليون يطوف بحلقات «الذكر».. ويناقش مشايخ الأزهر فى تفسير القرآن.. لكن الإسلام الذى إستعمله هو نفسه الإسلام الذى أحرقه فى ثورة القاهرة.

والمقصود أن اللعبة قديمة .. متجددة .. مستمرة .. لعبها الإسكندر الأكبر .. والمماليك والأتراك.. والإنجليز.. وأنور السادات.. ففى مصر، من يسيطر على الدين يسيطر على المصريين.. وعندما أنكر انور السادات إمتزاج السياسة بالدين قتلوه وقبله قُتل حاكم عربى آخر هو الملك فيصل لأنه كافر.. فاجر، ترك أفلام المشركين السينمائية تعرض على شاشة التليفزيون، وتدخل البيوت فى السعودية.. مع أن كل الكبائر تقع هناك.. ولكن سراً.

وقد أستُعمل الإسلام فى اجبار العرب على قبول الصلح مع إسرائيل.. فقد اشعلت المخابرات الأمريكية الفتن الدينية والسياسية فى وقت واحد.. فانفجرت الحرب بين العراق

وإيران وبين الجزائر والمغرب.. وتقلبت الجماعات الشيعية فى الخليج.. ووقع حادث احتلال الكعبة.. وفضحت السعودية بفيلم «موت أميرة» وتمرد الإخوان المسلمون فى سوريا.. إن ذلك كله وقع فى فترة زمنية واحدة لإضعاف العرب وإجبارهم على ركوب قطار التسوية.. الوثائق الأمريكية التى حصلنا عليها تثبت ذلك.

وهناك وثائق أخرى مضادة تتيح لنا معرفة رؤية التيارات الإسلامية فى الولايات المتحدة.. وقد كتبها سيد قطب وعبود الزمر، وشكرى مصطفى، وصالح سرية.. وهى وثائق فيها جفاء وعداء، وفيها أيضاً غزل ورغبة متبادلة فى الاستعمال.

ولقد بدأ أهتمامى بهذا الموضوع.. موضوع استعمال الإسلام فى ألعاب المخابرات الأمريكية عقب إغتيال السادات وحادث المنصة وأصابع الأتهام التى تجاوزت الجناة الذين أطلقوا النار مباشرة إلى مدبرين فى الخفاء.. رسموا الخطة فى بقعة من الأحراش فى «لانجلى» إحدى ضواحى واشنطن.. حيث مقر وكالة المخابرات المركزية.

ووجدتنى خلال رحلة طويلة قمت بها إلى الولايات المتحدة أحاول دعم الأتهام أو نفيه ولم يكن ذلك سهلا ولاممكنا دون التعرف على صورة الإسلام فى أمريكا وظللت أتابع ما يجرى على هذه الصورة من تغيرات خلال أكثر من ١٣ سنة.. هى المسافة الزمنية ما بين الرحلة وصياغة هذا الكتاب فى صورته النهائية.

وقد كنت فى أمريكا فى وقت كانت آثار الصدمة الأيرانية لا تزال مؤلمة.. وهى صدمة دخلت كل بيت من خلال إرسال شبكات التليفزيون بصوره ملونة ومؤثرة ولمدة ٤٤٤ يوما متتالية هى مدة احتلال السفارة الأمريكية فى طهران بما فرضه هذا الاحتلال من إحتجاز رهائن من الدبلوماسيين والرعايا الأمريكيين.

وفى ذلك الوقت وضع الإيرانيون أيديهم على «كنز» من الوثائق السرية، كانت فى سفارة الولايات المتحدة فى طهران.. ونشروها وفضحوا بها الإدارة الأمريكية والمخابرات المركزية والتنظيمات الإسلامية فى مصر وتركيا وباكستان، وحكام الجزيرة العربية وكامب ديفيد والموساد.. والإخوان.. والسادات.. وكيفية استعمال الإسلام فى خطط السيطرة الأمريكية.

وقد حصلت على نسخة من هذه الوثائق.. ولم يكن ذلك صعباً، وكان أول من نبهنى إلى خطورة هذه الوثائق مستشارة الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان لشئون الإسلام سستر «كوفى».. وكنت أجرى حواراً معها فى فندق «هايلاند» فى واشنطن، دبرته د. سناء عزمى المصرية الأصل وأستاذة اللغة العربية بجامعة جورج واشنطن.

وسستر كوفى راهبة من أتباع القديس «جوزيف».. من عائلة أيرلندية كاثوليكية مثل عائلة كيندى.. درست اللغة العربية القديمة واللغة العثمانية والأدب التركى فى جامعة «ميتشجان»، ثم سافرت إلى اسطنبول لتحضير رسالة الدكتوراة.. وفى بيروت درست اللغة العربية المعاصرة على يد أستاذ فلسطينى.. وفى القدس درست العلاقة بين الأديان السماوية الثلاثة.. وفى القاهرة حصلت على وثائق التاريخ الإسلامى.. وفى لندن وباريس أكملت دراسة هذه الوثائق.. وكل ذلك بجانب تفرغها الكامل لأنها لم تتزوج رغم تجاوزها سن الأربعين – جعلها تفهم – أكثر من غيرها – فى الإسلام.. وجعلها مستشارا للرئيس الأمريكى والبيت الأبيض، ومجلس الأمن القومى ووزارة الخارجية فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين.

وقد عددت سستر كوفى أسباباً متنوعة لانفجار الاهتمام الرسمى الأمريكى بالإسلام.. منها الحرب الطائفية فى لبنان.. سقوط شاه إيران.. رفض السعودية معاهدة الصلح بين مصر وإسرائيل.. إغتيال السادات.. نشاط تنظيمات الجهاد فى العالم.. ظاهرة تعدد المراكز الإسلامية فى الولايات المتحدة.. وجود أكثر من ١٢ مليون مسلم فى امريكا.. ثم تدفقت أسباب أخرى فيها بعد.. منها.. اشتعال الحرب بين العراق وإيران.. التكفير المتبادل بين الخومينى وصدام حسين.. ثم حرب الخليج الثانية لتحرير الكويت.. وهى حرب صورها العراقيون على أنها «مقدسة» بين المؤمنين (هم) والكفار (الغرب) بمساعدة المرتدين.. أو دول التحالف العربية مثل مصر والسعودية.. ثم.. وصول عمر عبدالرحمن إلى نيويورك.. والانفجارات التى توالت بعد ذلك.

وخلال الفترة التى جرت فيها هذه الأحداث وهى حوالى ٢٠ سنة تغيرت صورة الإسلام فى عيون الأمريكيين من صورة «الدراويش» إلى صورة «المجاهدين».. لقد أغرت الصورة الأولى بعض جماعات «الهيبز» فأعلنوا إسلامهم.

إنهم جماعات متمردة غاضبة رافضة للحياة التى يعيشونها.. فخرجوا عن سلطة الأسرة والكنيسة، والدولة، وعاشوا الحياة فى صورتها البدائية، فأطلقوا لحاهم وتركوا شعورهم وخلعوا الجينز، وارتدوا الجلاليب والسراويل والعباءة، ورفضوا الأحذية ودسوا أقدامهم فى «قباقيب» خشبية ملونة تطرقع على الأرض، وعلى حلبات الرقص لتصبح جزءاً من موسيقاهم الصاخبة، ودخنوا «الحشيش» بعد أن قاطعوا الخمر.. فالخمر حرام.. أما الحشيش فقد اعتقدوا أنه «المزاج» الشرعى للمسلمين.. فهو يستورد من بلاد إسلامية مثل تركيا وأفغانستان وباكستان، ولم يحرموا على أنفسهم الجنس بلا زواج، وإن وجدوا أن من اللائق ممارسته بعد حلقات «الزار» التى استهوتهم وبرعوا فى إقامتها.

أما الفتيات فى الجماعات فترتدين ثيابا من قماش «الكستور» المبرقش بألوان زاهية فاقعة مع إكسسوار شرقى مثل الخلخال والكردان.. كذلك استخدمن المسابح فى إحصاء عدد المرات التى مارسن فيها الجنس.. لكن.. ليست المسابح التى نستعملها.. وإنما نوع من المسابح تأتى من اليونان حباتها من ١٠ إلى ١٦ حبة، ويقولون إنها تجلب الحظ وتعالج التوتر.

ومن باب البدع والفهم الخاطىء المشوه للإسلام أيضاً تكونت فى أمريكا جماعة تسمى «ليجيا محمد» أو «النبى محمد» .. والمقصود بمحمد هنا قس أمريكى أسود كان أسمه ليجيا فغيره إلى محمد ومنحة أتباعه صفة النبوة وأشهروا معه إسلامهم.. ولكنه إسلام على طريقتهم الخاصة.. التى لا نعرفها.

إنهم جماعة قاموا أصلاً لمواجهة التمييز العنصرى.. فحرموا على غير السود الانضمام إليهم حتى لو أسلموا على طريقتهم.. أو على زعيمهم.. فهو مرسل للسود المسلمين فقط.. وقد جمع تبرعات بالملايين شيد بها سلسلة من المساجد متشابهة بإسمه على طريقة سلسلة محلات «كنتاكى» وصل عددها إلى ٢٥ مسجداً، يوم نشرت عنهم أول مرة فى كتاب «أمريكا الجنة والنار» والمذهل أنه حرم على أتباعة أكل اللحم مثل المسيحيين أوقات الصيام، وأختار لهم الشهر الذى يعجبه ليكون شهر الصيام.

وكان الزعيم الأسود «مالكوم أكس» واحدا من أتباعه، ثم تمرد على هذه التبعية وعرف الإسلام السليم ورفض «سلاطة الأديان» .. فكان أن أعتبروه مرتداً.. وساهموا فى اغتياله.

وعندما مات ليجيا ورث أبنه «دالاس» – الذى سمى نفسه وريث الدين – الجماعة لكنه رفض تعاليم أبيه واخترع لنفسه ديناً آخر، فتبعه ٨٠٪ من الجماعات، ورفض الباقى مذهبه واستمروا تحت قيادة شقيقة.

ثم انقسمت جماعة «وريث الدين» وخرجت منها جماعة «البلاليين» نسبة إلى بلال الأسود مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم الذين يدعون أنه بسبب لونه الأسود كان يستحق النبوة.. فالعنصرية ليست بيضاء فقط!

على أن كثيراً من الأمريكيين أشهروا إسلامهم وانضموا إلى المسلمين المهاجرين.. لقد وجد هؤلاء فى الإسلام الراحة والسكينة والشفاء من أمراض الحضارة المادية.. حضارة اللذة والأنانية.. وأنا ومن بعدى الطوفان.. وهؤلاء أكثر التزاما بتعاليم الإسلام أكثر من مسليمن جاءوا إلى هذه البلاد بحثاً عن اللذة.

لكن.. هذه الأنماط تراجعت.. ولم تعد تثير الاهتمام.. وسيطرت على صورة الإسلام فى أمريكا الدخان والبارود.. فقد جاءت جماعات الجهاد لتطالب المخابرات المركزية بثمن

استعمالها.. وعندما اختلف الشركاء والحلفاء على توزيع الغنائم.. بدأت الحرب بينهم.. لقد انقلب أصدقاء الأمس إلى أعداء.. وتبادلوا الاتهامات والانفجارات.. ودون أن يدرى أحد انكشف المستور.

إن الأمريكيين الذين تحدثوا كثيراً عن «الإسلام المسلح» .. و«هلال الأزمة» .. و«الأحياء النضال» .. و«الجهاد» .. قد وجدوا كل ذلك فى بلادهم.. فى حجرهم.. وعندما استيقظو اكتشفوا أن النار التى لعبوا بها تهددهم بالحرق.. والكأس التى رفعوها فى وجوهنا عليهم أن يشربوا منها.. وإن الذين استعملوهم يردون إليهم الاستعمال.

وجزء من المواجهة بين الإسلاميين والأمريكيين سببه إسرائيل.. الأمريكيون مستعدون للتضحية بأى شىء إلا إسرائيل. والإسلاميون مستعدون لتقبل الكثير من الأمريكيين إلا إسرائيل.. فهى بالنسبة لهم الحليف الاستراتيجى المطلق.. وهى بالنسبة للإسلاميين على قائمة أعداء الله.

وإسرائيل.. دولة الرب والتوراة واليهود والتلمود.. هى أول دولة «دينية» فى الشرق الأوسط كل مافيها مصبوغ بالدين.. الجنسية، والراية، والحدود، والهالاكا أو الشريعة. وفى إسرائيل ٢٦ حركة وحزباً دينيا و٦ آلاف معبد و٨٨ طائفة و٦١٣ عملاً صالحاً على اليهود أن يقوموا بها، وعدد من المحرمات يفوق عدد السكان، وعدد أكبر من الخرافات والأساطير مع ذلك لا أحد يسخر منهم فى الإعلام الأمريكى.. كما يحدث مع المسلمين

فى إسرائيل مثلاً.. طائفة يهودية تفرض على النساء حلق رؤوسهن قبل الزواج بليلة والاستمرار فى حلقها كل ٢٨ يوما حتى لا يرغب فيها رجل آخر غير زوجها.. بينما يجب على الرجال ترك شعر الرأس يسترسل حتى يصل إلى مستوى الكتفين.. وليس من حق المرأة أن تشرح التوراة.. إنها أقل قيمة من هذا الشرف.. والحاخام أقرب إليها من زوجها. فهو الذى يحدد لها على الأقل مدى طهارتها بعد الدورة الشهرية.

لا أحد يسخر من مثل هذه الأمور.. لا أحد من حقه ذلك.. إنها المعتقدات الخاصة التى تعيش تحت جلد الناس فى كل الاديان.. فلماذا يحك ويهرش الإعلام الأمريكى جلد المسلمين ويحترم ويحسس عى جلد اليهود؟.. لماذا الأدب معهم وتجاوز الحد معنا؟.. أغلب الظن أننا نحن السبب. فقد سمحنا لهم بإستعمال الإسلام فى السيطرة علينا وبعنا آيات الله بثمن بخس.

إننا فى كثير من الأحيان كما قال لى محمد حسنين هيكل – نعالج أمراضنا ومشاكلنا على طريقة السحر والأحجبة.. بما فى ذلك مشاكلنا السياسية، وقد استعمل النظام فى مصر الدين دون وعى فى السياسة.. استعمله فى الرجوع عن القرارات الاشتراكية وقوانين

الإصلاح الزراعى.. واستعمله فى تمرير الصلح مع إسرائيل. والاندماج فى الولايات المتحدة.. واستعمله فى التخلص من معارضيه اليساريين.

لقد أباح استعمال الدين واستخدامه فى السياسة.. فلما يرفض أن يلعب غيره نفس اللعبة ويجنى نفس الثمار؟

ثم.. لما لا يلعب الإسلاميون الذين لعب النظام بهم فى وقت من الأوقات - بأنفسهم لصالحهم.. ولما لا ينقلون اللعب من مائدة محلية إلى مائدة دولية.. إذا كانت مقدرات هذا البلد تحدد فى الخارج؟

وفى اللعب.. كل شىء مباح .. الغش.. والمضاربة.. وتبادل الأوراق.. واقتسام الأرباح والافلاس.. والخسارة.. والديون.. والانتحار.

وحول خفايا اللعب يدور هذا الكتاب الذى أعرف جيداً أن موضوعه حساس، ومثير ولا يخلو من الخطر.. فهو يفتح جراحاً لا تزال ملتهبة وهو يحاسب قوى لا تزال ترى فى السلاح الرد الوحيد على الحوار.. ثم.. إنه يكشف أدواراً لعبها بعض ممن لا يزالون فى مواقع قوية ومؤثرة.. ويكشف دولاً قادرة - بسطوة المال - أن تُحرض أقلاماً مغموسة فى النفط على أن ترد بالتشهير.

لكن.. الله قبل ذلك وبعده .. هو خير حافظ.

عادل حمودة

القاهرة - مصر الجديدة



١ التحرير والتبشير فى السعودية!

■ المشهد الأول فى هذا الكتاب هو مشهد متأخر فى تسلسل الأحداث.

وهو مشهد لم ينته بعد.. وان كانت احداثه المليودرامية قد بلغت الذروة.. أى بلغت لحظة التوتر والاثارة التى يحبس فيها الجمهور انفاسه.

فى الأسبوع الأول من شهر مارس ١٩٩١ طار رؤساء تحرير أربع صحف عربية إلى واشنطن لمقابلة الرئيس الأمريكى جورج بوش فى مكتبة بالبيت الابيض.. كانت المناسبة تحرير الكويت من الجيش العراقى – التى احتلها فى فجر يوم ٢ اغسطس ١٩٩٠ – بعد حرب شرسة بدأت فى فجر يوم ١٧ يناير ١٩٩١ واستمرت عدة أسابيع وشاركت فيها عدة دول غربية وعربية بقوات كانت تحت القيادة الأمريكية وتكلفت مليون دولار فى الدقيقة.. اى حوالى ٩٠ مليار دولار.. بخلاف ١٥٠ مليار دولار تكلفة أعادة تعمير الكويت.. وبخلاف خسارة تقدر بنحو ٢٥٠ ألف دولار كل دقيقة بسبب اشعال النيران فى ٨٥٪ من آبار النف الكويتيه. (١)

كان الرئيس بوش فى كامل لياقته النفسية والسياسية وهو يتحدث لرؤساء التحرير العرب عما جرى.. لكنه قبل أن ينهى الحوار بحوالى ١٠ دقائق تغيرت نبرة صوته المرحة إلى نبرة خشنة حادة وقال: «والى الآن اعتقد أن بعض الاتهامات التى يروجها الاصوليون ضدنا غير حقيقية على الأطلاق.. وسوف أقف ضد هؤلاء».

واضاف: «لقد حاولنا فى قصفنا للعراق أن نحافظ على احترامنا لثقافتهم وآثارهم والأماكن الدينية فى كل الأحوال.. وخلافنا ليس مع الإسلام.. وخلافنا ليس مع العرب..

وسأقف علانية لمواجهة اى تمييز عنصرى ضد العرب فى الولايات المتحدة.. وخاصة أن لدينا البعض ممن يقول: ان مشاعرنا جُرحت عندما جُرحت مشاعر رئيسنا».. وكان يقصد الهجوم الذى تعرض له من الاصوليين الإسلاميين خلال الأزمة.

واستطرد: «وأنا لست متعمقاً فى دراسة الدين، ولكننى لا أجد فى مبادىء الإسلام ما يجعلنا نختلف أو نتناقض فيما نؤمن به.. بل على العكس فإننى أجد تماثلا بين مبادىء الإسلام والمبادىء التى نؤمن بها والمشتقة من ديننا وحضاراتنا الغربية». (٢)

كان يفرق – وهو غير المتعمق فى دراسة الدين بين الأصوليين الذين سيقف ضدهم ومبادىء الإسلام التى لا تختلف أو تتناقض مع ما يؤمن به .. المسيحية.

وهو يقصد بالأصوليين التيارات والجماعات والتنظيمات فى العالم العربى والإسلامى التى وقفت ضد التواجد الامريكى فى الخليج والسعودية.. ثم هاجمت قرارات مجلس الأمن التى فرضت الحصار الأقتصادى على العراق.. ثم تظاهرت من أجل وقف القتال بعد أن بدأت الحرب.. وشملت هذه المواقف الأصوليين فى الدول التى شاركت بقوات فى مسرح العمليات مثل مصر والمغرب وباكستان.

ويمكن القول بأن عبارة جورج بوش: «سوف أقف ضد هؤلاء» هى أول تهديد أمريكى رسمى معلن ضد تيارات الإسلام السياسى بمختلف انواعها.. مما يعنى أن حرب الخليج الثانية كانت مفترق طرق سياسية لقوى كانت تمشى فى نفس الطريق من قبل.

لقد جعلت هذه الحرب الأصوليين – من مختلف الاديان – فى مقدمة القوى المعارضة لأبرز سياسات ما بعد الحرب وهى الاندفاع بسرعة لم تكن متوقعة نحو التسوية السلمية فى الشرق الأوسط وكانت أولى علامات هذه السياسة مؤتمر مدريد.. الذى عقد يوم ٣ نوفمبر ١٩٩١ بعد حوالى ٨ شهور فقط من نهاية الحرب.. وفى هذا اليوم وقعت ثلاثة مشاهد سياسية ساخنة فى القاهرة والقدس وواشنطن.. لم تكن مصارعة السلام قد بدأت.. فالمرحلة الأولى مرحلة تليفزيونية، كل وفد فيها يبرر حسناته ويخبىء عوراته السياسية تحت ملابسه الداخلية.. أما الدول العظمى فكانت تتصرف كسمسار يبيع بضاعة لا يملكها بالتقسيط.

ولكن.. ذلك كان فى مدريد.. عاصمة الدماء الحارة والثيران القاتلة والعواطف الملتهبة.. اما بعيداً عنها فكانت ردود الافعال تتسم بالسخط والغضب والرغبة فى الجهاد.. وهكذا.. وقعت المشاهد الثلاثة فى اليوم نفسه.

فى القاهرة خرجت مسيرة طلابية من الجامعة ضمت عدة آلاف من مؤيدى التيارات الإسلامية الرافضة للصلح أو حتى التفاوض مع اليهود.. اعداء الله.. وبدأت المسيرة الضخمة

أمام كلية «التجارة» جامعة القاهرة يتقدمها ٥٠ طالبا يرتدون ملابس حاخامات اليهود ويرفعون شعاراتهم مثل «سنقيم دولة إسرائيل من النيل إلى الفرات». «سنهدم المسجد الأقصى ونبنى الهيكل».. وخلفهم سار آلاف الطلبة يرفعون المصاحف وهم يهتفون «خيبر خيبر يايهود.. جيش محمد سوف يعود».. «إلى الجهاد إلى الجهاد.. إلى طريق الاستشهاد».. «لا سلام مع اليهود بالسلاح حنعود حنعود».. «ياصهيون ياسفاح.. دم المسلم عمره ماراح».. «ياتاريخ قول للشهود باعوا الأرض لليهود».. ثم قام المتظاهرون بحرق العلم الامريكى والعلم الإسرائيلى وصورة الرئيس جورج بوش وصورة رئيس الحكومة الإسرائيلية.. اسحق شامير وطالبوا بتحويل الجامعات إلى معسكرات تدريب للجهاد وفتح باب التطوع للقتال فى الأراضى المحتلة.. ودعم الانتفاضة الفلسطينية المباركة.

فى القدس المحتلة التى أعلنتها إسرائيل عاصمة أبدية موحدة فى يونيو ١٩٨٠ اندفع اليهود المتدينون فى مظاهرات تتسم بالعنف والرفض لاعلان أستيائهم من التفاوض مع العرب.. واصرارهم على التمسك بالاراضى العربية المحتلة التى توصف بانها «أرض إسرائيل» التى وعدهم بها الرب.. أنها بالنسبة لهم أرض «محررة» لا أرض مغتصبة.. وهى جزء من كل لم يصلوا إليه.. من النيل إلى الفرات.. «مملكة التوراة» التى ستسيطر على باقى الأمم.. ثم يأتى المسيح المخلّص الذى ستندفع إليه كل الشعوب لطلب الهداية وتقديم الهدايا.. ويصبح اليهود فى غاية الثراء بعد أن يضعوا ايديهم واسنانهم وارجلهم على كنوز الدنيا.. انها كنوز ستملأ «سرايات» واسعة لا يمكن حمل مفاتيحها واقفالها.. ستحتاج على الأقل لـ ٣٠٠ حمار لحملها.. كما فى التلمود.

والقى المتشددون اليهود الحجارة على مبنى الحكومة وأحرقوا صور شامير واتهموه بالخطيئة.. لأنه لا ينفذ تعاليم الرب ويقبل التفاوض مع من هم «أدنى» من اليهود.. ففى التلمود.. ان أرواح اليهود مميزة عن باقى الأرواح.. انها «جزء من الله».. وهى «عزيزة عند الله».. اما أرواح غير اليهود فهى أرواح شيطانية وشبيهة بأرواح «الحيوانات».. فكيف يهودى متدين مثل شامير أن يفعل ما فعل.. ان ما فعله خطيئة قبل أن تكون جريمة.. وهو يستحق الرجم قبل القتل.

وفى واشنطن خرجت مظاهرات ضد السلام أيضاً قادها الفرع الدين من اللوبى الصهيونى فى الولايات المتحدة والذى تسيطر عليه جماعة «أصدقاء القدس» وقد طالب زعماء هذه الجماعة وهم حاخامات وقساوسة بان لا يضغط «البيت الابيض» على إسرائيل لتوقيع معاهدات صلح اخرى – غير معاهدة كامب ديفيد – مع العرب فيفقد اليهود بعدها اجزاء من «ارض الميعاد».. وطالبوا بنسف مؤتمر مدريد من أجل الا يحل السلام.. فنجاح

هذا المؤتمر يعنى أن الولايات المتحدة تخلت عن دعم إسرائيل.. ويعنى انها ستفقد «البركة» التى تمنحها السماء لها مقابل هذا الدعم.. ففى التلمود انه لو لم يخلق الله اليهود لانعدمت البركة من الأرض ولما خلقت الأمطار والشمس ولما أمكن لباقى المخلوقات ان تعيش.

ولا يؤمن بذلك اليهود فقط وإنما بعض المسيحيين فى امريكا أيضاً لعل اشهرهم القس والمبشر «جيرى فالويل» الذى قال: «ان الله لم يكرم امريكا إلا لأنها كريمة تجاه اليهود» .. وأضاف: «أننا إذا فشلنا فى حماية إسرائيل فلن نعود مهمين فى نظر الله» .. «إن مصير الامريكيين يعتمد على الموقف الذى يقفونه من إسرائيل لأن وجودها هو من عند الله.. والله وحده هو الذى أعطى الارض لليهود.. فلا تستحق ان يستردها العرب» .. وسبق له ان قال: ان الرب «يتعامل مع الشعوب بقدر ما تتعامل هذه الشعوب مع اليهود» .. «أن من يؤذى اليهودى كمن يضع أصبعه فى عين الله وأستطرد: «إن إسرائيل اليوم هى إسرائيل الله».

ولو جمعت هذه المشاهد الثلاثة فى سيناريو سياسى واحد لكان من السهل معرفة أن المعارضين على كافة الجوانب من الطراز الدينى وان اختلفت المواقع والاهداف والشعارات والإعتقادات.. انهم جميعا يرتدون عباءة التدين ويرفعون الكتب المقدسة ويستشهدون بالسماء ويعتبرون أنفسهم على حق وغيرهم على باطل ويتحدثون عن الله والجهاد والحرام والحلال والعدل والخطيئة والبركة وضرورة مواجهة المشركين!

لقد اصبحت المعارضة الاصولية – خاصة المعارضة الإسلامية – أعلى صوتا واشد بأساً بعد حرب الخليج الأخيرة.. ولا يثير ذلك الدهشة فأطراف الأزمة أداروها وهم يستعملون الدين.. وكان كل منهم يتصرف على أن الله معه.

ان صدام حسين نفسه فعل ذلك.. وظهر خلال الأزمة على شاشة التليفزيون وهو يصلى.. كان يريد أن يثبت أنه الزعيم المؤمن الذى يواجه جيوش المشركين.. أو هكذا اراد أن يوحى.. أنها صلاة تليفزيونية.. فهومنذ أن تولى الحكم وهو يعلن رأيه الصريح فى الدين.. «إننا نريد دولة قومية علمانية نفصل فيها الدين عن الدولة والسياسة عن الشريعة» ، وقال ذات مرة: «إن العلاقة التى نريدها بين الأرض والسماء تختلف عن نظرة السلفيين لها» .. وقال مرة أخرى: «إن الدولة بمفهومها الحديث يجب الا تغرق فى «حالة دينية» .. يجب أن تتجنب ان تكون بيت عبادة أو مفتى عبادة» «أو مفتياً للحياة عن طريق دينى» .. ان زج السلطة فى اعطاء احكامها على شئون الحياة من مدخل دينى لابد ان يفضى إلى واحد من امرين: اما عرقلة التطور فى شئون الحياة وتحويلها إلى جحيم لا يطاق من شأنه أن يقتل ابداعات الإنسان وتفاعله مع روح العصر ومستلزماته.. أو افراغ الدين من قدسيته

ومهابته وروحه وتحويله إلى غطاء لتبرير الكثير من مفردات الحياة بما يسيء إلى الدين. (٣)

وقال مرة ثالثة «إن وحدة الأمة فى كل الأحوال تتطلب أن نتجنب هذا المدخل الدينى.. لكن لا نفرق الأمة ونبتعد عن دورنا التاريخى لقيادتها وهى موحدة. (٤)

واستطرد: «على أننا لا نختلف مع الدينيين فى أن الدين قد يصلح كسلاح ضد الطغاة والمستبدين والفاسدين من الحكام فى مرحلة من مراحل الحياة وفى ظروف من ظروفها.. ولكن ينبغى ألا ينصرف ذهن المناضل العربى إلى أن هذا السلاح هو الوحيد لمجابهة الفساد والظلم.. وأن ينتبه إلى ألا يمسك السيف من نصله فيقود استخدام الدين كسلاح او غطاء للمعارضة إلى تمزيق الشعب واحياء الاراء والنظريات المتخلفة، وتعطيل تقدم الحياة وروح العصر التى بدونها ستبقى أمتنا مستعبدة وغير قادرة على الاشعاع والعطاء الانسانى القومى. (٥)

هكذا كان صدام حسين ينظر إلى الدين.. الدين عنده رجوع إلى الوراء الف سنة على الأقل.. مجرد طقوس يمارسها الناس فى المعابد.. اسلوب لا يليق بالحياة العصرية.. غطاء لتبرير الاخطاء والتصرفات تعطيلا للتقدم.. قال ذلك بصراحة ووضوح وبكلمات لا تقبل اللبس ولا تحتاج إلى قاموس.. لكن.. هذه النظرة عدل عنها حينما وجد نفسه مضطراً لأن يمسك السيف من نصله.

فى ٨ سبتمبر ١٩٧٩ قال فى خطاب عام: «نحن احفاد على» .. والمقصود انه حفيد الأمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه.. أى من احفاد السلالة النبوية الشريفة.. كان ذلك قبل سنة من حربه مع إيران.. وهو ما يعنى انه استعمل الدين فى الحرب قبل ان يستعمل فيها المدافع.

وكانت جملته هى أول قنبلة دينية تنفجر فى منطقة الخليج التى تمتلىء بمتفجرات مذهبية ملتهبة تجعل منها منطقة سريعة الاشتعال.. لقد جاءت الفتنة الكبرى من حاكم علمانى لا يؤمن بأن الدين سياسة ولا يصلى إلا أمام الكاميرات.

إن اولى الحروب التى اشعلها وهو يرفع راية الإسلام كانت ضد إيران واستمرت ٨ سنوات خسر فيها ٢٧٠ مليار دولار وخرج منها مدينا بحوالى ٦٠ مليار دولار بخلاف مئات الألوف من القتلى والجرحى والأسرى وخلال هذه الحرب تبادل هو والخومينى اتهامات الكفر والالحاد والشرك بالله.. واضفى كل منهما على نفسه صفات الطهر والورع والإيمان.

والحقيقة انه كان مخلب قط للغرب لتحجيم الثورة الإسلامية فى إيران.. نفخ الغرب

فى أطماعه واقنعه بضعف إيران وبانها لن تقاوم وستنضم بسهولة إلى امبراطورية الخليج التى يحلم بتكوينها.. كان الغرب خاصة الولايات المتحدة يخشى أن يلتهم الخومينى السعودية ودول الخليج الأخرى.. ولم يشأ ان يتدخل مباشرة .. ودفع صدام حسين إلى الحرب بعد أن وضع أمام عينيه سراب المجد.

بل أكثر من ذلك باع له الغرب السلاح الذى حارب به إيران.. وكسب الغرب من بيع السلاح قبل أن يكسب من بيع الوهم لصدام حسين.. كسب الغرب المال قبل أن يكسب بقاء إيران داخل حدودها تلعق جراحها وتطبع تذاكر جديدة لدخول الجنة.

إن ٢٠٨ شركات غربية باعت السلاح للعراق منها ١٨ شركة أمريكية و٨٦ شركة ألمانية و١٨ شركة بريطانية و١٦ شركة فرنسية وبلغت قيمة هذا السلاح فى الفترة من ١٩٨٢ - ١٩٨٩ فقط حوالى ٨٦ مليار دولار وهو ما جعل العراق يخرج من حربه من إيران أقوى مما دخلها.. لقد دخل الحرب بعشر فرق وخرج منها بـ ٥٥ فرقة ومليون جندى و٥٠٠ طائرة و٥٥٠٠ دبابة.

وكان هدف الحرب أن تكف إيران عن تصدير الثورة الإسلامية.. وقد تحقق الهدف وجاء الدور على العراق لتحطيم سلاحه واضعاف جيشه إلى الحد الأدنى لحماية نفسه.. وهكذا دُفع صدام حسين إلى التورط فى إحتلال الكويت.. ولُدغ من الجحر نفسه مرتين.

ومرة أخرى امسك صدام بسيف الإسلام من نصله.. وتحدث من جديد عن انتمائه إلى النسل النبوى الشريف.. وعن رغبته فى تحرير الاماكن الإسلامية المقدسة فى مكة والمدينة من المفسدين فى الأرض وفى السعودية.. وبدأ فى التباكى على وجود قوات امريكية «مشركة» فى الاراضى الطاهرة.. وكان يقصد القوات الامريكية التى نزلت السعودية بعد احتلال الكويت.

وانضم إلى السيرك الملك حسين عاهل الأردن الذى ألغى لقبه الملكى واطلق على نفسه لقب جده حاكم الحجاز السابق لقب «الشريف» حسين وقصد بذلك تذكير السعوديين بحقه التاريخى فى أن يرث حكم اجداده فى الحجاز.. كما أن هذا اللقب يعنى انه ينتمى إلى السلالة النبوية الشريفة أيضاً.

وإلى جانب حاكمى العراق والأردن تبارت باقى اطراف الأزمة فى خطف قناع الإسلام واستعماله.. وكان الغرض اقناع البسطاء بأن الحق معهم.. وبأن الحرب هى من عند الله.. وان الجنة من نصيبهم، وبأن الخصم عدو الله مُشرك.. سيحترق فى جهنم الحمراء.. مع أن الجميع مسلمون.. لكن طبيعة الصراع السياسى التى افرزت انواعا خاصة من الإسلام.. إسلام صدام حسين وإسلام دول التحالف.. إسلاميؤيد احتلال الكويت وإسلام يعارضه..

إسلام يقبل بوجود قوات اجنبية غير مسلمة فى الاراضى المقدسة وإسلام يرفض ذلك.

واحتار المسلمون وتساءلوا: عن اى إسلام يتحدث هؤلاء؟.. هل الإسلام ثوب من المطاط يصلح لجميع المناسبات والمقاسات؟.. ولم يكن من الصعب استنتاج ان الإسلام يُستعمل كورقة فى لعبة التضليل السياسى، وان اللعبة سيفوز بها من يملك - إلى جانب المال - اكبر عدد من رجال الدين.. خاصة الذين يملكون موهبة «التفصيل».وقد احتدم الصراع بين ترزية الإسلام.. وحاول كل منهم ان يفصل ثوبا دينياً يلائم الجانب الذى يدعمه.. وتفرج الناس على دورى للمشايخ.. انتهى بفقدان الثقة فى عدد كبير منهم.

وتابع الامريكيون هذه الحرب المقدسة بين المشايخ خطوة بخطوة.. وفتوى بفتوى.. ورصدوها فى تقارير يومية خرجت بالشفرة من سفاراتهم ومحطات مخابراتهم فى عواصم الأزمة.. وكانت نصيحة وليم وبستر مدير المخابرات المركزية للرئيس بوش: أن يلزم هو ورجاله الحذر فى هذا الموضوع الذى يتعامل مع العرب بحساسية مفرطة قد تدمر كل الخطط الامريكية وهى حساسية - فى رأية - يجب أن تُؤخذ فى الحسبان حتى لا توصف السياسة الامريكية فى إدارة الازمة بأنها «ترفض العرب» و«ترفض الإسلام».

وامتدت تعليمات وبستر إلى الاعلام الامريكى بتجاهل انقسام علماء المسلمين وخلافاتهم الحادة حول الأزمة، بل وتجاهل ما يطلقه صدام حسين من شعارات دينية - حتى لا تبدو الحرب - وكأنها حرب دينية.. يُوصف الجانب الامريكى فيها بالشرك والصليبية.. وهو ما كان يسعى إليه صدام حسين. (٦)

والحقيقة ان المخابرات المركزية لم تكن فى حاجة إلى التدخل فى هذه القضية - التى وصفتها بالحساسية - فقد كن هناك من يلعب لصالحها.. وإن لم يكن على اتصال بها.. كان هناك من يبرر وجود قوات امريكية فى السعودية شرعا ودينا.

ففى حديث للشيخ متولى الشعراوى للتليفزيون المصرى - أُذيع أكثر من مرة - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وهو الداعى إلى الله والمبلغ لمنهجة.. حينما هاجر إلى الطائف ليلتمس نصيراً ثم عاد إلى مكة فلم يجد احدا يجيره.. فاستجار بكافر هو «المطعم بن عدى».. اجاره «المطعم» ووقف موقف الرجولة.. الرجولة الإنسانية لانه ليس على دينه.. اذن رسول الله حين اضطرته الظروف دخل فى جوار الكافر.. ثم انه حينما لم تكن عنده عدة للقتال استعار من صفوان بن امية الكافر عدة ليقاتل بها.. ثم حينما اراد أن يهاجر استعان بدليل كافر هو ابن أريقط ليدله على الطريق. (٧)

كان ما قاله الشيخ الشعراوى بهذا الحماس مفاجأة للذين تابعوا هجوم فضيلته على المسيحيين من قبل.. وهو هجوم وصفه بأنه «عن حب» فقد قال: «ولكن باحبهم

ستخسرهم انهم مايدوقوش الحلاوة اللى بندوقها». ومفهوم ما يقصد. (٨)

ومهما كان القول جذابا والفتوى محكمة فى كل مرة فقد احست الملايين التى تتابع اديث الشيخ الجليل انه قادر – حسب الحاجة – على استعمال الإسلام فى تبرير الموقف وعكسه!

وفى الحديث التليفزونى نفسه قال الشعراوى: وإذا كانت مصالحهم – يقصد القوات جنبية – قد جاءت مع مصالحنا ما المانع اذن من الاستعانة بهم؟. (٩)

ودعم هذا الرأى ببيان الأزهر فى ٢١ أغسطس ١٩٩٠ وقال: «لا خير فى الاستعانة لك القوات على اختلاف جنسياتها لأن الاستعانة قائمة على مبدأ الاتفاقات والتعهد ولى.. و.. القول بانتهاك الاراضى المقدسة بدخول القوات غير المسلمة أرض المملكة عربية السعودية غير صحيح لأن هذه القوات اما مسلمة أو معاهدة وقد جاءت لرد عدوان ولدفع الظلم». (١٠)

ويمكن أن يكون ما جاء فى بيان الأزهر حقا لا يأتيه الباطل من أى جانب.. ولكن لا أحد امل معه بجدية.. ليس فقد لأن الأزهر هو المؤسسة الدينية الرسمية وانما لأن تجربة أزهر فى الفتاوى السياسية كانت تتغير من ظرف إلى ظرف ومن حاكم إلى آخر.

وتذكر الناس فتاوى الزهر التى حرمت الصلح مع إسرائيل ايام جمال عبدالناصر فتاوى الأزهر التى هللت للصلح مع إسرائيل ايام انور السادات.. وكان هذا التذكر كفيلا ن لا يحظى بيان الازهر – حول ازمة الخليج باهتمام يذكر.

على أن هذه الفتاوى لم تمنع خوف المسلمين من التصرفات الطائشة التى يمكن أن تى بها الجنود الأمريكان فى السعودية.. وهى مجتمع – ولو فى الظاهر – محافظ متشدد ويجنح إلى الصرامة فى التحريم.. فهو يحرم التدخين وخروج المرأة بمفردها تى ولو كانت مغطاة بالكامل.. وحرام ايضاً أن تقود السيارة.. وقد تظاهرت بعض نساء بعد أن حرمن هذا الحق وقبض عليهن.. وحرام كذلك الرسم وحمل التمائم.

وكان لهذا الخوف مايبرره.. فجنود هذه الدول جاءوا للدفاع عن السعودية بشروط ولهم لا بشروط السعودية.. وأى قيود عليهم لا يمكن أن تصل إلى درجة التحريم التى فرضها المذهب الوهابى.. ثم.. ان من بينهم مجندات وهو ما يفرض الاختلاط الجنسى ى الثكنات، وبدون محرم.. وهؤلاء الجنود تعودوا على الترفيه وتفريغ الكبت حتى يتفرغوا قتال.. وتعودوا على الخمر وهى غير محرمة عندهم.. وهم فى حاجة لرجال دينهم قامة شعائرهم.. اى انهم فى حاجة إلى قساوسه وحاخامات لأن بينهم يهودا أيضاً.

انها متاعب لم يكن من السهل حلها وإن أمكن التحايل عليها.. وقد ذكرت جريدة «التايمس» البريطانية فى احدى افتتاحياتها «ان القوات المسيحية الموجودة الآن فى السعودية تضطر إلى التخفى وانكار صفة رجال الدين وتسميتهم بألقاب تُرضى السعوديين مثل مستشارين روحيين.. وفى يوم الأحد لا يسمح لهذه القوات بممارسة الطقوس الدينية كاملة».

واضافت: ان الحكومات الغربية لن تخرق ميثاق الأمم المتحدة التى جاءت القوات على اساسه – إذا ذكروا الحكومة السعودية بأن مسئوليتها – تحت هذا الميثاق – هو توفير حرية العقيدة. (١١)

وبعد أربعة أيام نشرت «التايمس» فى عدد واحد أربع رسائل.. كلها تهاجم السعودية التى تخلو من الكنائس»(١٢)

وجاء فى أحدى هذه الرسائل: لو كان هؤلاء الجنود فى بغداد لا تيح لهم ان يختاروا من بين شتى الكنائس المسيحية عبر الشارع من الفندق الذى يقيم فيه الرهائن – الذين كان يحتجزهم صدام حسين كدروع بشرية.. ففى منطقة «المنصور» الكنيسة الانجيلية التى بنتها فرقة المدفعية الملكية تحية للرماة الذين ماتوا فى المنطقة.. هذه الكنيسة ظلت تواصل خدماتها منذ الوجود البريطانى، ومن يومها وهى تعرض شارات القوات والجيش البريطانى.. ولو كانوا فى بغداد لكان بوسعهم أيضاً أن يحصلوا على بيرة وساندوتشات من لحم الخنزير ويذهبون للسينما. والنساء كان بوسعهن ان يشربن ويسبحن ويعرضن اجسامهن للشمس.. ان العرب كثيرا ما كانوا يقولون عنا أننا فى الغرب لا نؤمن برب ولامبادىء ولاكرامة.. ويمكن دائماً شراؤنا ويصعب دحض هذا الاتهام الآن إذا كنا نساوم على الصلاة على قتلانا. (١٣)

وفى رسالة أخرى كتبها قس بروتستانتى: «لقد كان الامر يدعو إلى السخرية لولا ان قوات صاحبة الجلالة هناك يضحون بحياتهم أساسا للدفاع عن حقوق الإنسان التى من ابرزها حرية ممارسة العقيدة.. اليست السعودية عضوا فى الأمم المتحدة؟.. الا يجب ان نضغط على الأمم المتحدة لكى تضع حدا للاهمال السعودى الواضح لهذا الحق من حقوق الإنسان.. لماذا نتملق السعوديين.. هل النفط اعز من القداس. (١٤)

كانت تعليمات البنتاجون أن ألا ينزل الجنود الأجانب إلى المدن السعودية بملابس مدنية وألا تدخل اى مجندة السوبر ماركت بمفردها.. وان يُرحل اى مجند أو مجندة يضبط فى حالة شذوذ جنسى.. وأن يكون القمار داخل الخيام فقط.. والخمر والمجلات العارية ايضا.. والشورت الساخن الذى ترتديه المجندات مسموح ولكن فى وقت الراحة

٢ الملك فهد يستيقظ متأخراً!

فقط.. وقتال الجنود على امرأة ممنوع.. فالمجندة هى التى تختار وهى التى تعلن اختيارها.. انها مثل ملكة النحل فى جيش من الذكور.

والجيش الامريكى يسمح بالترفيه عن جنوده ويعتبره من ابسط حقوقهم.. واللبان لا يكفى ولا البيرة الخالية من الكحول والتليفزيون السعودى غير جذاب.. وشرائط الفيديو المختارة مملة.. ولا مكان للسهر ولا للمتعة، وقد رفضت مصر ان ينزل الجنود الامريكيين إلى القاهرة أو الأسكندرية لقضاء اجازة خاطفة.. ولكنها سمحت لهم بنزول الغردقة واتى الامريكيون بزورق للحب «عبارة عن سفينة كبيرة مستعدة لاشباع كل رغبات الجنود».. يشربون ويرقصون ويتفرجون على الافلام المثيرة ويحبون.. وأوقفوا الزورق فى المياه الدولية. (١٥)

اما من يريد أن يلعب القمار فعليه الذهاب إلى سفينة أخرى تقف فى خلية العقبة ويذهب إليها السياح من إسرائيل لأن القمار ممنوع فى إسرائيل.

اما مشكلة رجال الدين المسيحى فظلت مشكلة.. فعدد القوات حوالى نصف مليون وهو عدد كبير فى حاجة إلى عدد قساوسة اكبر من الذى سُمح به وحسب الأرقام الرسمية كانت الخريطة الدينية لهذه القوات على النحو التالى:

- ٣٠٠ الف بروتستانتى لهم ٥٦٠ قسيساً.
- ١٧٥ الف كاثوليكى لهم ١١٥ قسيساً.
- ٥ آلاف ملحد ليسوا فى حاجة إلى من يعظهم او يصلى معهم او عليهم.
- ٥ آلاف مؤمن لا يصلى وكانوا فى حاجة لمن يهديهم اولا.
- ١٥٠٠ يهودى ولهم ٥ حاخامات.

وقد بُنيت الكنائس من الأخشاب حتى يسهل فكها، ولم يرفع عليها صليب واضح.. ايضا لم يعلق القساوسة.. صلباناً.. ومن باب الحذر سموا الصلوات.. اجتماعات دينية.

■■■

هوامش

(١) صوت الكويت - الأحد ١٩٩١/٣/١٠

(٢) المصدر السابق - ص٥ - العمود الرابع.

(٣) امير اسكندر: صدام حسين مناضلا ومفكراً وإنساناً ٠ الناشر: هاشيت - المطبعة العربية ١٩٨٠ ص ٣٢٢.

(٤) اسكندر - ص ٣٢٢.

(٥) اسكندر - ص ٣٢٤.

(٦) انظر بين سالسينجر واريك لوران: أزمة الخليج - الملفات السرية - الترجمة العربية فبراير ٩١ بدون اسم مترجم - دار آزال بيروت.

(٧) انظر نص الحديث فى الملف الوثائقى عن الأمة العراقية الكويتية - الهيئة العامة للاستعلامات ١٥/ ١٩٩٠ الملف رقم (٣) ص ٤٩و٥٠ والحديث أذيع فى التليفزيون المصرى فى ١٩٩٠/٩/٥ واجراه الشيخ الشعراوى المذيع احمد سمير.

(٨) محمد جلال: لا ياشيخ شعراوى - القاهرة ١٩٩٠ بدو اسم ناشر - ص ٢٧.

(٩) مصدر سبق الاشارة إليه - ص ٥١.

(١٠) الهيئة العامة للاستعلامات - الملف الوثائقى رقم (٢) أول سبتمبر ١٩٩٠ - ص ٤١ و ٤٢.

(١١) نقلا عن جلال كشك - مقال بعنوان «تبشير ام تحرير» - جريدة الوفد - ١٩٩٠/١١/٢٤ - ص

(١٢)و(١٣)و(١٤) - كشك : المصدر السابق.

(١٥) انيس منصور - عمود مواقف الأهرام ١٩٩٠/١٢/٧.

■ لم تمر أزمة الخليج على النظام فى السعودية بخير.. وقبل أن تنتهى الحرب وتنسحب القوات الأجنبية كانت حركة المعارضة الأصولية قد اكتسبت قوة اضافية.. هبطت عليها من السماء وبدأ صداع لم ينته حول شرعية الأسرة السعودية فى الحكم.. ومدى تمسكها بالإسلام .. والمذهل أن الأعلام الأمريكى وجدها فرصة لتوجيه لكمات مؤلمة فى وقت حرج لهذا النظام.. فبعد حوالى ٣ شهور فقط فى بداية الأزمة فى الأسبوع الأخير من أكتوبر ١٩٩٠ نشرت جوديث سيزار فى صحيفة «واشنطن بوست» مقالا يمكن اعتباره ملخصاً وافيا لانتقادات الصحافة الأمريكية للنظام الملكى السعودى.

تقول جوديث سيزار:

١ - تشهد المملكة العربية السعودية فى الوقت الحالى حرب «كاسيت» ضد الأسرة الملكية الحاكمة وضد التواجد العسكرى الامريكى هناك.. ويواجه السعوديون عقبات قوية تمنع وصول ارائهم المعارضة إلى الخارج بسبب مراقبة البريد والتليفون.. ومع ذلك يروى السعوديون الذين يسافرون إلى الخارج تفاصيل عن حرب هامة تستخدم فيها شرائط الكاسيت التى انتشرت كثيراً وهذه الشرائط تحوى الأخبار الممنوعة.. وخطباً لمعارضى النظام.. من بينهم شخص يدعى «صقر حولى» يقول فى احد هذه الشرائط: إن العداء بين الإسلام والغرب قضية قائمة وسوف تستمر ومن الخطأ دعوى الغرب للدفاع عنا.

وينبغى قبل أن نقلل من قيمة هذه الشرائط أن نتذكر الدور الذى لعبته شرائط الكاسيت المسجل عليها خطب آية الله الخومينى فى الاطاحة بشاة إيران.

٢ – ويقول رجل أعمال سعودى وصل مؤخراً إلى الغرب: «إن الناس لا يتابعون الأخبار الرسمية من التليفزيون والراديو فى السعودية لأنهم واثقون من أنها تروج أكاذيب والناس.. يريدون شرائط الكاسيت لمعرفة حقيقة ما يحدث».

٣ – أن أخبار نزول قوات أمريكية مثلا لم تذع فى السعودية إلا بعد حدوث ذلك بعشرة أيام.. كما ظلت وسائل الأعلام تشير إلى تلك الجيوش باعتبارها تنتمى إلى دولة صديقة دون الأشارة إلى جنسيتها الأمريكية وذلك حتى وقت قريب.

وقد شكلت عملية انزال القوات الأمريكية فى السعودية صدمة لكثير من السعوديين الذى تسامحوا كثيراً فى عمليات سوء الإدارة الحكومية على أساس أن ثروة المملكة توجه لبناء قوة عسكرية قادرة على الدفاع عنها ضد أى عدوان خارجى.

وفى منتصف الثمانينيات وعندما إنخفضت اسعار البترول تقبل الناس انخفاض الدعم والمعونات الحكومية الخاصة بالتعليم والصحة على أساس أن أموالا كثيرة تنفق على الاحتياجات العسكرية الدفاعية.

٤ – وحملت شرائط الكاسيت أسئلة خطيرة مثل «أين ذهبت الأموال».. و«ولماذا لا يوجد عندنا جيش».. ويقول أحد الليبراليين السعوديين فى الخارج: ان الكثيرين تعرضوا لصدمة قاسية عندما وجدوا أن كل ما قلناه لهم عن قواتنا العسكرية كان حلما مزيفا.. فلو لم يكن كذلك فلماذا نحتاج امريكا للدفاع عنا ضد العراق؟

٥ – وفى شرائط أخرى اتهامات للولايات المتحدة بأنها أتت للسعودية.. «لتسرق بترولنا».. إن الأمريكيين يريدون أرضنا وماوراء أرضنا.. يريدوننا نحن.. فهم يعتبروننا جنسا متخلفا يجب التخلص منه.

٦ – وينبغى ألا يلوم النظام السعودى إلا نفسه.. فقد مارس سياسة تعليمية واعلامية منغلقة حتى يتم تجنب اطلاع شعبه على الديمقراطية الغربية وكان يشار إلى امريكا باعتبارها بلدا غير متدين يمارس شعبه العنف والقتل.. وهكذا وجدت كل الدعايات التى تتضمنها شرائط الكاسيت ضد أمريكا أرضية واسعة لكى يصدقها الناس كحقائق.

٧ – وتقدم الصحف السعودية تغطيات واسعة للجرائم العنيفة التى تحدث فى امريكا وخاصة جرائم اغتصاب الأطفال(!!) وقد ساهم الصحفيون الجهلاء فى تضخيم هذه المشكلة.. فقد صورت شبكة «سى. بى. اس» التليفزيونية فيلما لحفل ترفيهى تقوم فيه فتيات شبه عاريات بالغناء والرقص للجنود الأمريكيين فى السعودية، وقد اذاع التليفزيون

العراقى هذا الفيلم وتمكن عديد من السعوديين من مشاهدته كما تم توزيعة على شرائط فيديو فى مكة والرياض على نطاق واسع.

٨ – وفى السعودية فإن العروض الفنية تقتصر على ظهور مجموعة من العازفين والراقصين أمام جمهور من المشاهدين من نفس الجنس.

ويعتقد الاصوليون السعوديون انه حتى الرقص الفلكلورى حرام.. وهكذا فان ظهور الفتيات بزيهن الساخن امام الجيش الامريكى اعطى وثيقة للاصوليين فى ابراز دعايتهم.. وهى وثيقة تساند ايضاً ادعاءات العراق وإيران بأن الملك فهد سلم البلاد للأجانب الكفرة والمنحطين. (١)

انتهى.

ولا جدال فى ان حرب الكاسيت افزعت النظام السعودى وخاصة ان معظم الشرائط مسجلة بصوت علماء دين مشاهير هناك ولهم مريدون من مختلف الفئات والأعمار.. وقد تحدثوا فى السياسة والشريعة والغواية ولحم الخنزير والثروات المنهوبة والمجندات اللائى ارسلهن الشيطان للفتنة.

انها المرة الأولى منذ تحالف الأمراء والشيوخ فى السعودية التى يقفون فيها وجها لوجه.. لقد استعمل الطرفان العقيدة والسيف لبناء الدولة.. لكنهما الآن يقفان وجها لوجه.. الأمراء ضد الشيوخ.. القوة ضد العقيدة.. وبدلاً من أن ينجح الحكام فى السعودية فى استعمال الإسلام – كما تعودوا كثيرا – وجدوا من يستعمله لاسقاط عرشهم.

فى كاسيت لعالم دين معروف سأله شاب عن صدام حسين واحتلال الكويت فأجاب بانه باغ لاشك فى بغيه ويجب قتاله.. وسأله آخر: بم ينصح الشباب والوضع كما صوره؟.. فقال: اذهبوا إلى بيوتكم واغلقوا ابوابكم.

وفى كاسيت آخر يقول صاحبه: انه سمع من مصدر يثق به ان جنديا امريكيا ذهب بخنزير إلى صاحب مطعم فى المملكة وطلب منه طبخ الخنزير.

وفى كاسيت ثالث يروى صاحبه انه قرأ فى مجلة اجنبية عن ادوية ومستحضرات طبية تحملها المجندات تسهل الغواية والعشق والفجور وترطب الشفاة والبشرة وتبعث روائح تغرى الرجال وتثير شهوتهم الجنسية مهما كانت درجة تمسكهم الدينى.

وفى كاسيت رابع يبكى صاحبه من شدة الألم الذى سببه له وجه امرأة مجندة اجنبية فى بلاده للدفاع عن الاراضى الإسلامية المقدسة.

وكاسيت خامس صاحبه متخصص فى هندسة البترول وكان فى الولايات المتحدة ويقول انه لم يفاجأ بالغزو الصدامى للكويت.. فهذا معروف ومنشور فى امريكا.. ثم قال: ان فى المملكة اعداء اخطر من صدام حسين هم القوات الامريكية.. أو الجماعة كما يسميهم الذين لم يجيئوا الا بسبب النفط كما اضاف. (٢)

وكانت هناك مفاجأة أخرى تنتظر السلطة الحاكمة فى السعودية.. فقد وضعت الطبعة الدولية لمجلة «تايم» الامريكية الشهيرة صورة (مرسومة) للملك فهد على غلاف عدد ٢٤ سبتمبر ١٩٩٠ مع عنوان رئيسى: «تحت السلاح».. والمقصود ملك السعودية تحت السلاح.. وبضغوط سعودية صودر العدد فى مصر وبضغوط امريكية افرج عنه بعد ٣ أيام.

والتحقيق الصحفى الرئيسى فى العدد عن الحياة والناس فى السعودية وهو بعنوان «نزع الحجاب»، وفيه صورة داخل سوبر ماركت تجمع بين جنود امريكيين يحمل احدهم زجاجة «كوكاكولا» حجم عائلى وامرأة سعودية منقبة تشترى حاجاتها وهى وفتاة أصغر عارية الرأس من البقالة.. والصورة منشورة على نصف صفحة.. وهو ما يعنى ان مجلة «تايم» ماكانت تتصور ان الزمن يمكن أن يجود بمثل هذه الصورة.. وهناك صورة اخرى لامرأة سعودية متشحة بالسواد، لا يظهر اطراف اصابعها تقف فى سوق الخضار امام صناديق تفاح.. والتفاح رمز له معنى.. فهو الفاكهة التى اخرجت حواء وآدم من الجنة.. وكشفت عوراتهما بمجرد ان تذوقاها.. وهناك صورة ثالثة لجنود مسلمين بملابس القتال يسجدون لله، وجباههم تلتصق بالرمال.. وهى صورة تشرح للغرب كيف يصلى المسلمون.

أما التحقيق نفسه فيتعرض لثراء السعودية بعد فقر.. وترفها بعد جوع.. واموالها التى لا نهاية لها والتى يسيطر عليها ٥٠٠ أمير.. وإن كان عدد الأمراء ٥ آلاف ويمكن أن يرتفع العدد إلى ١٥ ألفا خلال العشرين سنة القادمة إذا ظلت الاسرة السعودية فوق العرش.

ان السعودية الحديثة دولة اسسها محارب صحراوى منذ اكثر من ٦٠ سنة هو عبدالعزيز بن سعود. صممها كشركة بالمعنى المباشر للكلمة.. الملك يحكم ثم ينتقل الحكم من شقيق إلى شقيق من أبناء عبدالعزيز فقط ويمكن اعتبار مجموع الإخوة مثل مجلس إدارة الشركة يليهم حوالى ٤ ـ ٥ الاف أمير ممن يمتون بصلة إلى العائلة المالكة لكنهم لا يتمتعون بأى سلطة.. أو يتمتعون بسلطة محودة جدا فى تسيير شئون الدولة،

مع هذا يحق لهم بالوراثة ابداء رأيهم فى مجمل المواقف التى يتخذها مجلس الإدارة. إنهم مالكو الاسهم المفضلون وهناك الوزراء من غير العائلة المالكة هم مدراء تنفيذيون مهمتهم تسيير الاعمال.. وفى القاع هناك افراد الشعب يملكون اسهما بسيطة فى الشركة لكن سلطتهم معدومة.

والملك اعلى سلطة ويحميه ويحمى عرشه الحرس الوطنى وهو مكون من ٣٤ الف فرد من البدو الاشداء الذين يتسمون بصلابة الرأس وضيق الافق.. فى حين ان الجيش السعودى الذى يحمى كل هذه البلاد الشاسعة الغنية لا يزيد على ٦٥٧٠٠ جندى.. وثبت انه عاجز عن الدفاع عن البلاد فحينما اصبح خطر صدام حسين على بعد عدة كيلومترات استعان الملك فهد بالجيوش الأجنبية لحمايته.

وبلهجة لا تخلو من الدهشة والشماته يتعرض تحقيق «تايم» لقضية التشدد الدينى التى وضحت فى حادث اقتحام المسجد الحرام بقيادة جهيمان العتيبى – والذى لعبت فيه المخابرات المركزية دورا كما سنثبت فيما بعد – والذى راح ضحيته عشرات الرجال من المقتحمين ومن الجنود السعوديين.

ويذكر التحقيق أن الرق والعبودية ظلا فى المملكة حتى سنة ١٩٦٢ عندما تخلص الملك فيصل من هذه الصورة المهينة.

ويتعرض التحقيق لوضع المرأة الذى يصفه بالتخلف ويقول: ان المرأة لم تظهر على شاشة التليفزيون الا فى سنة ١٩٧٠ ولم يكن ذلك مريحا لرجال الدين الذين يمثلون جمعية «الامر بالمعروف».. أو «المطوعين».. وهم يعتدون بدنيا على كل من لا يستجيب لتعليماتهم.. كما انهم سلطة موازية لسلطة الدولة.

لكن «تايم» التى افرطت فى الرصد لم تهتم بالتفسير.. فهؤلاء المطوعون المتشددون قد ورثوا افكار ومعتقدات مؤسس المذهب الوهابى الشيخ محمد بن عبد الوهاب.. وقد ولد فى نجد فى سنة ١٧٠٣ وجنح نحو التطرف واقدم مؤلفاته «كتاب التوحيد فيما يجب فى حق الله على العبيد» وعندما انتهى من تأليفه خرج إلى الناس وفى يده الكتاب وقال لهم «اشهد الله انى مكتف بما فى هذا الكتاب وانا اقول ان الذى سُطر فيه هو الحق لا غير».. فقال له رجل اسمه على بن ربيعه وهو من كبار القوم: «يامحمد انت رجل شريف فى قومك لا تقل ماليس حقا فتندم بوقوع الفتنة بين الناس.. فقال له الشيخ: هذا هو الكتاب اقرأه فإن جدت فيه خللا عاتبنى به. فأخذ الرجل الكتاب وجعل ينظر فيه ثم رده إليه قائلاً:

«هذا حق.. فبين لنا كيفية سلوكه وما ينبغى أن يُتبع لرواجه».. فقال له الشيخ «طريق رواج هذا الامر النصيحة وبذل المعروف.. فإن لم يجر بذلك.. فبالسيف». فتساءل الرجل: كيف يستحق القتل من لا يتبعه وهو من تأليف بشر؟ فأجابه الشيخ: لانه كافر مشرك.

وفى اعتقاد الشيخ أيضا.. ان غير الوهابيين من المسلمين كفار.. ويجوز اباحة محرماتهم.. فالسنة والشيعة ليسوا مسلمين فى اعتقاد الوهابيين.. وهو ما جعل السعودية شريكة فى محاولتها لنشر المذهب الوهابى فى العالم الإسلامى بالمال وتجنيد العلماء فى التطرف. (٣)

ولكن فى عُرف الذين يستخدمون الدين فى لعبة السياسة يكسب الأكثر تطرفاً.. وهكذا خلقت حرب الخليج الثانية جيلا من المتشددين يرى أن الأسرة المالكة السعودية فرطت فى الإسلام بما فعلت، وسرعان ما تحولت المعارضة الدينية إلى معارضة سياسية.

وفى عدد «تايم» نفسه موضوع عن الملك فهد.. أو «خادم الحرمين» وهو اللقب الدينى الذى اطلقه الملك فهد على نفسه فى محاولة لكسب الدنيا والدين فى لقب واحد.. ولأن الحرمين منطقة الإيمان التى ينتمى إليها المسلمين فى الارض فقد تصور الملك فهد ان هذا اللقب سيمنحه سلطة اوسع من حدود بلاده.

وتقول المجلة: ان فهد عندما كان اميرا ووليا للعهد كان يعرف كل ملاهى ومواخير بيروت.. بالاسم والموقع وبرامج السهرة.. يعرف الراقصات والنساء.. وكان صديقاً لزوجة رجل اعمال لبنانى وقد طلب من صديقه التنازل له عن زوجته مقابل ١٠٠ ألف دولار سنوياً.. وفى مونت كارلو خسر فى ليلة واحدة مليون دولار فى كازينو قمار.

وفيما بعد ترددت شائعات عن ان فهد لا يزال يلعب القمار وانه يمارسه وهو فى قصره من خلال قنوات تليفزيونية فضائية تتصل بأشهر نوادى القمار.

ويزن فهد - البالغ من العمر ٦٩ وقت أزمة العراق والكويت - ١٢٥ كيلوجرام - ويعانى من متاعب صحية.. خاصة فى المفاصل تجعله يتحرك بصعوبة.. وقد أصبح وليا للعهد بعد اغتيال الملك فيصل ثم أصبح ملكا بعد وفاة الملك.. خالد الذى كان يعانى من متاعب فى القلب وتقدر ثروة فهد بنحو ١٨ مليار دولار وهو ثانى اغنى رجل فى العالم، بعد سلطان بروناى الذى تقدر ثروته بحوالى ٢٥ مليار دولار.. وهو يملك ١٢ قصرا ملكيا ثمنها ٢,٥ مليار دولار.. اهمها قصر اليمامة فى الرياض وله قصر ابيض فى ماربيلا بأسبانيا.. وآخر فى جنيف اشتراه ولم يدخله بعد ان اعترضت بلدية جنيف على محاولة فهد دهان القصر باللون الأخضر.. وهو يملك يختا بحرياً ثمنه ٦٠ مليون دولار

واسطولا من طائرات وسيارات «رولز رويس».. وهو يعتقد ان ذلك لا يتعارض مع أحكام القرآن.

وهو يستيقظ من نومه فى الساعة الحادية عشر صباحاً.. ويقضى ساعات طويلة فى مشاهدة افلام الفيديو.. ومن جانبه لا يعترف بأهمية الزمن، ولا المواعيد.. ويمكن ان ينسى مواعيده الهامة ويمكن ان يعطل السفراء والوزراء بالساعات.. ويمكن أن يستقبلهم متأخراً بعد منتصف الليل. (٤)

وفى عبارات اخرى يرسم الكاتب البريطانى المعروف نفس الصورة فيقول: «بعدما أُغتيل فيصل واعتلى الملك خالد العرش، كان لابد من احداث بعض التغييرات.. كان الملك خالد يحب الحياة الهادئة المتوانية ويفضل قضاء ايامه مع القبائل فى الصحراء يصطاد الصقور وسرعان ما أضحى الامير فهد ذو البنية القوية والوجه المستدير المنغمس فى الملذات - الذى كان فى ظل حكم فيصل وزيراً للداخلية - سرعان ما اصبح ذا السلطة الحقيقية فى المملكة فهو ولى العهد الذى لا يُنازع ومع مجيء الملك خالد اصبح وليا للعهد والنائب الأول لرئيس الوزراء وعندما بدأت صحة الملك خالد فى التدهور أحكم فهد قبضته على زمام الحكم قبل مدة طويلة من وفاة الملك خالد لقد كان فهد ملكا ولم ينقصه الا التسمية.

اتى معه إلى الحكم ما يدعى حزب فهد.. وكانوا سبعة أشقاء من ام واحدة تدعى حصة السديرى.. تحركوا مباشرة فى اتجاه الامساك بزمام السلطة وفى تفكيرهم أن يتمسكوا بها اطول مدة ممكنة.. فاحتل الاشقاء السبعة اهم المقاعد فى مجلس إدارة «الشركة».. كان فريق فهد أو السديرون السبعة.. كما يشار إليهم احيانا يستولون بطريقة منتظمة على مراكز السلطة فى المملكة.

«ورث فهد العرش فى يونيو ١٩٨٢.. وفيما كان فيصل قوياً وقادراً على إملاء رغباته كان فهد يميل دائما إلى اعطاء اشقائه سلطة اقوى فى إدارة الشركة.. وبينما أمضى فيصل شبابه يتعلم إدارة الحكم.. ينتقل فى اسفاره كوزير للخارجية حول العالم يكتسب خلالها الكثير.. كان فهد مقامرا يشارك فى الحفلات فى أوروبا وينال منها ما يريد.. وبينما كان فيصل واثقا من نفسه كان فهد حسودا.» (٥)

لقد سبق جيفرى روبنسون مجلة «تايم» فى رسم هذه الصورة للملك فهد بحوالى سنتين.. لكن مجلة «تايم» اختارت توقيتا قاتلاً للهجوم على الملك فهد والأسرة السعودية المالكة.. فقد نشرت مانشرت فى وقت كان فيه الامريكيون يسعون لحماية فهد واسرته

وعرشه فى اكبر عملية حماية عسكرية لنظام حليف قامت به القوات الامريكية.. واثار هذا التناقض الدهشة والاستغراب.. فإذا كان الملك فهد كما صوروه فلماذا يتدخلون لحمايته؟ وإذا كان يستحق حمايتهم فلماذا يهاجمونه؟

ولم يفهم الذين عجزوا عن التوصل إلى اجابة مناسبة.. ان هذه هى السياسة الأمريكية.. تدعم انصارها من جانب وتعصفهم من جانب آخر.. تسعى إلى تحطيمهم إلى حد ما ولكن دون ان تقضى عليهم.. حتى يظلوا فى حاجة دائمة إليها.. وإلى حمايتها.

لقد اراد الامريكيون – وقواتهم تهبط المملكة – نزع الريش القوى فى اجنحة الحكم السعودى.. ولأن الإسلام هو ما يزهو به السعوديون فكان لابد من اثبات انهم يقولون ما لا يفعلون.. وانهم يتحدثون عن الإسلام ولا يعملون بأحكامه.. ومن ثم عليهم أن يدفعوا أكثر.. وان يقبلوا برجال الدين المسيحى والكنائس والتراتيل داخل الوحدات الامريكية على ارضهم.. وهو ما كانوا يرفضونه بشدة.. ثم قبلوه بتحفظ.. واخيراً استسلموا.

ولكن اضعاف نظام الحكم السعودى لم يستفد منه الامريكيون فقط.. وانما استفاد منه تيار المعارضة المتنامى فى السعودية.

ففيما بعد فى صيف ١٩٩٤ هرب دبلوماسى سعودى بارز فى البعثة السعودية فى هيئة الامم المتحدة واعلن ان الملك فهد «طاغية».. وان السعودية تعيش حالة «الانهيار».. ولم يكن الدبلوماسى السعودى محمد الخويلى أول مسئول سعودى لامع يفعل ذلك.. وينضم إلى تنظيمات المعارضة السعودية التى تمارس نشاطها فى لندن.

وابرز المعارضين فى لندن محمد المسيرى وهو يقول: ان النظام السعودى فشل فى ادارة الأماكن المقدسة وأكبر دليل على هذا الفشل ان حوالى ٨٠٠ حاج لقوا حتفهم وهم يؤدون مناسك الحج.. واضاف: أن الإسلام يعطى للناس الحق فى اسقاط حكومتهم إذا كانت ضد الإسلام والحكومة السعودية ضد الإسلام.. وإذا كان العنف هو السبيل الوحيد لتحقيق ذلك.. فهذا مقبول. (٦)

فى الاسبوع الثالث من مايو ١٩٩٤ هرب الخويلى وكان سكرتيرا أول فى البعثة السعودية فى نيويورك وقال: انه ينوى تأسيس مكتب فى نيويورك لجماعته المعارضة بأسم منظمة «الإنسانية والسلام».. وستعمل هذه المنظمة بالتنسيق مع هيئة الدفاع عن حقوق الإنسان التى تمثل المعارضة السعودية فى لندن.. وهى معروفة بميولها الإسلامية.. ويقول احد اعضائها وهو مسعد الفقى.. انه تسلم نسخة من استقالة الخويلى.. والخويلى

معنا قلبا وقالبا.. وقد ارسل الخويلى نسخة من استقالته إلى شقيق الملك فهد فى القاهرة الامير طلال بن عبدالعزيز وارسل نسخة اخرى إلى مفتى السعودية الشيخ بن باز.. وإلى الامير عبدالله ولى العهد.

وتعلق الجارديان البريطانية على استقالة الخويلى قائلة: يبدو أن المملكة العربية السعودية لم تعد قادرة على أن تشترى الراحة لنفسها.. فاقتصادها يترنح من بعد حرب الخليج تحت قروض قيمتها ١٣٠ مليار دولار.. وفوائد هذا الدين تلتهم جزءاً كبيرا من دخل السعودية السنوى من النفط (١٧ مليار دولار).. ويبدو ان بريطانيا تنوى سحب السجادة من تحت المملكة بعد أن انتشرت اخبار عن نية بنك «انجلترا» بسحب ضمانات القروض من السعودية.. حتى صندوق النقد الدولى بدأ يتكلم بصوت عالى عن ديون السعودية.

وأتهم الخويلى باللعب مع المخابرات المركزية.. فقد قال دبلوماسى عربى لصحيفة ميدل ايست تايمز: «الناس لا تترك سفاراتها فى امريكا دون الحصول على ضمانات من المخابرات المركزية الأمريكية»(٨)

وتحدث المصدر نفسه عن احتمال أن إدارة الرئيس بيل كلينتون ربما تراجع نفسها فى حكام الدولة الوحيدة فى العالم الذين يحكمون بالاسرة.. ربما كانوا يبحثون عن بديل.. خاصة إذا تبين لهم ان ميزانية الدولة يمكن ان تتوازن بصورة افضل بدون نفقات العائلة المالكة وهى نفقات باهظة.

لكن محمد المسيرى ينفى أن تكون المخابرات المركزية وراء هروب الدبلوماسيين السعوديين ويقول إن حوالى ١٠٠ الف من المجاهدين الافغان أو المسلمين الذين حاربوا فى افغانستان يعيشون طلقاء فى السعودية.. وهؤلاء إن لم يتدخل الملك فهد فى القيام باصلاحات سياسية واجتماعية ودينية سوف يتحركون لاسقاطه.. وهم ينتظرون فتوى بذلك.

ويقول الخويلى: ان الامر لا يحتاج لاكثر من عود ثقاب لتفجير انابيب ومصافى البترول ومحطات الكهرباء وشبكات الاتصال.

والخويلى متزوج وعنده ٣ ابناء وقد برر ما فعل بانه كان يخدم اسرة «فاسدة وظالمة».. وقد اضاف انه يملك مئات المستندات والوثائق التى تدعم ذلك.. وقد جمعها على مدى عامين وهى اوراق رسمية اتت من رئاسة الوزراء ووزارة الدفاع ووزارة الخارجية والمخابرات السعودية.

ويطالب الخويلى بان تكف الاسرة السعودية المالكة عن تقسيم الناس على اسس طائفية وبتقسيم عادل للثروة والسلطة.. وبحرية سياسية، وبالافراج عن السجناء السياسيين.. وبالكف عن اضطهاد النساء، والمعروف ان بعض النساء فى اسرته مثل رقيه العنزيان ومنيرة كنعان قبض عليهما مع النساء اللاتى قدن سياراتهم فى الرياض احتجاجاً على منع المرأة من قيادة السيارات، وقد دفع ازواجهن الثمن بالطرد من اعمالهم.

وتقدر واشنطن بوست عدد الوثائق التى احتجزها الخويلى.. حوالى ١٤ الف وثيقة تتضمن تاريخا طويلاً فى الارهاب والفساد واستعمال الدين فى القلاقل السياسية فى كثير من الدول الإسلامية، وقد حاولت السلطات السعودية اعادة الخويلى إلى حظيرتها بالتهديد وبالمال.. ولكنه نجح فى الحصول على حق اللجوء السياسى موجها للنظام السعودى اشد صفعة تلقاها منذ حرب الخليج الثانية!

وفى البرقية رقم ٣٤١٩٣٣ لوكالة رويتر قال محامى الخويلى واسمه مايكل فيلدس: ان موكله تلقى تحذيرا من هيئة امن واستخبارات امريكية بان المخابرات السعودية تخطط لخطفه واعادته إلى الرياض.. وقال المحامى ان اخطر وثيقة كشفها الخويلى حتى الآن كانت حول اجتماع سرى عقد فى الصحراء بين عسكريين سعوديين وعراقيين فى عام ١٩٨٩ قبل الغزو العراقى للكويت الذى ادى إلى حرب الخليج بعام واحد - تعهد فيه السعوديون بتمويل برنامج صدام حسين النووى بخمسة مليارات من الدولارات.

والمقصود أن السعوديين الذين دفعوا الكثير من اجل تحطيم قوة صدام حسين هم الذين دعموا قوته النوويه والعسكرية.. وفى النهاية اصبحوا من الدول المدينة.. حيث يقدر صندوق النقد الدولى العجز فى ميزانية الاعوام ١٩٩٢ - ١٩٩٦ بـ ٧٤,٢ مليار دولار.. وهو ما يعنى أن السعوديين فشلوا فى الحفاظ على الثروة وعلى القوة العربية وفشلوا فى حماية الإسلام ايضاً.

وفيما بعد.. كذلك كتب «اتيكوس» احد كتاب صحيفة «صنداى تايمز» نقلا عن مصادره فى البيت الابيض ان الرئيس الامريكى بيل كلينتون مقتنع الآن بنصائح مستشاريه المقربين بانه لابد من تغيير القيادة السياسية فى السعودية، وقد ارسل كلينتون مستشاره ميك ماكلارى برسالة شخصية إلى الملك فهد لا يستبعد ان تكون طلب الاستقالة.

وقال اتيكوس: ان غضب كلينتون على فهد يرجع إلى تخبط سياسات فهد المالية مما اوقع السعودية فى الديون حتى انها متأخرة فى سداد مستحقات شركات السلاح الامريكية

سنة كاملة.

والسبب الثانى ان فهد ورط بلاده فى الصراعات العسكرية التى شهدتها اليمن وكلف السعودية ٣ مليارات دولار دون أن تحقق اهداف الرياض والتى كانت تسعى إلى فصل الشمال عن الجنوب وتأديب الرئيس اليمنى على عبدالله صالح لوقوفه بجوار صدام حسين أثناء أزمة الكويت.

وثالثاً: هناك عجز من فهد عن مواجهة تيارات المعارضة فى بلاده.. خاصة التيارات الإسلامية المتشددة.

ويستطرد اتيكوس: ان عزل فهد سيرضى شركات النفط الكبرى كما حدث عند عزل شقيقه الملك سعود.

ومن ناحية اخرى اضاف ان كثيرا من التقارير التى خرجت من عواصم عربية وغربية مختلفة أكدت أن حالة الملك فهد الصحية اصبحت مثار قلق لحلفاء السعودية الكبار.. ان صحته العقلية صارت فى الأونة الأخيرة مصدر قلق اضافى إذا أن ذهنه لم يعد بالصفاء والتركيز اللازمين لرئيس دولة لها هذه الاهمية الاقليمية والدولية.

ومن الواضح ان السعودية لم تعد تتمتع بالهيبة والاحترام الدوليين اللذين تمتعت بهما زمنا طويلاً.

واصبح لمعارضى النظام صوت مسموع.. خاصة فى لندن وواشنطن.. وقد وجد النظام السعودى نفسه فى ازمة لم يجد حلا لها سوى المزيد من الاعتقالات فى الداخل.. اما فى الخارج فقد استسلم النظام للوبى اليهودى فى الولايات المتحدة واعلن سعود الفيصل فى نيويورك امام الأمم المتحدة فى خريف ١٩٩٤ - رفع المقاطعة - من الدرجتين الثانية والثالثة عن الشركات المتعاملة مع إسرائيل.. وضاعف هذا القرار من القوى المعارضة فى الداخل التى لا تزال تعتبر اليهود اعداء الله. (٩)

ان حرب الخليج التى رُفعت فيها المصاحف إلى جانب المدافع هزت المنتصر كما هزت المهزوم وتأكد ان الجميع وهو يستعمل ورقة الإسلام كان يغش فى اللعب بما فى ذلك صدام حسين بالقطع.. والطبع.

لقد تحول صدام حسين من سفاح إلى مدافع أول عن الإسلام.

قال للرئيس حسنى مبارك: لو جمعنا شمل قوات العراق ومصر وسوريا والاردن واستولينا على السعودية وكل دول الخليج فسوف يكون نصيب مصر ٤٠ مليار دولار

ورفض الرئيس حسنى مبارك.

وقال صدام حسين للملك فهد: انا آخذ الكويت وأنت تأخذ قطر.. ما رأيك؟

ورد الملك فهد : لا .. لا..

فقال للملك حسين: سوف اعطيك الحجاز وتكون وحدك المسئول عن الاماكن المقدسة: القدس ومكة والمدينة.. وانا عندى النجف وكربلاء.. ما رأيك؟. (١٠)

وبرقت الفكرة فى رأس الملك حسين الذى سارع بتغيير لقبه إلى الشريف حسين.. وادرك صدام حسين أن بعض الحكام يبلعون الطعم والطمع لو غلفته لهم بالتقوى والورع.. لكنه لم يذكر انه واحد من هؤلاء.

فبينما اطلق الملك حسين لحيته تحدث صدام حسين عن الجهاد فى سبيل الله.. وبينما فتح الملك حسين الباب أمام الاخوان المسلمين فى الاردن ليشاركوه فى الحكم كتب صدام حسين عبارة «الله اكبر» على علم بلاده.

وقد تصور صدام حسين ان دعوته للجهاد وتطهير الاراضى المقدسة من القوات الاجنبية المشركة ستتحول إلى مشاعل نار يحملها المسلمون فى اربعة انحاء العالم ليحرقوا بها اعداءه أو أعداء الإسلام.

وعندما بدأت الحرب كان لا يزال يتصور أن ورقة «الجهاد» التى فى يده تصلح للفوز.. ومن ثم واصل اللعب بها.. فصّور الحرب على انها حرب مقدسة يشنها الكفار على المؤمنين ويديرها حزب الشيطان ضد حزب الله.

بدأت الحرب بقصف العراق بالطائرات فى الساعة الثانية من صباح يوم الخميس ١٧ يناير ١٩٩١ ولكن اول تعليق خرج من راديو بغداد كان بعد ٤ ساعات و٩ دقائق وكانت اشهر عباراته «أننا سوف نعلم امريكا وحلفاءها درسا قاسيا».. وبعد ١٥ دقيقة تحدث صدام حسين عن قيام «ام المعارك» ووصف الرئيس جورج بوش بالشيطان الاعظم وتحدث عن جنوده «رجال الإيمان والجهاد» الذين يواجهون قوات التحالف «الكافرة». واعتبر الحرب «مواجهة بين الخير والشر» وقال ان عدوى الحرب المقدسة ستنتقل إلى كل مكان فى الارض.. وقال عن الولايات المتحدة.. انها «بيت الظالم».

كان بيانه اقرب لبيانات المشايخ فى مثل هذه الظروف.. وقد توالت البيانات العراقية المشابهة.. وكأنها صادرة عن رجال دين لا رجال سياسة.. عن فقهاء لا جنرالات يعرفون

وفى اليوم الخامس للحرب قال بيان لمجلس قيادة الثورة العراقى: ان الحركة التاريخية للأمة العربية والإسلامية من سلاح العراق.. اما سلاح الجانب الاخر فهو الكمبيوتر والاجهزة الالكترونية.. ان المعركة بين الجانبين احتدمت وان النصر سيتحقق للمؤمنين لأن الإيمان هو سلاح العراق اما سلاح العدو فهو الالحاد.

وفى اليوم السادس قال بيان صادر عن اجتماع مشترك بين مجلس قيادة الثورة وقيادة حزب البعث رأسه صدام حسين: «ان النصر سيتحقق للمؤمنين بالتأكيد.. ان قوة الرئيس بوش الكافرة لن تنال من تصميم رجال الإيمان والجهاد فى العراق العظيم ولو ضوعفت مرات».

وفى اليوم السابع قال بيان لقيادة حزب البعث «ان العراق ليس هو المستهدف وإنما الحضارة العربية والتقدم والنهضة والصحوة الوطنية والقومية والإسلامية.. لقد حانت ساعة الفعل الثورى والشعبى والتاريخى ولم يعد هناك مجال للتأخير.. فالجهاد ضد العدوان هو واجب مقدس».

وبعد حوالى اسبوعين قال صدام حسين لشبكة التليفزيون الاخبارية الامريكية «سى. ان. ان.».. إن المعركة الآن بين الإيمان والكفر.. بين العدل والانصاف والاجحاف والتسلط...!

س : ما شعورك بعد أن زرت الجبهة مؤخراً؟

ج: الرجال المؤمنون معى يصمدون واظن أن بوش يعلم ذلك !

س: كيف تمكن جنودك من البقاء أحياء خلال القصف الجوى؟

ج: المشكلة الآن ليست فى القصف الجوى.. ليست من يملك سلاحاً.. القضية الآن من الذى سينهزم.. والشيطان مع من؟؟.. والله مع من؟.

س: هل لديك شك فى الخسارة؟

ج: ولا واحد فى المليون.. واريد أن اوضح بأننا عندما أسميناها ام المعارك لا نقصد صفحات عسكرية لانها لم تكن قد وقعت آنذاك وانما سُميت هكذا لأن الحق واضح عن الباطل بما فيه الكفاية واننا مؤمنون بان الله معنا.. فهل هناك معركة اخرى اكبر من المعركة التى يكون قائدها سبحانه وتعالى فى جهة والشيطان فى جهة اخرى؟(١١)

ولو سلمنا بهذا المنطق الى أعلنه صدام حسين لقلنا انه تصور أن الله معه وان الشيطان مع جورج بوش.. لكن.. الواقع الذى انتهى بهزيمته يقول لنا العكس.. فلو كان النصر

٣ الرسول يزور الإمبراطور فى المنام !

■ فهم نابليون «اللعبة» مبكرا.. لعبة الإسلام والسياسة.. فهم أن الطريق إلى قلوب المصريين وعقولهم يبدأ بالمسجد وينتهى بالضريح.. فأعلن انه من اولياء الله.. واصفياء الله.. والممثل الشخصى والناطق باسم الله.

لكن.. بينه وبين نفسه كان يؤمن بأنه «دجال».. وفى منفاه بسانت هيلانه اعترف بأن مافعله فى مصر هو «دجل من أعلى طراز».. ثم استطرد: «ان على الإنسان ان يصطنع الدجل فى هذه الدنيا لانه السبيل الوحيد للنجاح».

كانت الاحلام تملأ رأسه.. كان يسعى إلى الخلود.. مثل الإسكندر الأكبر.. الجنرال الذى تحول فى مصر إلى اله.. وقد نُقل عن نابليون.. انه فى مصر «وجدت نفسى وتحررت من قيود حضارة مزعجة.. ورأيتنى أؤسس دينا وأزحف على آسيا وانا امتطى فيلا وعلى رأسى عمامة وفى «القرآن الجديد» الذى كنت سأؤلفه ليلائم حاجاتى.. ورسالتى السامية». (١)

تصور نفسه نبيا.. أو أقنع نفسه بذلك.. أو لم يتصور أن فى استطاعته ان يسيطر على مصر ثم على الشرق دون ان يرتدى عباءة الله.

لأن الانبياء ينشرون دعوتهم بالقوة.. فقد ضمت حملته إلى مصر ١٣ بارجة و١٠٢٦ مدفعاً و٤٢٥ فرقاطة ومركبا خفيفاً و١٣٠ ناقلة من شتى الانواع و١٧الف جندى ومثلهم من الملاحين والجنود البحريين واكثر من الف قطعة من مدفعية الميدان و١٠٠ الف قطعة من الذخيرة و٥٦٧ عربة و٧٠٠ حصان.. وكان هذا الاسطول يشغل فى عرض البحر مساحة تتراوح بين ميلين واربعة اميال مربعة.

وخلال الرحلة البحرية انفق نابليون معظم وقته فى الفراش.. وراح يقرأ الكتب التى حملها معه.. وكان اكثرها عن مصر والاراضى المقدسة.. لاسيما الأنجيل والقرآن اللذين صنفهما تحت باب الكتب السياسية.

وكان من عادته بعد العشاء أن يدعو ضباط اركان حربه ومن تيسر من العلماء ليناقشهم فى اهتماماته.. السياسة.. الاقتصاد.. الكيمياء.. الآثار.. الدين وتفسير الأحلام.. وكان الدين من الموضوعات المحببة إليه.. وقد قرر وكرر اكثر من مرة.. أن للدين منفعة سياسية واضحة جلية.. وكان كلما دنا من شاطئ الإسكندرية استغرق فى دراسة الإسلام.. وفكر فى كيفية استغلاله واستعماله.

وفى ٢٨ يونيو ١٧٩٨ بدت الاسكندرية على مرمى البصر وفى ذلك اليوم فاجأ نابليون جنوده بمنشور.. كان قد صاغه بنفسه قبل ستة أيام وقد اثبت فيه قدرته على مزج الدين بالسياسة.. والإيمان بالرصاص.. والفكرة بالقنبلة.

أيها الجنود..

انكم موشكون على فتح له آثار بعيدة المدى فى حضارة العالم وتجارته وستطعنون انجلترا طعنة تؤذيها لا محالة فى اضعف مواطنها.. انتظاراً لليوم الذى تسددون فيه إليها الطعنة القاتلة!

سيقتضينا الامر بعض الزحف المضنى، وسنخوض بعض المعارك وسننتصر فى جميع مغامراتنا لأن الحظ معنا.

ولن تنقضى على نزولنا البر ايام حتى نقضى على بكوات المماليك الذين لا يرعون غير التجارة الانجليزية والذين يظلمون تجارتنا بمعاكساتهم والذين يستبدون بأهل وادى النيل الاشقياء.

ان القوم الذين سنعيش معهم مسلمون وعقيدتهم الاساسية هى «لا اله الا الله محمد رسول الله».

فلا تعارضوهم واسلكوا معهم كما سلكتم فى الماضى مع اليهود والايطاليين واحترموا شيوخهم وائمته كما احترمتم شيوخ اليهود واساقفة المسيحيين.

واظهروا من التسامح نحو الشعائر التى قضى بها القرآن ونحو المساجد مثلما اظهرتم نحو الاديرة ومجامع اليهود ونحو ديانة موسى وديانة المسيح.

لقد جرت الفرق الحربية الرومانية على أن تحمى جميع الاديان وستجدون هنا عادات تختلف تمام الاختلاف عن العادات الاوروبية. فلابد ان تروضوا انفسكم عليها.

إن اهل البلاد التى سندخلها يعاملون نساءهم معاملة مختلفة.. ولكن الرجل الذى يهتك عرض امرأة يعتبر فى جميع البلاد وحشا.

اما السلب والنهب فلا يثرى منه الا الأقلون وهو يجللنا بالعار ويقضى على مواردنا ويثير علينا عداء الشعب الذى ننشد صداقته.

أن أول مدينة سنشهدها بناها الاسكندر وسنجد فى كل خطوة آثار جديرة بان ينسج الفرنسيون على منوالها.

قائد الجيوش

بونابرت

فى ذلك الوقت كانت السلطة المركزية فى الدولة العثمانية قد بلغت من الضعف والوهن مبلغاً اصبحت معه حكومه مصر اضحوكة. ومهزلة يقوم بأدوارها بكوات المماليك والولاة الترك.. اما بقية الشعب فكانوا يراقبون فى سخرية يشوبها عدم المبالاة بما يجرى.

كان عدد السكان ٢,٥ مليون نسمه يعيشون فى ٣٦٠٠ قرية، وتجذب القاهرة ربع مليون منهم ينفقون معظم أوقاتهم – فى العاصمة – فى الجلوس على المقاهى وكان فى القاهرة مقهى لكل ١٢٥ رجلا.

وقد سجل الفرنسيون فى كتابهم الشهير «وصف مصر».. أن الخمول أبرز صفات المصريين حتى أن الفرنسيين ظنوا انهم «بلهاء أو معتوهون» فهم يتحدثون ويتحركون ويدخنون «بعدم اكتراث مذهل».. لا شيء يثير دهشتهم ولا حكم بالموت.. لكن الفرنسيين يتداركون «ان تحت هذا القناع من السلبية البادية على ملامح المصريين يكمن خيال ملتهب.. وأحاسيس اكثر حدة تعطى لاورواحهم دفعات من النشاط تجعلهم قادرين احيانا على الاتيان بافعال بالغة الجرأة.. ان ملكة الانتباه والقدرة على التركيز تذهب إلى أبعد مدى عند هؤلاء الناس الذين تخالهم غارقين فى بلادة مطلقة».

ويسجل الفرنسيون أن المصريين يستمتعون «فى الحمام بملذات عجيبة» ويقضى المرء منهم «وقتا طويلاً فى تهذيب لحيته».. وهم يقدسون «عديدا من الاولياء الموتى وهم لا يعظمونهم الا لكى ينالوا منهم الصحة والخصوبة والقدرة على ابطال مفعول الحسد والسحر».. ويميل المصريون إلى «الشوشرة» لا إلى المشاجرة.. فهم يتفادون الخطر بقدر المستطاع. وهم قادرون على التكيف مهما كانت الظروف قاسية.

ثم.. والاهم من ذلك كله.. أن الدين يدخل فى نسيجهم وخلاياهم ومشاعرهم ومعاملاتهم ويحكم معظم تصرفاتهم المعلنة. (٢)

وهذا ما فهمه واستوعبه نابليون قبل ان ترسو سفنه بالقرب من شاطىء «العجمى» القريب من الإسكندرية.

لقد سبقت منشوراته مدافعه وسبقت اجتهاداته الإسلامية اخباره العسكرية.

وفى اول منشور للمصريين لم يتردد فى أن يشهر إسلامه وأن يقرأ الشهادة ويعلن إيمانه ويسجل على نفسه عدم الشرك بالله.

مرسوم

بسم الله الرحمن الرحيم.. لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه

من طرف الفرنساوية المبنى على اساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته، يعرف اهالى مصر جميعاً أن من زمن الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية، ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدى فحضر الآن ساعة عقوبتهم واخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة من المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الاحسن الذى لا يوجد فى كرة الارض كلها فأما رب العالمين القادر على كل شىء فانه قد حكم على انقضاء دولتهم.

يا ايها المصريون قد قيل لكم أننى مانزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم.. فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين أننى ما قدمت اليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين واننى اكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم وقولوا أيضاً لهم أن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب.. فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا ان يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شىء أحسن فيها من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة، فان كانت الارض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم.

ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية.. فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور.. بذلك يصلح حال الأمة كلها.

وسابقاً كان فى الاراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما ازال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك.

ايها المشايخ والقضاة والائمة والجرابجية واعيان البلد قولوا لامتكم ان الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون واثبات ذلك انهم نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى

البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالرية الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الاوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى واعداء اعدائه ادام الله ملكه، ومع ذلك ان المماليك امتنعوا عن طاعة السلطان غير ممتثلين لامره.. فما اطاعوا اصلا الا لطمع انفسهم.

طوبى ثم طوبى لاهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم، طوبى أيضاً للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب.. لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا.. فلا يجدون بعد ذلك طريقا إلى الخلاص ولا يبقى منهم اثر.

– المادة الأولى: جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات من المواضع التى يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء.. كيما يعرف المشار إليه انهم اطاعوا وانهم نصبوا علم الفرنساوية الذى هو ابيض وكحلى وأخضر.

– المادة الثانية: كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار.

– المادة الثالثة: كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى ايضاً تنصب صنجاق السلطان العثمانى فى جمعنا دام بقاؤه.

– المادة الرابعة: المشايخ فى كل بلد يختمون حالا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع ادنى شىء منها.

– المادة الخامسة: الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة انهم يلازمون وظائفهم وعلى كل أحد من أهالى البلدان ان يبقى فى مسكنه مطمئناً وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة والمصريين بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال أدام الله اجلال السلطان العثمانى.. ادام الله اجلال العسكر الفرنساوى.. لعن الله المماليك واصلح حال الأمة المصرية.

تحريراً بمعسكر إسكندرية فى ١٣ شهر سيدور سنة ١٢١٣ من اقامة الجمهور الفرنساوى يعنى فى آخر شهر المحرم سنة هجرية. (٣)

وقد سخر علماء الحملة وضباط نابليون من المنشور الذى وضعه قائدهم الأعلى، لكنه لم يعبأ بسخريتهم واعترف هؤلاء فيما بعد ان المنشور «احدث اثراً كبيرا».

وبعد اصداره بيومين طلب الجنرال ديزيه.. وهو فى قرية على حافة الصحراء الليبية مزيدا من النسخ لأن تأثيره فى المصريين كالسحر.

وقد كان نابليون على حق.. فالمشايخ دخلوا المساجد والزوايا وراحوا يدعون ويبتهلون إلى الله بالنصر.. والناس حارت بالصياح والجلبة على حد قول الجبرتى، ولم يفكروا فى السلاح وكل ما فعلوه هو رفع الاصوات بقولهم يارب. ويالطيف، وياقوى.. ولم يسمعوا كلام العقلاء منهم الذين طلبوا منهم الكف عن النباح واعلان الجهاد وضرب الرقاب.

وعم الذعر والفساد القاهرة.. وسيطرت عليها الفوضى.. ولم تتوقف اعمال السلب والنهب فيها «كانت ليلة وصياحها فى غاية الشناعة.. جرى فيها مالم يتفق مثله فى مصر ولا سمعنا بما شابه بعضه فى تاريخ المتقدمين» كما يقول الجبرتى.

وهرب المماليك بمتاعهم.. الذهب والسجاجيد والصينى والاوانى الفضية.. وتركوا مصر فى حالة جعلت نابليون يقول عنها: «من الصعب ان يجد الإنسان بلدا اكثر غنى مثل مصر وشعباً اشد بؤساً وجهلاً مثل شعبها».

وقد حاول نابليون اعادة اكتشاف مصر بواسطة العلماء والخبراء الذى رافقوه فى حملته.. حاول أن يفتح امامها بوابات العصر.. لكن الناس التى لم تقاوم عسكريا قاومت حضارياً.. ومع ان نابليون اعلن على الملأ أنه مسلم فعلا وانه ليس مسيحيا فإن المصريين ظلوا يعاملونه هو وجنوده معاملة الكفار.. ونجح المشايخ فى الايحاء بأن نابليون جاء ليقضى على الإسلام.. وهو ما جعل نابليون يحذر كليبر منهم قائلاً فى احدى رسائله «أننا إذا كسبنا تأييد كبار شيوخ القاهرة كسبنا الرأى العام فى مصر كلها.. فليس بين زعماء الأمة كلها من هو أكثر خطرا علينا من الشيوخ.. فهم يوحون – كجميع رجال الدين – بالتعصب دون أن يكونوا هم انفسهم متعصبين».

لقد استغل الشيوخ المشاعر الدينية والخرافات الشعبية فى تخويف المصريين من شياطين الكفر الذين جاءوا بالمطبعة والصحيفة والدواء والالعاب النارية واحماض الكيمياء والنوت الموسيقية.. وقد حرموا كل ذلك.. ولم يستوعبوا ان السير مع عجلة الزمن لا يمس الدين.. واحتاجت مصر حوالى ١٥٠ سنة لتثق فى هذه الحقيقة.

وقد حاول نابليون ان يكسب ثقة المشايخ فى البداية فغداة دخوله القاهرة عين ديوانا او مجلسا محليا اختار اعضاءه من كبار المشايخ اى من أكثر عناصر المجمع نفوذا واستقرارا.. وفى أول لقاء بأعضاء المجلس حاول نابليون وضع وشاح فرنسا بألوانه الثلاثة الأبيض والأحمر والكحلى.. على كتف رئيس الديوان الشيخ عبد الله الشرقاوى.. لكنه فوجىء بوجه الشيخ يحمر غيظاً ويرمى بالوشاح على الأرض.. وتغير وجه نابليون، واحتد طبعه وتعكر مزاجه.. وتدخل المترجم فنتور لحل الأزمة وتهدئة النفوس قائلا: «يامشايخ انتم صرتم احبابا لنابليون وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته.. فان تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصارت لكم منزلة فى قوبهم».

لكن المشايخ قالوا: «لكن قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا من المسلمين».

واذعن نابليون لمشيئة المشايخ فى امر الوشاح ولكنه اصر على أن يضعوا على صدورهم على الأقل الشارة المثلثة الألوان (الجوكار) فتعودوا ان يشبكوا الشارة قبل أن يدخلوا حجرة نابليون ويخلعوها حال مغادرتها.

على أن أشد الأزمات بين نابليون والمشايخ كان سببها الشيخ محمد كريم الذى اختاره نابليون حاكما للإسكندرية، لكنه لم يتعاون مع كليبر فاستبدله بالشيخ المسيرى وارسله مخفورا إلى حامية نابليون الذى حكم بأعدامه.. ثم خيره بافتداء نفسه بمبلغ ١٢٠ ألف فرنك ذهبى حسب التقاليد المعروفة فى البلاد.. لكن محمد كريم ابى ان يدفع الفدية فقتل رميا بالرصاص فى القلعة وحُمل رأسه ليعرض على الملأ فى الشوارع، وكان لذلك اثر سيىء فى نفوس المصريين لأن محمد كريم من سلالة النبى.

وقبل أن يأتى نابليون كان الاقباط يجمعون الضرائب للمماليك وكانوا يقومون بتقسيم التركات العقارية.. ومع أن حريتهم فى العبادة كانت مطلقة فان وضعهم الاجتماعى لم يكن يحظى بالمساواة.. مثلهم مثل غير المسلمين عموماً.. وهو أمر لا يحمل مفاجأة فى ولاية تابعة للأمبراطورية العثمانية.. وقد انكش الأقباط وعزفوا عن العمل العام واكتفوا بالعمل الإدارى.. وكان خضوعهم التام للبطريرك الذى كان يملك.. فى الكنيسة المصرية.. سلطة بلا حدود!.

ولم يجد نابليون افضل من الاقباط للقيام بالمهام الحكومية البغيضة التى كره الفرنسيون والمسلمون والاضطلاع بها مثل جمع الضرائب والبوليس.. ويبدو أنهم احسوا بمزيد من القوة لوجود سلطة غير مسلمة فى البلاد.. فعوضوا ما فاتهم.. و«نزلوا فى البلاد مثل الحكام يحبسون ويضربون ويشددون فى الطلب».

ثم مالبثوا – هم واليهود – أن احسوا بالتميز فراحوا يتصرفون مثل اعيان المسلمين.. ركبوا الخيل.. حملوا السلاح.. ولم يعودوا يتوارون عن الانظار.. وقلدت نساؤهم «نساء الفرنساوية» واشتكى المسلمون لنابليون الذى يدعى الإسلام ووضعوه فى اختبار حرج لمن ينحاز؟.. لكن نابليون لم يتردد فى اصدار اوامره للمسيحيين واليهود بأن يعودوا إلى ارتداء عمائمهم القاتمة واحزمتهم غير المزركشة وأحذيتهم السوداء.. وكتب لكليبر يقول: «مهما فعلت بالمسيحيين فسيظلون دائما اصدقاءنا.. فيجب أن تمنعهم من أن يشتطوا فى وقاحتهم».

ويعتقد بعض المؤرخين أن سياسة نابليون الدينية لم تقم على المصلحة فقط، وانما قامت على قناعة مستقرة فى أعماقه.. «لقد كان مخلصا فى احترامه للإسلام لأنه ينبع

من موقفه العملى البحث من الدين».. وقد قال امام مجلس الدولة فى فرنسا فى عام ١٨٠٦: «اننى ارى فى الدين سر النظام الاجتماعى».. وكان الإسلام فى عينيه انسب من المسيحية لحاجات النظام الاجتماعى.. «لانه لا يشجع الصراع بين العالمين المادى والروحى».. اى بين الدنيا والاخرة.. وقد سبق ان قال للشيخ المسيرى انه ينوى «اقامة حكومة موحدة تقوم على مبادىء القرآن التى هى وحدها المبادىء الحقه القادره على اسعاد الناس».

لكن.. كما اشتط نابليون فى مجاملته للإسلام اشتط ايضاً فى انتهاك المقدسات.. لقد كان يتلون بسرعة بين الضابط والفقيه بين الحلم والواقع.. وقد وجد نفسه مخنوقا بحال ازمة مالية خانقة مزمنة.. ففرض المزيد من الضرائب على الاملاك والعقارات والحانات والحمامات والمحلات ومعاصر الزيوت.. ولما اشيع ذلك فى الناس «كثر لغطهم واستعظموا ذلك».. على حد قول الجبرتى الذى يضيف.. «وتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم واصبحوا متحزبين وعلى الجهاد عازمين وابرزوا ما كانوا اخفوه من السلاح وآلات الحرب».

وهكذا اشتعلت الثورة.. وهى ثورة شعبية قام بها - والوصف للجبرتى - «حشرات الحسينية وأوباش الناس».. أو قام بها البؤساء الذين يتوقف بقاؤهم على قيد الحياة على عملهم اليومى الدءوب على حد قول شلبرول دى فولفيك احد علماء الحملة.

ثورة جياع.. لم يعد الصبر قادرا عليهم.. فخرجوا عن الحد. من تحت الجلد.. «وامتدت ايديهم إلى النهب والخطف والسلب».. اخذوا الطعام والشراب والثياب والنساء.. تمنوا النعيم ساعات ولو كان الثمن الموت.. فالموت بعد التخمة افضل من الحياة مع الحسرة. (٤)

ونزل الفرنسيون بكل قوتهم لسحق الثورة.. وعندما اطلقوا مدافعهم فزع المشايخ وعلماء الأزهر.. ونادوا: «ياسلام من هذه الآلام.. ياخفى الالطاف نجنا مما نخاف».

وذهبوا إلى نابليون وعندما قابلهم «عاتبهم فى التأخير واتهمهم بالتقصير فاعتذروا إليه فقبل عذرهم وامر برفع الرمى عنهم».. وكان هذا الاعتذار هو أول خيانة للثورة.. اما افراد الشعب فانهم لم يزالوا مستمرين وعلى الرمى والقتال ملازمين ولكن خانهم المقصود وفرغ منهم البارود والافرنج اثخنوهم بالرمى المتتابع بالقنابر والمدافع».. والوصف للجبرتى.

لقد استشهدوا فى خنادقهم.. قتلوا بخيانة المشايخ قبل ان ترميهم المدافع.. وعلى جثثهم دخل الجنود الفرنسيون الأزهر الشريف «وهم راكبون الخيول».. وربطوها بقبلته.. وكسروا القناديل.. وهشموا خزائن الطلبة.. ونهبوا متاعهم.. ودشتوا الكتب والمصاحف.. «وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه والقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه عروه ومن

ثيابه اخرجوه.. والوصف للجبرتى ايضاً.

وترجمة هذا الوصف إلى لغة اسهل تعنى أن نابليون.. المسلم قد سمح بدخول الازهر بالخيول.. وحول منبره إلى اسطبل.. وحول ساحته إلى كباريه.. وإلى حمام شعبى لقضاء الحاجة.. ونسى الفرنسيون رسالتهم الحضارية السامية.. فمزقوا المصاحف وكتب التفاسير والشريعة.. وتحولوا من علماء إلى لصوص.. ومن سادة مهذبين إلى قطاع طرق.

ان ما جرى فى الأزهر جعل المصريين يصفون نابليون بالكفر.. والكفر كان اكبر الكبائر.. يقتل من يقع فى شراكه.. وقد أتهم نابليون بالكفر.. لكن حد القتل كان من نصيب خليفته كليبر.

على اننا لا نقدر على أنكار محاولات نابليون الجادة فى التوفيق بين الموروث والمستقبل فى بلد يدمن الماضى مثل مصر.. إن كريستوفر هيرولد يمنحنا دليلاً حيا - اشبه بلقطة سينمائية بارعة.. فى كتابه الممتع «بونابرت فى مصر».

انه يبدأ اللقطة باحتفال للمولد النبوى.. حيث تحولت شوارع القاهرة إلى سوق ليلية بينما سار الألوف فى مواكب يحملون المشاعل والشموع الكبيرة وينشدون التواشيخ الدينية.. ويتصايحون ويزعقون ويحدثون ضجيجاً.. وفى الوقت نفسه ترى الدببه والقردة والدراويش يمشون عراة تقريباً.. ثم حلقات الذكر.. التى كان اشهرها حلقة نقيب الاشراف الشيخ البكرى الذى استضاف نابليون فى تلك الليلة للصلاة والذكر والتهام «الفتة».

كان نابليون يحضر الصلاة فى وقار وهدوء بينما كان المشايخ بقفاطينهم وعماماتهم يهتزون بانتظام وهم يسمعون آيات القرآن تتلى.. «وما من شك فى أن عقله كان شارداً فى اشياء غير التى تجرى امامه».. كان قبل ذهابه إلى بيت الشيخ البكرى قد حضر أول اجتماع عقده المجمع العلمى فى مصر.. واقترح على اعضائه بحث امور متنوعة منها.. كيفية تحسين افران الخبز.. صنع البيرة بدون حشيشة الدينار التى لا تنمو فى مصر.. طرق مأمونة لتنقية مياه النيل.. هل فى مصر موارد طبيعية تعين على صناعة البارود.. هل يمكن إدخال تحسينات على القوانين المدنية والجنائية يتقبلها الاهالى؟!

والمسافة شاسعة بين جدول اعمال المجمع العلمى وصلوات المشايخ فى بيت البكرى.. ولكن كريستوفر هيرولد يرى ان هذه المسافة لاود لها عند نابليون.. فهو مثل الحرباء.. يستطيع فى لحظة ان ينقلب من محارب إلى مشرع.. ومن عالم إلى لاهوتى.. ففى اليوم التالى لمولد النبى أصدر تعليماته فى هدوء بتحويل مسجد الصالحية إلى قلعة عسكرية.. ولعله كان مشغولاً بهذا القرار فى بيت البكرى.. بينما كان الشيوخ يتلون أورادهم على

مسابحهم.. لكن من المؤكد انه لم يفقد سيماء التقى والورع وهو يفكر فى القرار!

وفى بيت الشيخ البكرى ايضاً اخترق نابليون التقاليد المصرية الصارمة ونجح فى استمالة زينب ابنه الشيخ وكان عمرها ١٦ سنة.. وتوصف بانها كانت النسخة المصرية من جوزفين.. عشقية نابليون ثم زوجته.. ان زينب كان «جسدا مثل عود النعناع الاخضر.. وحياء فى لون القمح يشتعل فى الظلام من شدة الرغبة.. وإيمانا تاريخيا بأن الرجل هو الفرعون المقدس الذى تمنحه المرأة الطاعة العمياء حتى فى المعصية.. وقد اغمض الشيخ البكرى عينيه وسد اذنيه وراح – وهو يحتسى البرندى الفرنسى كل ليلة – يحلم بأن يصبح «حمى» نابليون.. السلطان الأكبر.. كما انه كان مشغولا بمعركة شرسة مع اغا الانكشارية على غلام جميل من المماليك اطلقوا عليه هيلانة».

وعندما اضطر الفرنسيون للجلاء عن مصر فى سنة ١٨٠١ اراد غلاة المؤمنين معاقبة النساء اللاتى «عاشرن الكفار».. وكانت زينب البكرى احدى ضحاياهم وقد عرفت بأيام عزها بفتاة القائد المصرية.. ولابد ان صلتها بنابليون كانت قصيرة.. وكذلك حياتها.. ويقول الجبرتى: وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينة طلبت ابنة الشيخ البكرى، وكانت ممن تبرج مع الفرنسيين بمعينين من طرف الوزير.. فحضروا إلى دار امها بالجودرية بعد المغرب واحضروا والدها فسألوها عما كانت تفعله.. فقالت: انى تبت عن ذلك فقالوا لوالدها ما تقول انت؟ فقال: اقول انى برىء منها.. فكسروا رقبتها». (٥)

وكما استخدم نابليون الإسلام فى السيطرة.. فإن هناك من استخدم الإسلام فى المقاومة وكانت ضربة البداية.. اعلان السلطان فى اسطنبول الحرب على نابليون وقرأ المشايخ فرمان السلطان فى كل جامع من جوامع مصر.. واعتبره المصريون امرا دينيا.. وفتوى عليا بمقاطعة الفرنسيين وقتالهم.. ولم ينجح من هذا المصير الفرنسيون الذين نطقوا الشهادتين وتزوجوا من فتيات مسلمات وطلبوا الاستقرار فى مصر.

لقد تحطمت سياسته الدينية فى مصر على نفس الصخرة .. الإسلام.. وقد كتب فى منفاه بسانت هيلانة يقول: ان الافكار الدينية كانت علىٰ الدوام مسيطرة على الشعب المصرى فى شتى العصور.. فلما ظهر الإسكندر الأكبر على حدود بلادهم جاءوا ليحيوا هذا الرجل العظيم بوصفه محررهم، ولما عبر الصحراء فى زحف لم يستغرق غير اسبوعين من الإسكندرية إلى معبد امون، ولما جعل الكاهنة تستقبله بوصفه ابن جوبيتر كان يفعل هذا وهو على وعى تام بعقلية هؤلاء الناس.. وقد حقق بعمله هذا من حيث تثبيت دعائم فتحه للبلاد.. اكثر مما كان يحققه لو بنى عشرين حصنا وعزز جيشه بمائه الف من المقاتلين المقدونيين».

ان الاقتداء بالإسكندر حلما داعب نابليون منذ نعومة أظفاره.. ووجه الشبه بين الحالين واضح.. فعليه ان يحل الأزهر محل معبد آمون.. فى لعبة استغفال المصريين دينياً.

وقد روى نابليون – فى تاريخه للحملة الفرنسية على مصر – كثيرا عن رعايته للأزهر فى «لذة واغتباط».. ويذكر انه قد استغل المشايخ فى تهدئه المصريين وتخفيف العداء للفرنسيين.. وانهم ادوا بذلك خدمات ايجابيه للجيوش الفرنسية الغازية وكان المقابل بسيطا.. بغال وعطايا ولقاء يومى يشربون فيه القهوة والشربات مع نابليون الذى كان يناقشهم كثيرا فى القرآن، ويطلب منهم تفسير بعض آياته.

ويقول نابليون: انه حاول فى احاديثه مع العلماء ان يقنعهم بأن الرسول خصه برعايته ولا فكيف اتيحت له هزيمة المماليك الشجعان؟.. وكان يردد دائماً: ان افعاله تنبأ بها القرآن.. ومن جانبهم اعرب كبار الائمة عن محبتهم لنابليون.

«فهو فى رأيهم مقدر من عند الله».. ولكن هذه المحبة لم تكن بالاجماع.. فكثير من الأئمة فى المساجد كانوا يهاجمون نابليون وجنوده فى خطبة الجمعة.. ولم يستطع المشايخ المؤيدون ان يفعلوا شيئاً للمشايخ المعارضين.. كما انهم لم يفعلوا شيئاً حاسماً يرضى نابليون عندما طلب منهم ان يضعوا حدا لهذه الفتن وان يصدر الأزهر فتوى تأمر الناس بأن يحلفوا يمين الطاعة والولاء له.

ويقول نابليون فى مذكراته: ان المشايخ اصفرت وجوههم لهذا الطلب، وغلب عليهم الوجوم والارتباك.. ثم استجمع الشيخ الشرقاوى كبير علماء الأزهر الكلمة.. وقال: «انك تطلب رعاية الرسول الذى يحبك وتريد العرب المسلمين أن ينضموا تحت رايتك وترغب فى استرداد امجاد العرب وانت لست مشركا ولا وثنياً.. فاعتنق الإسلام اذن، لأنك لو فعلت لبادر إلى الانضواء تحت لوائك مائة الف عربى من بلاد العرب ومن مكة والمدينة ولاستطعت وأنت قائدهم ومنظمهم أن تفتح بهم الشرق وتسترد وطن الرسول بكل امجاده».

وبهت نابليون.. واحس بأنه وقع فى الحفرة التى حفرها لغيره.. انه يقول انه يحكم بأمر الله لا بأمر نفسه.. والمطلوب منه أن يوقع على أقواله.

والحقيقة ان نابليون عمل حساب هذا المأزق من قبل.. فقد اشاع بعد شهر من استقراره فى مصر ان النبى محمد ظهر له فى المنام.. وقال له: «اجهر بإيمانك بأركان دينى لأنه دين الله.. ان العرب فى انتظار هذه العلامة.. وسأخضع اسيا كلها لسلطانك».

واستطرد نابليون: انه فى رده على الرسول الكريم.. التمس مهلة سنة يعد فيها جيشه فمنحها له الرسول.. وانه تعهد بأن يبنى مسجداً عظيماً وانه سيقنع جيوشه

باعتناق الإسلام، وان اثنين من كبار الشيوخ.. هما الشيخ السادات والشيخ البكرى يعتبرانه مسلماً فعلاً.

وفى مذكراته يقول نابليون أيضاً: ان هناك عقبات تحول دون اعتناقه – هو وجنوده – الإسلام.. منها الختان وشرب الخمر .. فرجاله الذين ألفوا شرب الخمر طوال حياتهم لن يرتضوا الزهد فيها.. وهم كذلك لا يرون ضرورة للختان.. وكان رد الفقهاء الذين اطلعهم على هذه الحجج أكثر مرونة وذكاء مما كان متوقعاً.. فقد افتوا بأن الختان «نافلة» وليس ضرورى.. اما الخمر فقد يشربها الإنسان وهو مسلم.. «وأن يكن فى حالة من الاثم لا تجعله اهلا للاستمتاع بمباهج الجنة».

ووجد نابليون فى فتواهم ثغرة فنفذ منها قائلاً: «اننى مقتنع بالأمر الأول.. لكنكم لابد تقصدون المزاح فى الأمر الثانى.. فلم يعتنق إنسان ديناً يحكم عليه بالهلاك فى الجحيم لانه يواصل ممارسة عادة لا ينوى الاقلاع عنها؟».

وحسب ما نشره كريستوفر هيرولد فإن الفقهاء طلبوا مهلة ليختلوا إلى انفسهم وكتبهم ليعيدوا النظر فى المشكلة.. طالبين المعونة من الله لينير بصائرهم.. واخيراً اصدروا فتوى ثانية.. «مؤداها ان فى وسع الفرنسيين ان يشربوا الخمر ويدخلوا – رغم هذا – الجنة بشرط التكفير عن هذا الاثم بالتصدق بخمس دخلهم بدلا من العشر المألوف».

ولا يذكر نابليون – بالتحديد – متى صدرت الفتوى الثانية.. ولكن من سياق الاحداث التى يذكرها رستم رضا – مملوك نابليون – الشهير فى مذكراته المثيرة.. انها صدرت خلال غيابه فى الشام فى ربيع ١٧٩٩.

وبعد عودته للقاهرة أصدر علماء الأزهر بيانا يزعم ان نابليون.. السلطان الكبير «يحب المسلمين ويعز الرسول ويهذب نفسه بقراءة القرآن الكريم كل يوم ويريد بناء مسجد لا نظير له فى بهائه وفخامته ويود اعتناق الإسلام».

ويصر نابليون ان هذا البيان صدر بناء على اوامره.. لكنه يضيف ان المشايخ لم يستبعدوا أن تتحقق المعجزة وأعتنق الإسلام.. فقد اعتنق الجنرال مينو الإسلام واصبح اسمه «عبدالله».. ولكن مينو لم يعتنق الإسلام حباً فى الدين.. وانما حباً فى النساء.

لقد لعب نابليون والمشايخ نفس اللعبة.. بنفس الطريقة.. المراوغة.. وادعاء الصداقة.. وبذل الوعود الكبيرة دون الوفاء بها.. وصياغة الأهداف الدنيوية صياغة دينية.. ومن ثم.. كانت اللعبة مثل «الاستغماية».. التى لا تخلو من الاستغفال والاستهبال!.

ولأن اللعبة سياسية فقد انتهت لاسباب سياسية.. جيش ضعيف.. جائع فى بلد فقير.. ودول كبرى ترقب ما يجرى فى انتظار الانقضاض، وقائد محبط رسم استراتيجية

فى حلقة «ذكر» وشعب ليس لديه ما يخسره.. فقرر الثورة.. وشيوخ ليسوا على استعداد لفقد مكانتهم الارستقراطية فتأرجحوا بين النفاق والتمرد وفى كل مرة كانوا يبيعون آيات الله بثمن بخس!

وهكذا غادر نابليون مصر سراً.. تاركاً كليبر ليلقى مصيره.. الفشل والقتل وراحت الدوائر تدور.. وتدور حتى اصبحت الحملة الفرنسية صفحة فى كتب التاريخ المدرسية.

لكن.. ما لا تقوله هذه الكتب أن نابليون فهم أن الدين – فى الشرق – أهم من المدافع.. وأن الشريعة تسبق الاستراتيجية.. وأن الفقيه أخطر من الجنرال.. ولكنه لم يفهم أن الشعب المصرى بتكوينه الطبيعى وميراثه الوطنى والخلقى والنفسى شعب يتسم بالوداعة والقناعة والارتباط بالجذور.. وهو مثل النيل لا يقبل الانعطافات المفاجئة، ولا الانحرافات الحادة.. ولا المغامرات غير المتوقعة.. ولذلك فإن كل الذين حاولوا القفز فوق الخطوط الحمراء التى رسمها التاريخ سقطوا.. وكُسرت اعناقهم.

على أن تجربة نابليون لم تذهب.. مع مياه النيل – هباء إلى البحر.. ووجدت بعد قرن ونصف قرن من الزمان من يستوعبها ويستعملها ويعيدها إلى الواقع الدينى والسياسى فى مصر.

كان ذلك.. على يد رجل مخابرات امريكى.. قُدر له أن يلعب بمصائر دول الشرق الأوسط.. هو كيرميت روزفلت.. مسئول الشرق الأوسط فى المخابرات المركزية الذى كان أول ملف درسه قبل أن يصبح محترفاً – هو ملف «بونابرت فى مصر».. وقد استوعب الدرس.. وكرر اللعبة.. ولم يكن من الصعب عليه استنتاج اننا يمكن ان نُلدغ من الجحر مرتين.. وثلاثا.. ومليون مرة.

■ ■ ■

هوامش

(١) ج. كريستوفر هيرولد: بونابرت فى مصر – ترجمة فؤاد اندروس – هيئة الكتاب – ص ١٢. والجدير بالذكر انه يعد من المصادر الرئيسية فى هذا الفصل.

(٢) المصريون المحدثون: الجزء الأول من كتاب «وصف مصر» – ترجمة زهير الشايب – الناشر: مكتبة مدبولى.

(٣) عبدالرحمن الجبرتى: تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والاخبار الجزء الثانى – ص ١٨٨ – الناشر: دار الجيل فى بيروت.

(٤) عادل حمودة: كيف يسخر المصريون من حكامهم – ص ١٢١ الناشر: دار سفنكس فى القاهرة.

(٥) عادل حمودة: حكومات غرف النوم – فصل نابليون وبنت الشيخ البكرى – الناشر: دار سفنكس فى القاهرة.

٤ الزير السمين على عرش مصر !

فى ملفات وكالة المخابرات المركزية الامريكية تسمى هذه العملية بأسم:

«عملية الزير السمين»!

وهى أول عملية «تجميل» سياسية بمكياج «الدين الإسلامى» تقوم بها المخابرات الامريكية فى مصر.. فالزير «السمين» هو الملك «فاروق» الأول.. والأسم على مسمى.. فالملك فاروق كان مثل «زير» أو «برميل» يمشى على قدمين.. وكان «كرشه» يتحرك ويهتز أمامه وكان بداخله «مطبخ جروبى».. فى اليوم الواحد كان «يتناول كميات كبيرة من اللحوم والعصائر والفطائر والمياه والمحار.. الذى كان يأتى له خصيصا من كوبنهاجن اسبوعيا – لاعتقاده أن ذلك كله سيولد قوة «جنسية» كان فى اشد الحاجة إليها.

لم يكن قادرا على «تذوق» النساء.. فعوض ذلك بالتهام الطعام، ولعب القمار، وسرقة الأشياء الثمينة.. ومع انه كان غارقاً فى بحر من الجميلات فإن زورقه كان عاجزاً عن الابحار.. وكان السبب «فسيولوجيا».. وهو «أن بعضا من غدده لاتؤدى وظائفها تماماً حتى انه كانت هناك فكرة لاجراء عملية تنشيط للغدد الخاملة».

والكلام ليس من عندنا وانما هو كلام رسمى سجلته احدى الوثائق البريطانية التى كُشف عنها فيما بعد.

وتسجل هذه الوثيقة حواراً جرى بين رئيس الوزراء «حسين سرى» والسفير البريطانى لدى القاهرة، اللورد «لامبسون».

سرى: لقد تأكدت من أن الملك لا يذهب مع النساء إلى آخر المطاف.

لامبسون : اعرف ذلك واعرف أن زوجته الملكة فريدة أخبرته وحذرته انه إذا اقترب منها

كزوج فإنها ستستقبله كمتطفل .. ولكن.. كيف أنجب بنتين؟

سرى: انه ليس عقيما وانما يفتقد مقومات الشباب.

لامبسون: هذا التركيب غير الطبيعى لا يستبعد أن يؤثر على عقله.

سرى: والحل؟

لامبسون: سأطلب من حكومتى التصال بالدكتور ب. هنرى الذى سبق أن أجرى الكشف عليه عندما كان فى لندن لنعرف حالته بدقة.

سرى: إن د. هنرى يرى أن هذا الخلل ليس طارئا ولكنه يعود إلى فترة ما قبل الزواج. (١)

ومن جانبه كان الملك يعرف عيوبه وعجزه وحجم عجزه، لكن بدلاً من أن يسعى للعلاج اندفع إلى اصطياد النساء، حتى يظهر وكأنه فى قمة الرجولة والحيوية.. تعويض بالمظاهر.. لكن.. ما خفى كان اعظم.. لقد كان الملك مثل النهر «عطشان والكأس فى يديه» .. اما الشهوة أو اللذة الوحيدة التى كان قادرا عليها فهى.. الطعام.. فاندفع إليها بجنون.. وفشل فى المقاومة.. فراح كرشه يكبر وتراكمت الدهون حوله.. ومع الخلل فى الغدد والهرمونات، استحق اسم «الزير السمين» .. وتحول الاسم إلى عملية.. ثم اصبح ملفا يحوى اسرار وتفاصيل مثيرة – فى قصص استعمال الإسلام فى السياسة – تستحق ان تروى.

والذى أطلق الأسم وخطط للعملية رجل مخابرات امريكى مخيف يرتدى ثيابا تقليدية ويضع على عينيه عدسات طبية، ويبدو مثل علماء الذرة أو الكيمياء.. هو «كيرميت روزفلت» .. أو «كيم» كما يدللونه.. وكان مسئولا عن قسم الشرق الأوسط فى وكالة المخابرات المركزية.. وفى الفترة ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية وبداية حرب السويس كان الشخصية الرئيسية فى المناورات والمؤامرات التى تُدبر فى الكواليس للمنطقة.. ومن ثم كان على علاقة مباشرة بأبرز نجوم تلك الفترة مثل الملك فاروق.. محمد نجيب.. زكريا محيى الدين.. جمال عبدالناصر.. شاه إيران ومصطفى امين.

وفى ملفه الشخصى انه حفيد الرئيس الامريكى تيودور روزفلت.. ولُد فى فبراير سنة ١٩١٦ فى مدينة بيونس أيرس.. درس فى جامعة هارفارد.. اصبح استاذا لمادة التاريخ فى جامعة كاليفورنيا.. انضم إلى إدارة الخدمة الاستراتيجية – التى كانت نواة المخابرات المركزية فى سنة ١٩٤٣ وكان مركزه الرئيسى بيروت .. وبحكم دراسته الاكاديمية كان عمله فى القسم الثقافى بالسفارة الامريكية فى لبنان وكان «غطاء» مناسبا له كجاسوس.

وفى سنة ١٩٤٤ – وكان عمره ٢٨ سنة – عمل فى بيروت مساعدا لاستاذ جامعى

آخر – اصبح فيما بعد مديراً للجامعة الامريكية فى بيروت – هو د. ستيفن بنروز.. ولم يمر وقت طويل حتى ادرك ان تحريك الأحداث فى الخفاء والظلام يجذبه ويثيره أكثر من البحث والدراسة وجمع المعلومات الأكاديمية الجافة.. وفيما بعد اعترف فى مذكراته بأنه كان يجد «لذة» لا حد لها فى أعمال المخابرات الغامضة والقذرة.. ان خجله من الآخرين وخوفه من الاساءة لسمعة اسرته الارستقراطية جعلاه لايقدر على ارتكاب الافعال الطائشة المعتادة للمراهقين.. فلم يدخن سيجارة ولم يدع فتاة للرقص ولم يقد سيارته بجنون.. ولم يختلس نظرة إلى مجلة عارية.. ولم يقرأ رواية محرمة.

باختصار.. وجد نفسه محروما من المراهقة.. وهذا الحرمان جعله يتعامل مع المؤامرات السرية.. فيما بعد فى المخابرات.. وكأنه يتعامل مع امرأة لها سيقان مارلين ديتريش ونعومة مارلين مونرو.. وشخصية أمه الطاغية.. وجعله يقلب نظم الحكم باستمتاع لم يصل إليه مع امرأة.. انها تلك الرغبات الصغيرة المكبوتة التى حولته من استاذ جامعى طيب إلى متآمر شرس بارد الدم والاعصاب. (٢)

وبحكم فهمه لمنطقة الشرق الأوسط واستيعابه للعوامل التى تحكمها وتؤثر فيها، وتسيطر عليها، لم يكن من الصعب ان يدرك ان الاديان السماوية التى خرجت من صحاريها هى أخطر هذه العوامل على الأخلاق.. فلا سياسة بلا دين.. ولا نفط أو طرق، أو ممرات مائية، أو أحزاب، أو سلطة أو استراتيجية بدونه أيضاً.. ويقول انه درس تجربة بونابرت فى مصر.. لكن من المؤكد انه ابدى اهتماما كبيراً بجماعة الاخوان المسلمين، خاصة بعد اغتيال مؤسسها ومرشدها العام حسن البنا فى سنة ١٩٤٩ .. وهو اهتمام أوحى له بالتعامل مع هذه الجماعة واستخدامها «كسلاح قوى وحاجز متين ضد النفوذ الشيوعى والتغلغل السوفيتى» .. وحسب اعتراف أحد عملاء المخابرات المركزية فإنه – على ما يبدو – كان بارعاً فى ذلك. (٣)

لكن.. قبل أن يصل إليه هذا الوعى.. كانت خطة السيطرة على الملك فاروق من خلال اقناعه بانه «امير المؤمنين» .. الذى سيعيد مجد الامبراطورية الإسلامية مرة أخرى.. ومع ان الخطة بدت مثيرة للسخرية فانه لم يتردد فى تنفيذها.. فنحن فى الشرق.. وطن المعجزات والنبوءات والمخابرات.. الحضارة الى افرزت الكتاب الخالد «الف ليلة وليلة».

إن الف ليلة وليلة بالنسبة لنا ليس مجرد اسطورة نتسلى بها قبل النوم، ثم نسترد وعينا فى الصباح، وانما هو دستور واسلوب حياة ونظرية حكم وبرنامج سياسى.. ان حكايات هذا الكتاب ولياليه متنوعة ومثيرة.. لكنها تصب فى شريان واحد فى النهاية هو الذى يغذى العقل بمفرداتها الطاغية.. مثل الخلافة.. الجنس.. شهريار.. الحريم.. شهرزاد..

الثأر.. الشرف.. الطربوش.. المسبحة.. التكية.. الدراويش.. الاضرحة.. علاقة الحاكم بالمحكوم.. والراكب بالمركوب.. علاقة الرجل بالمرأة.. سيف الدولة المغرور والحاكم الذى يحكمنا بأمره ويقول أنه يحكمنا بأمر الله.

هذه هى المفردات الذى التقطها كيرميت روزفلت قبل أن يفُجر «معجزة» تحويل الملك فاروق من «زير سمين» إلى ولى من أولياء الله الصالحين.

كان ذلك فى ربيع ١٩٤٢ بعد حادث «٤ فبراير» الذى كان بمثابة لكمة تحت حزام الملك فاروق ظلت تؤلمه حتى سقوط عرشه.. لقد اجبره الانجليز على قبول حكومة مصطفى النحاس الوفدية بقوة الدبابات التى حاصرت قصره.. وإلا خلعوه مثل قميص بلا اكمام وزراير.

وقد اصابه الحادث باضطراب حاد جعله يطلق لحيته ويطلب من الآخرين أن ينادوه بالملك «المؤمن».. ولكنه فى الوقت نفسه ضم إلى حاشيته قوادة يهودية معروفة هى «هيلين موصيرى».. عرّفته على كومبارس يهودية من الاسكندرية هى ليليان كوهين التى اصبحت فيما بعد نجمة السينما الشهيرة كاميليا.. وكانت فى السادسة عشرة من عمرها عندما اكتشفت بذكاء عيوبه الجنسية.. وتجاوزتها.. وأوحت له بعكسها.. ودخلت حياته سامية جمال..وغيرها.. ومن ثم كان فاروق مؤمنا امام الناس فاجرا فى الخفاء.. وكثيرا ما كان يسهر حتى الصباح يلعب القمار ثم يرتدى «الردنجوت» ويذهب ليصلى صلاة «العيد».. أو كان يخرج من احتفال دينى فى مسجد إلى الأوبرج ليختار ملكة جمال السيقان.

هذا الاضطراب كان نقطة الضعف التى تسلل منها روزفلت.

لقد تعرف عليه فى تلك المحنة.. وكان يزوره فى قصره يوميا ويستمع إلى غضبه المكتوم من الانجليز الذين اهانوه، وابعدوه عن حاشيته وحكومته وكل رجاله الموالين للألمان والايطاليين، واستبدلوهم برجال من اختيارهم.. ولكن بين الحين والحين كان فاروق يعبر عن صموده فى مواجهة الانجليز ونجاحه فى عدم تنفيذ كل مطالبهم عندما استبقى من بطانته بعض من ارادوا طردهم.. مثل «بوللى» الايطالى الذى التحق بالقصر ليعمل كهربائياً ونجح فى ان يسيطر عليه بالنساء.. ومثل حلاقه الخاص الايطالى ايضا «جيورجيو جارو» ومساعده «بترو دولا فال» الذى كان «صبى قهوة» فى الإسكندرية.. وغيرهم.. وقد منحهم الجنسية المصرية وأصر على أن تجرى لهم عملية «ختان» حتى يفهموا الطبيعية المصرية!

ومن جانبه كان روزفلت يقوم بتطيب خاطره ويقول له: «بعد الحرب ياجلالة الملك

ستقوم حقبة جديده ستنعم فيها مصر بسيادة حقيقية وسيكون جلالتكم فيها أول حاكم لأول دولة مصرية حرة منذ ألفى سنة». (٤)

سنوات ليست قليلة مرت على هذا الحوار.. الذى كان بمثابة اعلان رغبة من مسئول امريكى لكى تستقبل مصر، وترث واشنطن نفوذ لندن – قبل ان تحترق القاهرة وتتعرض سمعة بريطانيا إلى مزيد من السواد والدخان والهباب، ويوافق آلن دالاس.. مدير وكالة المخابرات المركزية على عملية «الزير اسمين» ويهبط مدبرها كيرميت روزفلت من جديد إلى القاهرة.. ولكن سرا هذا المرة.. وكان كل ما يراهن عليه لنجاح مؤامرته هو الود القديم الذى يحمله له الملك فاروق.

قبل ان يسمح لباقى ركاب الطائرة بترك مقاعدهم وجد روزفلت من يسمح له بالنزول قبلهم.. وتقدم منه شاب مهذب غير ثرثار واخرجه من دوائر الأمن والجمارك بسرعة.. وحملت السيارة التى اقلتهما «شعار الملكية المصرية».. وغطت نوافذها الستائر.. وعندما توقفت السيارة وجد روزفلت نفسه فى استراحة الملك المطلة على الاهرام.. وكان ذلك فى فبراير ١٩٥٢.

خلال الحوار بين الجاسوس والملك اقترح روزفلت على فاروق ان يستعيد ثقته بنفسه ويخفف من بدانته.. ويزيل الأوحال التى علقت بسيرته كنوع من التجميل السياسى له قبل أن يقود البلاد إلى «ثورة سلمية» تطرد الانجليز وتخفف من قسوة الاقطاع، وتفرض ضرائب تصاعديه على الأرباح الرأسمالية، ولا مانع من القليل من العدالة الاجتماعية.. فقليل منها يصلح الحياة السياسية ويؤدى إلى التخلص من خطر الثورة الحمراء الذى يهدد مصر.

وسأل الملك عن البداية.

واجاب روزفلت:

«ان مصر دولة إسلامية، ولا يمكن أن تحكمها دون أن تنمى الشعور الدينى عند شعبها.. ان هذا الشعور الدينى سيحميها من خطر الشيوعى، وسيحمى عرشك من مايهدده الآن.. ومع التخلص من النساء ومساحة ما من العدالة الاجتماعية سيضاعف الشعب من حبه لك.. ويمكنك الاستمرار فى الحكم دون متاعب.

لمدة اسبوعين حاول روزفلت اقناع فاروق بخطته.. ولكنه فشل.. والسبب ان فاروق كان ثقيل الوزن خفيف العقل.. أو بعبارة اخرى «لم يكن من ذوى الاوزان العقلية الثقيلة».. على حد وصف روزفلت نفسه(٥) الذى لاحظ ان الملك كان يوافق بحماس على اقتراحات العلاج التى ستنقذ عرشه.. ثم يختفى فى اليوم التالى عن الابصار فى نزوة من نزواته

ينسى فيها العرض وروزفلت والمخابرات المركزية.. والمقصود.. أن سامية جمال أو كاميليا.. مثلا كانت اقوى تأثيراً عليه من كل الخطط والاحلام.. فسحر المرأة اخطر احيانا من أجهزة المخابرات.

ومع أن روزفلت نفض يديه من فاروق وذهب يبحث عن الثورة السلمية فى اتجاه أخر.. فان فاروق عندما شعر باندفاع الطوفان نحوه، قرر ان يلعب اللعبة الامريكية بنفسه.. ووجد ورقة «الإسلام» جاهزة.

وفى ٦ مايو سنة ١٩٥٢ نشرت الصحف بيانا لنقيب الاشراف الشيخ محمد الببلاوى يقول فيه: إن نسب فاروق يرجع إلى السلالة النبوية من ناحية جده لأمه «محمد شريف».. وجاء هذا الاعلان بعد أن طلب فاروق من وزير الأوقاف حسين الجندى وناظر الخاصة الملكية مراد محسن وغيرهما تشكيل لجنة من المشايخ لبحث هذا النسب.

وحصل الملك على ما أراد مقابل تبرع سخى للأزهر، ومقابل خلع الرتب والنياشين على كل من ضحكوا على أنفسهم وعلى الناس ومنحوه لقب «خليفة المسلمين».. واستهزأ الشعب باللقب ووصفوا صاحبه بانه «خليفة المسلمين فى اوبرج الاهرام».. بعد ان قالوا عنه «ملك مصر والسودان وسامية جمال».

وهكذا تحولت أولى خطط المخابرات الأمريكية فى مصر إلى نكتة.

وقد استغرقت زيارة روزفلت الفاشلة إلى القاهرة قرابة الشهر عاد بعدها إلى واشنطن وهو مؤمن بانه لا مجال للعمل العقلانى فى مصر طالما بقى فاروق مترابعا على عرشها».. والمعنى.. انه لابد من الاطاحة بفاروق والبحث عن بديل آخر مناسب.. وهكذا اتجهت النية إلى الضباط الأحرار.

فى القاهرة ترك روزفلت نيابة عنه ضابط مخابرات سيلمع اسمه فى الشرق الاوسط فيما بعد هو «مايلز كوبلاند» الذى كان عليه تمثيل دور جمال عبدالناصر فى لعبة الأمم وصاحب الكتاب الشهير الذى حمل الاسم نفسه «لعبة الأمم».. والتى مولته احدث الدول العربية الثرية فى الستينيات لمواجهة جمال عبدالناصر.

كانت مهمة «كوبلاند» فى ذلك الوقت كما شرحها فى كتابه الاخير «اللاعب واللعبة» هى البحث عن زعيم مسلم «قادر على سحر الجماهير» ويكون رجل أمريكا فى مصر. بشرط أن لا توجه المشاعر الدينية فى أى وقت تجاه الغرب.. ولا تجاه إسرائيل.. ولكن لأن المشاعر الدينية يجب ان توجه إلى «شىء» ما لتحريك الجماهير فإن الشيوعية كانت هذا الشىء الى اختارته المخابرات الامريكية.. انه العدو البديل الذى يبعد الانظار عن خطر إسرائيل وامريكا معا.

وفى رحلة البحث عن «الهدف» استعان كوبلاند بصديقه القديم «ناصر الدين النشاشيبى» الذى يعرفه جيدا منذ عمله فى دمشق وكان يسميه «نصرى».

ولان الهدف المطلوب يتصل بالإسلام.. طاف كوبلاند القاهرة القديمة.. شارع «الازهر».. الغورية.. الحوارى الخلفية لمسجد الحسين.. والأحياء القريبة من مسجد السلطان حسن.. وفى حى منها زار «جحر ميلو».

وميلو اجنبى يعيش فى مصر، من أصل يوغسلافى، شاذ، ومشعوذ، اشتغل مخبرا فى الحرب العالمية الثانية لدى اجهزة تجسس مختلفة.. وعندما انتهت الحرب وضع نفسه فى خدمة البوليس السياسى المصرى الذى سمح له بالأقامة فى «قصر بناه أحد امناء بيت المال فى العهد المملوكى» فى القرن الخامس عشر.. ويمتلىء هذا القصر.. او جحر ميلو بغرف وممرات واروقة سرية أو مخفية استخدمها البوليس السياسى المصرى فى انشطته غير المشروعة.. مثل التهريب والخطف والحبس واستجواب الجواسيس.. اما باقى الغرف فُتركت لميلو كى يحولها إلى ما اسماه «المربع الليلى لكافة المذاهب الإسلامية».. حيث يمارس المشعوذون وأصحاب المذاهب العجيبة طقوسهم أمام السواح الأجانب.. هذا إلى جانب مذاهب اخرى «مؤقتة يخترعها ميلو بنفسه من وقت لآخر لمزيد من التسلية والاثارة». (٦)

دخل كوبلاند والنشاشيبى جحر ميلو.. وفى تلك الليلة كانت «النمرة» الرئيسية فى البرنامج حلقة «ذكر» لفرقة دراويش تهتز على ايقاع طلبة عازف ضرير.. بينما السواح يشربون خمرا محلية على ضوء الشموع وكأنهم فى كبارية أو ملهى ليلى.. بينما تلف الغرفة حول نفسها.. وكأنها بلغة اليوم فى صالة ديسكو.. وهى تردد «الله حى».. وأحياناً كان احدهم يصرخ «اذكروا الله».. أو «وحدووه» بغية اثارة نوبة جديدة من الشعور الدينى». (٧)

أحس النشاشيبى بالغضب الممزوج باليأس فقال:

ان ذلك يكفى لصرف الاهتمام عن الظلم المتمثل فى اقامة دولة إسرائيل!

فسأله كوبلاند:

تُرى.. ما رأى هؤلاء فى التأييد الامريكى لإسرائيل؟

اجاب النشاشيبى:

لا رأى لهم انهم مجانين!

لم يكن من الصعب على كوبلاند.. وهو رجل مخابرات محترف يجيد اللغة العربية

بلهجاتها الشامية والمصرية – أن يفهم أن هؤلاء الفقراء – الذين يغيبون عن الوعى بالمخدرات وحلقات الذكر.. يحاولون تحرير انفسهم من صعوبة العيش.. إن الواقع مؤلم.. وهم عاجزون عن التعامل معه.. ويسعون للابتعاد عنه.. والتحليق بعيداً عن الجاذبية فى عالم غير «مرئى».. يتسم بالغيبوبة ولا يخلو من السمو.. وكأن من الافضل أن يفقدوا الفهم والعقل والانتماء.. إن الفهم يضاعف احساسهم بالعجز.. والعقل يزيد من تعاستهم.. والانتماء هو الذى يرفضهم.. لا يريدهم.. وما يفعلونه يخفف من الآلام والضغوط النفسية والاجتماعية والاقتصادية التى تحاصرهم من كل جانب.

ذهب كوبلاند إلى ماوراء الكواليس.. وسأله شاب كان قبل قليل فى حلقة «الذكر» بأسلوب مهذب وبانجليزية ركيكة: «هل تبحث عن المراحيض؟» وقبل ان يجيب تقدم منه شاب يرتدى ثياب «الدروايش» ولكنه امريكى وقال له: انه شخص غير مرغوب فى وجوده «هنا».. وان عليه ان «يبول فى مكان اخر» ثم انصرف بسرعة.

وعندما عاد كوبلاند إلى النشاشيبى روى له ما جرى من الشاب الامريكى، فقال له النشاشيبى معلقا فى سخرية «هل وصل الامريكان إلى هنا؟».. ثم انضم إليهم ميلو الذى تم تجنيده فى تلك الليلة وظل عميلا للمخابرات الأمريكية حتى وفاته فى اوائل السبعينيات.. «وقد قضى السنوات الأخيرة من حياته فى الإسكندرية يتقاضى بدل تقاعد شهريا من وكالة المخابرات المركزية». (٨)

فى تلك الليلة ايضا ولكن فى جناح كوبلاند فى الطابق الاخير من فندق «سميراميس» القديم كان الشاب الامريكى – الذى اعترضه فى جحر ميلو – قد سبقه إلى الجناح، وجلس ارضا فى وضع من اوضاع «اليوجا» بالقرب من كرس.. وادرك كوبلاند بسرعة انه زميل له فى الوكالة.

بادره الشاب بالسؤال: «ألم يقل لك فوكوايز ان تتركنى وشأنى»؟

وكأنه نطق بكلمة السر.

ففوكوايز هو الأسم الحركى لكيرميت روزفلت فى الوكالة.. إذن هذا الشاب أحد رجال «كيم».

ورد كوبلاند على السؤال الهادىء بسؤال صاخب: قل لى بحق الجحيم ماذا تفعل انت هنا؟».

كان لابد ان يتصارع العميلان.. مع أن هدفهما فى النهاية واحد.. لكنها المكاسب الشخصية التى تسبق احيانا المكاسب العامة.

قال الشاب الذى اسماه كوبلاند بأسم روبرت: إن الملك فاروق أخذ أفكار روزفلت وسعى إلى تنفيذها بمفرده، وانه راح يعمل «سرا مع زعماء الاخوان المسلمين لاحداث انقلاب تسيطر عليه حركة «العودة إلى الله» التى يقودها اصوليون مسلمون». (٩)

كان روزفلت قد اقنع فاروق «بشراء» الاخوان بتقديم مبالغ كبيرة من المال إلى حسن الهضيبى ولم يكن فاروق على علم بأن اموال الرشوة هذه تستخدم لسد نفقات جانبية تفرضها محاولة اجتذاب الجيش المصرى إلى مخطط الاخوان الانقلابى.. ولم يكن فاروق على علم كذلك بأن تلك الأموال فى حد ذاتها ادلة اضافية على فساده والحاده.. ذلك انه يحاول رشوة من اختاره الله. (١٠)

ويُفهم من هذا.. ان المخابرات الامريكية دفعت فاروق لرشوة الاخوان.. وفى الوقت نفسه اقنعت الاخوان بضرورة التخلص منه لانه فاسد وملحد ويرشو من اختاره الله.. واستخدم روزفلت الأموال التى قدمها فاوق للاخوان دليلاً على فساده.. واستخدمها الاخوان لدعم ضباط الجيش فى الانقلاب على النظام الملكى.

ويفهم من هذا ايضاً.. ان كل الاطراف فى هذه اللعبة المعقدة لعبوا بورقة الدين. وعلى الاخوان المسلمين الذين لم يترددوا من جانبهم فى المشاركة فيها.. فاروق حاول استمالتهم ليكونوا واجهة إسلامية براقة لحكمة الفاسد بعد ان وجد كل الطرق الاخرى مسدودة فى وجهه «المخابرات الامريكية لعبت الشوط الأول مع فاروق، ولعبت الشوط الاخير مع الأخوان وضباط الجيش الذين لعبوا مع الأخوان ومع غيرهم، وقبل ذلك لعبوا مع انفسهم.

وخرج الجميع فائزاً ماعدا فاروق.

لكن اللعبة لم تنته عند هذا الحد.. بل انقبلت إلى دورى للصراع على النفوذ والسيطرة وحكم مصر.. الأخوان تصارعوا مع الضباط وانهزموا.. والامريكان تصارعوا مع الضباط وانهزموا.. ثم تحالف الاخوان والامريكان.. وبعد سنوات وسنوات نجحوا فى هزيمة الضباط.. لكن.. الصراع لم ينته.. ولا يزال مستمرا.

■■■

هوامش

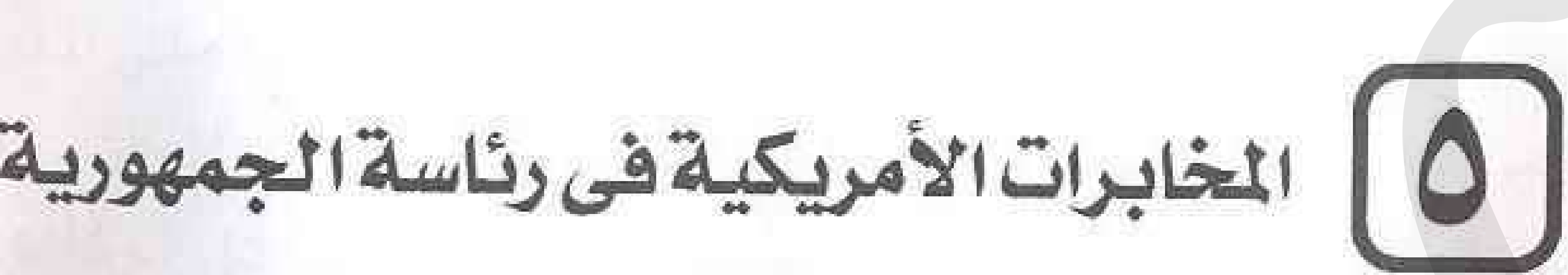
(١) لمزيد من التأكد والتفاصيل.. انظر د. لطيفه سالم: (فاروق وسقوط الملكية فى مصر) الناشر: مكتبة مدبولى القاهرة، خاصة الفصل العاشروعنوانه «الحياة الخاصة». وانظر ايضاً كتابنا «الملك أحمد فؤاد وعرش مصر».. الناشر: دار سفنكس.

(٢) اشهر العمليات التى تُنسب إلى كيرميت روزفلت هى العملية التى دبرتها المخابرات الامريكية للاطاحة بحكم الدكتور محمد مصدق فى إيران فى منتصف شهر اغسطس سنة ١٩٥٣ بعد تأميمه البترول، وتعرف هذه العملية بأسم «أجاكس» وانتهت بأعتقال مصدق وعودة الشاة إلى الحكم بعد هروبه إلى سويسرا، وتكلفت العملية ٢٠ مليون دولار ولكن الأهم أن الشاه اصبح بعدها مدينا للمخابرات الامريكية باستمرار حكمه، فكان أن سيطرت على بلاده حتى قيام الثورة الخومينية، وطرد الشاه إلى دول كثيرة واستقر فى مصر حيث مات بالسرطان.. ولمزيد من التفاصيل عن روزفلت وعملية اجاكس والمخابرات الأمريكية نقترح الرجوع إلى كتابنا «عبدالناصر: الحروب الخفية مع المخابرات الأمريكية» الناشر: الدار العربية.. القاهرة ١٩٨٩.

(٣) آلن جران: «رجال المخابرات الأمريكية» ترجمة جورج عبدو.. الناشر: دار المروج. بيروت – ١٩٨٥ – ص ٤٥.

(٤) مايلز كوبلان: «اللاعب واللعبة».. بدون اسم مترجم – الناشر: دار الحمراء بيروت – ١٩٩٠– ص١١٩.

(٥) و(٦) و(٧) و(٨) و(٩) و(١٠): كوبلاند – المصدر السابق، ص ١١٩ و١٢٠ و١٢١ و١٢٢ و١٢٣.



■ «مثل كلب كبير صدمته شاحنة».. كانت وكالة المخابرات المركزية تتصرف بعد فشلها فى إيران.. كانت الوكالة بعد عجزها عن استمرار حكم الشاه تنبح وتصرخ وتتخبط وتجرى وتدور - دون وعى - حول نفسها.

إن إيران - الشاه اصبحت «طفل الوكالة الملوث».. والضربة «المؤلمة» على مؤخرتها.. وكان خطأها القاتل انها لم تضع فى حسابها أن المشاعر الدينية يمكن أن تكون اشد من القوة العسكرية.. وأن سلطة «الخومينى» الروحية يمكن أن تنتصر على سلطة الشاه الزمنية.. وأن المعارضة الإسلامية يمكن أن تصبح معارضة سياسية.

وفى الوكالة دراسة سرية بعنوان «إيران بعد الوفاة».. اقتصر توزيعها على المدير ومعاونيه.. وهى عبارة عن تحليل فى ١٠٠ صفحة يشرح اسباب الفشل فى إيران.. وقد أعدها باحث فى الوكالة اسمه روبرت جرفيس سمحوا له بالاطلاع على كل الوثائق.. وبعد شهرين انتهى من الدراسة. (١)

وفى الدراسة فضائح واخطاء ارتكبتها المخابرات الامريكية فى حق بلادها تثبت انها كانت مثل الزوج المخدوع.. اخر من يعلم.. وانها وإن بدت قوية مثل الأسد إلا انها كانت فى الواقع أسد بلا انياب أو مخالب.. فقد كانت المخابرات الامريكية تعتمد فى تقديراتها على تقارير الصحف ونشرات التليفزيون. وكان رجالها فى محطة «طهران» منقسمين على أنفسهم بشأن ما يجرى فى إيران.. لكن ذلك لم يظهر فى تقاريرهم.. ولم يكن هناك معدات «تصنت» الكترونية فى مكتب الشاه.. ولم يكن للوكالة عملاء بأجور شهرية ثابتة.. ولم تتوقع أن يتحول الشعور القومى فى إيران إلى شعور ضد الولايات المتحدة، مع ان هذا امر سهل الاستنتاج من خطب رجال الدين الذين اعتبروا الشاه دمية تحركها

واشنطن ووكالة المخابرات المركزية.. وكانت تقارير الوكالة حتى اخر وقت مطمئنة.. وكانت تؤكد ان «إيران ليست فى وضع الثورة أو فى وضع ماقبل الثورة».

و«ان الشاه لم يصل إلى مرحلة الشلل وعدم التمكن من اتخاذ القرار.. وانه بشكل عام على اتصال وثيق بالواقع».

لكن.. فجأة لم تجد الوكالة الشاه على عرشه.

وفجأة وجدت الطلبة الثوار يحتلون سفارتهم، ومحطتهم القوية فى طهران.

والسفارة الامريكية تقع فى وسط مدينة طهران وهى «مثلثة الشكل» وتضم ٣٠ مبنى.. وكانت أقوى قواعد التآمر والسيطرة فى الشرق الأوسط.. وقد اخترقها واحتلها لمدة ٤٤٤ يوما من ٤ نوفمبر ١٩٧٩ إلى ٢٣ ديسمبر ١٩٨٠ حوالى ٤٥٠ طالبا ممن يسمون انفسهم «الطلبة سائرون على خط الامام».. وكان هاجسهم القوى من احتلال السفارة طوال هذه المدة هو الاحتياط حتى لاتدبر مؤامرة مضادة تعيد الشاه إلى الحكم، كما حدث من قبل فى صيف ١٩٥٣.. بعد ان قام د. محمد مصدق رمز الحكم الوطنى بتأميم البترول الإيرانى.

ووجد الطلبة أن مخازن السفارة عامرة بالاغذية التى تكفى من فيها ٥ سنوات.. اما خزائنها فكانت تحوى سجلات ووثائق كان وقوعها فى ايدى الإيرانيين كافيا لتغيير نظم العمل الداخلية فى المخابرات المركزية والموساد وكثير من اجهزة الأمن المتعاونة فى بعض الدول العربية.

وبعض هذه الوثائق أحرقه الامريكيون قبل أن يصل إليه الطلبة.. والبعض الآخر حاولوا تدميره فى ماكينات «الفرم» ورغم ذلك كان جملة ما تسرب من الوثائق الامريكية السرية حوالى ١٣ مجلدا اى اكثر من ٢٠ الف وثيقة.. وهى وثائق على درجات مختلفة من الخطورة.. لكنها كشفت المنطقة العربية وجعلت معظم حكامها فى اوضاع حرجة لايُحسدون عليها.

على أن الذى بدا عاريا تماماً هو الادارة الامريكية المركزية.. فقد جاءت الضربة من حيث لا تتوقع.. وهذا اخطر ما فى الامر.. فإيران كانت دولة اكثر من صديقة.. اكثر من حليفة.. كانت دولة تابعة بكل ما تعنيه الكلمة.. وكان الشاه حاكمها اكثر خضوعا من اى حاكم او عميل آخر.. باختصار.. كانت إيران مصدرا للأمان ولم يتوقع أحد أن تصبح مصدرا للشقاء كما حدث.. ومن ثم اصبحت عقدة نفسية مزمنة لوكالة المخابرات المركزية

مثل عقدة فيتنام النفسية المزمنة للبنتاجون.. أو المؤسسة العسكرية الامريكية.

وتمثلت اعراض العقدة الإيرانية فى قيام الوكالة بالتجسس حتى على الدول الصديقة.. انها لم تعد تثق فى أحد.. وعلى حد قول مديرها – فى ذلك الوقت – ستانسفيلد تورنر:

«إننا نحتاج إلى معلومات أكثر عن الاصدقاء وعن الأعداء.. ولو كان التجسس على الأصدقاء عملا ثقيلاً الا انه ضرورة.. فالمفاجأة التى يسببها الاصدقاء صعبة لانها غير متوقعة».

وكانت اول دولة صديقة مارست فيها المخابرات الامريكية عقدتها الإيرانية هى مصر.. فضاعفت فيها «شبكة العملاء».. وأمدت نظامها «بمعدات» وخبرات بشرية تحميه من الانقلاب.. وزرعت فى الاماكن الحساسة اجهزة تصنت لجمع اكبر قدر من المعلومات السرية.. واصبحت محطة القاهرة اكبر منشآت الوكالة خارج الولايات المتحدة.. وفى الوقت نفسه صححت الوكالة العديد من الخطط الأمنية للسادات حتى تجنبه خطر الاغتيال. (٣)

كان السادات تحت المراقبة الامريكية ٢٤ ساعة فى اليوم.. راقبوا بيته ومكتبه وسيارته.. وكانت مصادر المعلومات المتنوعة تنقل أولا بأول كل ما يفعله.. حتى انهم عرفوا مثلا انه كان مدمنا على تعاطى المخدرات وكانت تنتابه لحظات تلهف عليها(٣).. ولكن مدير الوكالة تورنر لم يهتم بذلك.. فالسادات كان فى قبضته دون حاجة لهذا النوع من المعلومات التى تستخدم فى الابتزاز الأسود.. البلاك ميل.

والحقيقة.. أن وكالة المخابرات المركزية – مثل اى جهاز مخابرات آخر – كانت دائمة الاهتمام بالحياة الخاصة والسرية لكبار رجال الدولة فى مصر.. وتكشف وثائق طهران بعض ما قيل عن بعض الشخصيات المصرية.

ففى احدى هذه الوثائق – مثلاً – تصف المخابرات المركزية على صبرى – النائب الاسبق لرئيس الجمهورية – بأنه لم يكن بالشخص المقبول شعبيا.. وكانت له شهرة فى مجال الغش والتعطش للسلطة.. كذلك كان يتميز بالذكاء والمهارة. (٤)

وفى الوثيقة نفسها.. ان عبدالحكيم عامر ليس فى ذكاء على صبرى.. واشتهر بادمان للحشيش رغم عدم ثبوت ذلك.. وتميز بحمايته لنفسه من عمليات الاعتداء على صلاحيات الخاصة فيما يتعلق بالقوات المسلحة.. وقيل عنه انه متعبد.. تقى وبانه متأثر بالاخوان المسلمين. (٥)

وفى وثيقة اخرى عن اشرف عبداللطيف غربال.. الذى كان سفيرا لمصر فى واشنطن.. انه «انسان حلو العشرة.. محافظ فى ثيابه يرتاح بين الامريكيين.. يتكلم الانجليزية والفرنسية بطلاقة.. وهو مسلم مع انه يتناول بعض المشروبات الكحولية ولا يدخن الا نادرا». (٦)

ان الاسرار والصفات الخاصة للشخصيات العامة تمنح اجهزة المخابرات «ثروة» من نقاط الضعف تمكنها فى كثير من الأحيان من السيطرة عليها.

لذلك كان طبيعياً أن ترصد المخابرات المركزية جيهان السادات.. وقد كتبت عنها: انها ترتدى ثيابا غربية وتحبذ فكرة استقلال المرأة.. المحرمة عند العديد من الاصوليين الإسلاميين. (٧)

لكن نقاط الضعف تصبح مجرد معلومات مهملة فى الأرشيف إذا ما اصبح المسئول على علاقة قوية بالمخابرات المركزية كما كان الحال مع السادات.. لقد بدأت علاقة السادات بهم من خلال وسيط هو كمال ادهم الذى كان رئيسا للمخابرات السعودية.. وكان السادات لا يزال نائباً لجمال عبدالناصر.. وقيل أن هذه العلاقة جلبت له «دخلاً ماليا منتظما» دفعه السعوديون الذين تداخلت وتشابكت مصالحهم مع «الامريكان» إلى حد اصبحت فيه مصالح الطرفين.. واحدة. (٨)

وعندما اصبح السادات رئيسا لم يعد فى حاجة للوساطة، وطور علاقته بالمخابرات الامريكية بصورة مذهلة.. اصبحت علاقة تاريخية مميزة على حد وصف المسئولين فى المخابرات الامريكية انفسهم.. وهذه العلاقة التاريخية جعلته يتحدث عن مصالحهم كما لو كانت مصالحه.. انه واحد من العائلة.. ومن حقه ان يتحدث باسمها ويتصرف – ان امكن – نيابة عنها!

ولأنه واحد من «العائلة» اهتم السادات بنقل مشاعر شاه إيران بعد سقوطه إلى الرئيس الامريكى «كبير العائلة» اثناء زيارته للولايات المتحدة فى يناير ١٩٧٩.. وهذا ما تسجله بالتفصيل الوثيقة الامريكية السرية التى تحمل رقم ١٦٦٦ والتى تقول:

ان السادات لديه انطباع واضح بأن الادارة الامريكية عاملت الشاه «بطريقة سيئه».. وهو ما جعل الشاه «يشعر بمرارة».. وكشف السادات انه خلال وجود الشاه فى اسوان الحت زوجته عليه ان يتصل «بقوات الأمن والقوات المسلحة الإيرانية».. لكنه لم يحاول والتزام بالوعد الذى قطعه على نفسه امام الرئيس جيمى كارتر.. ولم يكن على استعداد لينكث بوعده.

وتجنب السادات تقديم اى اقتراح مصرى يرى مساعدة الشاه لاستعادة عرشه.. لأن السادات لم يعد يعرف ما اذا كان الشاه ينوى العودة ام لا؟ ولكن السادات اضفى اهمية واضحة على قرار الحكومة الامريكية بالسماح للشاه باستخدم جميع الخيارات المتاحة له.. وقال السادات.. «لا تغلقوا جميع الأبواب فى وجهه».

وعرض السادات على الإدارة الامريكية تقديم جميع التسهيلات اللازمة فى مصر لتخزين الأجهزة والمعدات العسكرية التى من الممكن احضارها من إيران.. وانزعج من نية تدمير بعضها.

واضاف السادات: إن الشاه ابلغه بان الولايات المتحدة لا تزال على علاقة وطيدة بالقوات المسلحة وخاصة القوات الجوية وانه من هذا المنطلق طلبت الحكومة الامريكية من قائد القوات الجوية الإيرانية تفجير جميع المعدات والاسلحة المتطورة فى حالة تعرضها للخطر أو فى حالة تردى الوضع الداخلى فى إيران.

وقال السادات:

اننى مازلت على موقفى بتقديم المخازن المصرية لحفظ تلك الاسلحة حتى يمكن استخدامها فى الاوقات الصعبة.. واشار إلى ان الآلة العسكرية الإيرانية قد تم بناؤها وتدريبها من قبل الولايات المتحدة، وعلى نطاق واسع.. وكانت بمثابة إداة استقرار فى هذه المنطقة.. فلابد من الحفاظ عليها.. ولابد من الابقاء على علاقة قوية بين قياداتها العليا والولايات المتحدة.

وكان رد الادارة الامريكية على السادات.

انها لا تهدف إلى منع الشاه من القيام بأى عمل.. وكل الخيارات مفتوحة امامه.. والقضية فى النهاية بيد الشعب الإيرانى.. فهو الذى يقرر هذه المسألة. (٩)

ولعل سر حماس السادات للشاه هو انه كان يشعر ان دوى الثورة الإسلامية فى إيران يهز وجوده فى مصر.. وأن وجود الشاه فى المنفى يعنى أن نظامه فقد حائطا صلبا كان يحمى ظهره فى إيران.. ومن ثم لم يتردد فى الربط بين استقرار طهران واستقرار القاهرة. وتمنى ان يعود الشاه إلى عرشه وان يظل الجيش الإيرانى تحت السيطرة الامريكية. وسعى إلى أن تحل مصر محل إيران إذا ما فقدت الولايات المتحدة الأمل فى إيران.. إن عقدة إيران – التى أصابت وكالة المخابرات المركزية – القت بظلالها على السادات وجعلته فى شدة التوتر والقلق.. وهى حالة جعلته غير قادر على رؤية اى اعتبار من اعتبارات

السيادة الوطنية عند التحدث إلى الإدارة الإمريكية.. وبدلا من أن يستوعب ما جرى للشاه – الذى عامله الامريكيون معاملة سيئة لا تخلو من الاهانة – اندفع فى الطريق نفسه ليلقى مصيرا مشابها.

ومن جانبها لم تتردد القيادة الثورية الجديدة فى إيران فى أن تضع السادات فى خندق الأعداء.. وخرجت المظاهرات فى طهران تطالب بسقوطه وتصفه بيهوذا الذى باع دم السيد المسيح مقابل حفنة دولارات.. واستنكر المتظاهرون معاهدة الصلح مع إسرائيل.. وكان ذلك فى الاسبوع الاخير من مارس ١٩٧٩.

وحسب ما جاء فى احدى الوثائق الامريكية فى طهران فإن مجموعة من الطلبة العرب «يعيشون فى إيران» احتلوا السفارة المصرية هناك تعبيرا عن غضبهم من توقيع معاهدة «كامب ديفيد».. وقال هؤلاء الطلبة: انهم لم يهاجموا السفارة.. بل تم السماح لهم بدخولها والسيطرة عليها من قبل شخصية رسمية تنتمى إلى السفارة.. وهذه الشخصية افادتهم انها تؤيد قضيتهم». (١٠)

وتضيف الوثيقة: ان مظاهرة احتجاج اخرى ضد السادات وكامب ديفيد مؤلفة من ٤٠ ألف شخص خرجت من مدينة «رافسنجان».. وخرجت مظاهرة ثالثة من مدينة «تبريز» كان من الصعب تحديد عدد المتظاهرين فيها.. فقد كانوا مئات الألوف من البشر.

لقد اشعل السادات الفتيل فى قنبلة العداء للثورة فى إيران.. ومع أن واشنطن نجحت فى مد خيوط الاتصال السرية والعلنية مع طهران فإن السادات لم يتراجع عن موقفه العنيد.. وبدأت الحرب الباردة بين البلدين.. وهى حرب لم تتوقف بعد اغتيال السادات أو بعد وفاة الخومينى.. ولم تظهر فى الافق بادرة أمل فى توقفها الا فى الاسبوع الاول من شهر اكتوبر ١٩٩٤.. حين قام أول دبلوماسى إيرانى بزيارة للقاهرة.. هو عباس مالكى وكيل وزارة الخارجية الإيرانية ورئيس مركز الدراسات السياسية التابع لها.. وكان على رأس وفد محدود انضم إليه المسئول عن رعاية المصالح الإيرانية فى القاهرة «على اصغر سيجانى».

وعباس مالكى أحد الذين شاركوا فى الثورة قبل حوالى ١٧ سنة – ووالده واحد من «آيات الله» الذين قادوا الثورة.. وخاله يحمل لقب «مرجعية».. وهى اعلى رتبة دينية فى إيران.. ففى إيران ست مراتب شيعية محددة هى «طالب علم» و«مجتهد» و«مبلغ الرسالة» و«حجة الإسلام» و«آية الله» و«آية الله العظمى» ثم «المرجعية».. اى الشخص الذى يرجعون إليه فى كل شىء.

لم يأت عباس مالكى إلى القاهرة بدعوة رسمية، وانما بدعوة شخصية من عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية د. على الدين هلال.. فهما يرتبطان بعلاقة صداقة بحكم عملهما فى مراكز الابحاث السياسية.. وقد تأخر عباس مالكى فى قبول الدعوة ٤ سنوات مما يعنى أن حكومته لم تكن مرحبة بالسفر إلى القاهرة.. حتى ولو لم تكن الدعوة رسمية.. كان قبول الدعوة يعنى أن موقف حكومته تغير من الاصرار على الرفض إلى الرغبة فى الاستكشاف وتحسس مناطق الود ومناطق الألم.. ربما تمهيدا لإعادة العلاقات.. او ربما لمزيد من القناعة ببقاء الحال على ماهو عليه.

ولم تمنع الدعوة الشخصية عباس مالكى ومرافقيه من زيارة شيخ الازهر والمفتى ومسئولين فى الخارجية المصرية.. كما انها كانت فرصة للدخول فى حوار مغلق صريح وصل إلى حد المواجهة مع مجموعة من المثقفين المصريين اختاروا مائدة مركز البحوث والدراسات السياسية – جامعة القاهرة – مكانا للحوار.. وقد كنت واحدا منهم.

وقد كان الحوار فرصة لتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود فى العلاقات «المشوشة» بين مصر وإيران.. انها علاقات غارقة فى بحار مسممة بالشك والقلق والتوتر والاضطراب والتربص وتبادل الاتهامات.. وهى سموم تجدد الجراح القديمة.. وتعيد النبش فيها.. فيظل الألم مدويا بكل ما يصاحبه من ندب وعويل.

كان فرصة عاقلة للبحث عن الالغام وقنابل الاعماق فى العلاقات بين البلدين وماتسبب عن انفجار بعضها فى حرق للجسور.. ومن بين الدخان كان علينا ان نعرف كيف ترى السلطة فى إيران الآن ما لمصر.. وماعليها؟

ويمكن القول أن الإيرانيين يرون فى مصر مصابيح لاتزال مضيئة.. جعلت منها دولة مهمة فى عيونهم.. لها مكانة – لا تزال – فى قلوبهم.

إن جمال الدين الافغانى اول هذه المصابيح المضيئة.. أنه اعظم مفكرى الإسلام الذين يحبهم قواد الثورة الإيرانية.. فاسمه يرتبط بتحدى الغرب.. وقد احتضنته مصر فترات طويلة من حياته (١٨٣٩–١٨٩٧) وفيها عبر عن افكاره الإسلامية الثورية.. فالإسلام عنده يتجاوز الشعائر والعبادات.. والمفروض أن ينظم المجتمع.. لكن ذلك ليس أمراً هينا لانه يحتاج إلى اصلاح دينى شامل.

وقد ولد الافغانى فى إيران.. لذلك يلقبونه هناك بجمال الدين الإسلام ابادى نسبة إلى مدينة إسلام اباد.. لكنه كان يفضل ان يعده الناس سنياً من افغانستان كما يدل على ذلك لقبه الذى اختاره بنفسه.

ولا ينسى الإيرانيون أن مصر استقبلت زعيمها السياسى الجرىء محمد مصدق ووقفت وراءه بعد أن اصبح رئيسا لوزراء إيران فى ١٩ ابريل ١٩٥١.. وكانت أول دولة يزورها بعد أن اصدر قانون تأميم البترول بحوالى ٣ اسابيع.

وقد ظل مصدق فى الحكم إلى ما بعد قيام الثورة فى مصر فنال المزيد من التأييد من جمال عبدالناصر ورفاقه الضابط.. لكن التأييد لم يصل إلى حد الدعم لمواجهة الانقلاب الذى دبره مسئول الشرق الأوسط فى المخابرات المركزية كيرميت روزفلت ضد مصدق فى العمليات المعروفة بأسم «اجاكس» والتى استرد بعدها الشاه عرشه وقُبض على مصدق وسُجن فى زنزانة تمتلىء بالمياه فأصيب بالروماتيزم والشلل قبل أن يوصله القهر والشيخوخة إلى مثواه الأخير.

وبالقطع .. لا ينسى الإيرانيون جمال عبدالناصر.. فقد كان اشد الزعماء عداء لشاه إيران، وقد امر باستقبال ثلاثة اعضاء اساسيين من معارضى الشاه تقلدوا فيما بعد مناصب قيادية فى حكومة الثورة هم.. إبراهيم يزدى.. وصادق قطب زاده ومصطفى شمران.. وقد وصلوا إلى القاهرة فى منتصف الخمسينيات واتصلوا بأجهزة المخابرات المسئولة عن اللاجئين السياسيين وابدوا رغبتهم فى التدريب على السلاح لأنهم – على حد قول محمد حسنين هيكل فى كتاب «مدافع آية الله».. قرروا أن حرب العصابات هى السبيل الوحيد الآن امام المعارضين للشاه، وتم إرسالهم إلى معسكر انشاص خارج القاهرة «وهى ضيعة سابقة للملك فاروق» وكانت حينذاك المكان الذى يتلقى فيه اعضاء جبهات التحرير المختلفة تدريباتهم.. وهناك التقوا بالفلسطنيين والاريتريين وجماعات أخرى من افريقيا.. ولكن بعد قليل دب النزاع بينهم وبين مضيفيهم لأن القسم المختص من المخابرات المصرية كان يريد من اللاجئين الإيرانيين أن ينضموا للعمل فى الاذاعة الموجهة من القاهرة للهجوم على الشاه.. لكنهم رفضوا مصريين على انهم حضروا إلى القاهرة للتدريب على فنون القتال فحسب، وأن الكلمات لن تفلح بالاطاحة بالشاه ولم يفلح احد فى اقناعهم بأن احتمالات المقاومة المسلحة فى إيران كانت فى حكم المستحيل وان الدعاية عن طريق الاذاعة سلاح قوى للغاية فى ترسانتهم إلى أن تحين اللحظة المواتية.. لكن النزاع استمر وقرروا مغادرة القاهرة، وكان عددهم قد زاد إلى خمسين وذهب بعضهم إلى الولايات المتحدة، والبعض الآخر إلى لبنان لمزيد من التدريب.

ويستطرد هيكل: لقد كانوا يتمتعون فى مصر بالأمان المعقول من رقابة السافاك (جهاز الامن الإيرانى الشرس) رغم أن بوليس الشاه ووكالة المخابرات المركزية والمخابرات

الإسرائيلية (الموساد) كانوا يعملون فى المنطقة بأقصى طاقاتهم».

وعندما اصبح آيه الله الخومينى زعيما يلفت الانظار ويجمع بين تدريس الدين والعمل السياسى، اتخذ خطوات لمساعدة أسر الذين قتلوا فى الانقلاب المضاد لمصدق أو الذين اختفوا أو اضطروا للذهاب للمنفى، كما بعث برسائل لجميع رؤساء دول العالم الإسلامى والعربى يطلب منهم مساعدات فى هذا المضمار على حد قول هيكل الذى يضيف:

إن من بين كل من تسلموا الرسائل لم يستجب سوى جمال عبدالناصر.. فى ذلك الوقت كانت مصر وسوريا كيانين فى الجمهورية العربية المتحدة.. وأمر جمال عبدالناصر بارسال ١٥٠ ألف دولار عن طريق جهاز المخابرات الذى كان يرأسه عبدالحميد السراج لتوضع تحت تصرف لجنة الاعانات.

وغادر مطار بيروت شخص لبنانى يعمل مع السراج.. لكنه حينما وصل إلى مطار طهران أُلقى القبض عليه.. ويبدو أن (السافاك) او احدى الوكالات التى تعمل معها قد نبهت انظار المسئولين إليه فى المطار.

ولا ينسى الإيرانيون كذلك الشيخ محمود شلتوت الشيخ الأسبق للجامع الازهر ودوره فى تقريب المذاهب الإسلامية واعترافه بالمذهب الجعفرى كمذهب من مذاهب الشيعة.. ويُنسب هذا المذهب للامام جعفر الصادق وهو الامام السادس من أئمة الشيعة الأثنى عشر (٧٠٠-٧٥٦م) وكان مشهورا بعلمه، وكان اول من افتى بحق الامام فى تعيين وكيل له يقوم مقامه «على شرط أن يكن شخصية مثالية تسمو على الاعتبارات الدنيوية ويجيد تفسير تعاليم الامام».

وقد جاءت فتواه لمواجهة الخطر الذى كانت تحيا فيه قيادات الشيعة وقبل اختفاء الامام الثانى عشر بحوالى قرن من الزمان.. فقد اختفى فى عام ٨٧٣ وهم ينتظرون عودته.. عودة المهدى والمرشد والمعصوم الذى سيقيم العدل فى العالم ويحرر الفقراء.

والاعتراف بفرق الشيعة يعكس التسامح الدينى فى مصر.. فالمصريون لا يفرقون بين مسلم سنى ومسلم شيعى.. وهم سنُيون لكن كثيراً من عاداتهم شيعية.. بل انهم نقلوا إلى الشيعة بعضاً من طقوس الفراعنة وقت أن كانت الشيعة مذهبا مسيطرا فى مصر، خاصة طقوس الموت.. فهناك ثلاث مناسبات يتجمع فيها الشيعة لإحياء ذكرى الموتى تمتد اصولها إلى عادات المصريين: الأولى وتسمى «مجلس العزاء».. وتقام بعد الوفاة مباشرة والثانية وتسمى «مجلس التراحيم»، وتقام كل خميس.. حيث يلتقى الاصدقاء والاقارب ليتذكروا محاسن الفقيد ويستمر لقاءات الخميس حتى اليوم الأربعين

من الوفاة.. ويكون «مجلس الأربعين» وهو اليوم الذى يفترض فيه صعود الروح إلى بارئها فى السماء.. وكان أول من آمن بذلك هم الفراعنة.

لكن.. هذه المصابيح المضيئة لم تستطع نفى الظلام الذى سيطر على سماء العلاقات بين القاهرة وطهران.. بل أن ضوء هذه المصابيح راح يخفت وراء السحب والغيوم والتى تكاثفت منذ الثورة فى إيران حتى جاء وقت كان الظلام فيه دامسا.

لقد ايدت تيارات سياسية متناقضة – من الاخوان المسلمين إلى الماركسيين – الثورة الإيرانية فى البداية.. باعتبارها اول ثورة شعبية تنجح فى تغيير نظام حكم منذ الثورة الشيوعية فى روسيا.. وكان الفاصل الزمنى بين الثورتين (الشيوعية والشيعية) حوالى ٦٠ سنة.. كما أن سقوط الشاه فى حد ذاته كان عملا يستحق الترحيب والتقدير.. فقد انتفخت عضلاته وراح يفرضها على جيرانه سعيداً بلقب وبدور الشرطى فى الخليج.

على أن الثورة الإيرانية التى كانت استشهادا اكثر منها فرحة على حد وصف هيكل – سرعان ما عزلت نفسها «قبل أن يحاول احد عزلها، بعقدة الاستشهاد راحت تحصر رقعة الارض التى تتحرك عليها يوما بعد يوم.. وتحولت من ظاهرة إنسانية هائلة فى ايامها الأولى إلى ظاهرة شيعية داخل إيران فى مدة لا تتجاوز سنة واحدة.

وهكذا سحبت كثير من التيارات السياسية فى مصر تأييدها للثورة، وتراجعت فى حماسها لها.. ثم انقلبت هذه التيارات – بعد ان احست بالخطر – عليها.. ثم كان ان وجدت هذه التيارات نفسها – دون ان تقصد او تحب او تسعى او تحاول – فى جهة العداء التى وقف فيها نظام السادات حينذاك.

التيار الوحيد الذى تضاعف حماسه وتأييده للثورة كان تيار الإسلام السياسى بانهاره وروافده المختلفة.. بل أن هذا التيار شعر بمزيد من القوة والانتعاش لنجاح الثورة.. فقد تصور أن ما يحدث فى إيران يسهل تكراره فى مصر.. وهكذا وجد هذا التيار أن الوقت قد حان للانقلاب على نظام السادات.. النظام الذى كان «جهاز حضانة» لهذا التيار.

وقد بدأت مظاهر الانقلاب بالاعتراض العلنى على استقبال الشاه فى مصر.. وعلى دفنه فى مسجد الرفاعى بالقاهرة.. وهو ما جعل السادات يضيف لأسبابه الشخصية فى معاداة الثورة الإيرانية – أسبابا سياسية.. فقد اصبحت الثورة تهدد حكمه مباشرة.

ولا ينسى الإيرانيون أن السادات فتح ذراعيه للشاه فى وقت لم يجد فيه دولة تستقبله

أو ترحب به على ارضها.. وكانت آخر محطة للشاه قبل القاهرة هى «بنما».. وكان الشاه مستعدا للبقاء هناك لولا انه عرف ان الامريكيين يتفاوضون وراء ظهره على تسليمه للحكومة الإيرانية.. فكان أن اخذ الطائرة ليلا.. وفى الوقت المناسب ليطير بها إلى المكان الوحيد فى العالم الذى رحب باستقباله.. القاهرة.

ولو لم ترحب به القاهرة فإنه كان سيجد نفسه مجبرا فى طهران ليحاكموه هناك قبل أن يلفظ أنفاسه الاخيرة، او ليستردوا منه ماهربه من اموال للخارج.. وكان حوالى ٥ مليارات دولار.

ورغم مرور سنوات طوال على ذلك فإن الإيرانيين يرون أن السادات قد أضاع عليهم فرصة تاريخية بما فعل.. وهم مصرون على عدم النسيان.

على أن السادات لم يكتف باستقبال الشاه وانما وافق على اقلاع طائرات امريكية من قاعدة نجح حمادى الجوية إلى إيران لتحرير رهائن السفارة الامريكية فى طهران.. لكن لم يكتب للعملية النجاح.. ودفع السادات ثمن الفشل.. مزيداً من سوء الظن بين القاهرة وطهران.. ولإن التاريخ يفرض نفسه دائما على الواقع فى إيران، فإن هذه العملية التى تعرف باسم «تاباز».. ظلت عقبة فى طريق العلاقات بين البلدين.

وبجانب العجز عن تجاوز التاريخ والاصرار على إحياء الماضى وفرضه على الواقع كان مأزق الجغرافيا يعرقل مسيرة الثورة الإيرانية ويحول كثيرا من الاصدقاء إلى إعداء.. ان الحرب مع العراق كانت ضرورة من جانب العراق لحماية تركيبته الوطنيه (شيعة وسنة وأكراد) وإلا وجد نفسه مهددا بالتفتت وبأن جماعات من شعبه تتجاوز حدود الوطن، وترتبط بدولة اخرى بفعل جاذبية المذهب الدينى.

وقد وقفت مصر إلى جانب العراق، وحارب المصريون فى صفوفها وهو ما لاينساه الإيرانيون حتى الآن.. وقد اعترف بذلك عباس مالكى.. لكن اعترافه يثير مشكلة خلط الأوراق بين الدين والقومية فى الثورة الإيرانية.. وقد انتقلت المشكلة إلى التيارات الدينية فى بقية ارجاء العالم الإسلامى.. ووُضع الوطن امام الدين.. وضاع الانتماء للوطن بدعوى الانتماء إلى ما هو اكبر وأرحب.. العالم الإسلامى.

إن الفهم.. او محاولة الفهم اصعب الأمور فى السياسة وفى الحياة عموماً.. لأنها – كما يقول هيكل – جهد نفسى وفكرى وإنسانى مرهق.

والمشكلة ان عقليتنا «الشرقية» – التى سيطر عليها الطربوش والبخور والطقوس

والافكار الجاهزة والمعلبة – لا تريد أن ترهق نفسها، وتفضل الراحة والترهل من خلال اختيار واحد بين ثنائيات قاطعة وحادة «لا تحتمل أى تنوع أو تلوين».

الروح أو المادة.. العقل أو القلب.. الابيض أو الاسود.. القومية أو الإسلام.. مثلا.

وهذه الثنائية المحتلة لعقولنا جعلتنا فى النهاية نحدد علاقاتنا على المستوى الإنسانى على اساس الحب والكراهية.. وعلى المستوى السياسى بمقياس العداوة والصداقة.. لا وزن للمصالح ولا حساب دقيق للمكسب والخسارة.

ولعل ذلك يفسر جانبا شديد الاهمية من جوانب ازمة العلاقات المصرية – الإيرانية.

وعلى الجانب المصرى لا يزال القلق مزمنا مما يوصف بـ «تصدير الثورة».. وتصدير الثورة الإيرانية إلى مصر أخذ صورة دعم الجماعات الإسلامية المتطرفة التى تسعى لقلب نظام الحكم.. او على الاقل تهديد الاستقرار.

ان مصر الناصرية سبقت إيران – الخومينى فى تصدير الثورة.. وقد دفعت ثمنا غاليا.. ولا تزال تدفع.

ويرى هيكل: أن «الثورة لا تصدر لكن قيمها قابلة للإنتشار.. وفرق كبير بين تصدير الثورة وبين انتشار قيمها».

ويستطرد هيكل وهو يقترب من تجربة الثورة الإيرانية:

ومن الصعب ان يتصور احدا أن الثورة الإسلامية التى عرضت نفسها فى اطار مذهب واحد وبلد واحد كان فى استطاعتها ان تُصدر أو تنتشر كثيرا او بعيدا إلا إذا استعملت فى ذلك سلطة الدولة وليس جاذبية الثورة...

ولعل ازمة الثورة الإسلامية فى هذه الاشكالية تمثلت فى القصور عن التفرقة بين مرحلة الثورة ومرحلة الدولة.. فكل واحدة منهما لها اسبابها وذرائعها ولها دورها وإساليبها.

ولم تكن الثورة الإيرانية نموذجا فريدا لهذه الاشكالية فى التاريخ وانما نماذجها عديدة على اتساع العالم وتعاقب عصوره.

ولم تجد دولة الثورة الإسلامية نفسها تتجاوز حدود القوة المقبولة والمسموح بها فقط، وانما وجدت ايضا انها حرمت نفسها من البعد الاستراتيجى المحيط بها فى المنطقة..

ومهما قيل فى أن دولة الثورة مضطرة إلى أن تحمى نفسها خارج حدودها فإن اى عمل خارج الحدود له أيضا – بضرورة الأحوال.. حدود».

ولكن اغلب الظن أن دولة الثورة فى إيران لم تعرف حدود العمل خارج الحدود.. فكانت الحرب مع العراق.. وكان دعم الأحزاب الشيعية فى لبنان.. وكانت مباركة الجماعات المتطرفة فى مصر.. وكان طلب الخومينى المباشر لياسر عرفات بأن تكون الثورة الفلسطينية ثورة إسلامية لا قومية.. وكان احتلال الجزر الثلاث فى الخليج (طنب الكبرى وطنب الصغرى وابو موسى».. وهو ما يعنى أن دور الشرطى – الذى استنكرت الثورة الإيرانية على الشاه ان يلعبه قد وجدت نفسها تلعبه.

هكذا.. كان تقييم ما جرى بين مصر وإيران على مائدة بحث تتسم بالصراحة والموضوعية.. وهو تقييم تأخر كثيرا.. مما جعل الطرفين يخسرون اكثر.. اما الذى ربح فهو الولايات المتحدة التى تنتهج سياسة «برجماتية» فيها المصالح قبل المبادىء.. وفيها استيعاب للأخطاء بحيث تكون قادرة على التصحيح اولاً بأول.

فهى إلى جانب اختراق الاصدقاء والتجسس عليهم قررت اختراق التنظيمات الاصولية والاقتراب منها والارتباط بزعمائها ولامانع من التحالف معها إذا وجدت انها تملك من القوة ما يؤهلها للحكم فى المستقبل.

وهكذا بدأت فى مصر – فى نهاية السبعينيات – معركة خفية، من نوع آخر مختلف.

ولم يتح لأحد معرفة التفاصيل.

■■■

هوامش

(١) بوب وود ورد: «الحجاب» – الحرب السرية للمخابرات المركزية من ١٩٨١ – ١٩٨٧ – الناشر: سيمون شوستر – لندن – ١٩٨٧ ص١٠٨ من الطبعة الإنجليزية.

(٢) و(٣) المصدرالسابق – ص ٣١.

(٤) و(٥) وثيقة من الخارجية الامريكية بتاريخ ٨ يناير ١٩٦٥ عن «العلاقات بين القيادات والتيارات السياسية الرئيسية فى الجمهورية العربية المتحدة» – النسخة رقم ٧١ الخاصة بالسفارة الامريكية فى طهران، وقد ضمت الوثيقة معلومات عن على صبرى وعبد الحكيم عامر وعبد اللطيف البغدادى وزكريا محيى الدين، وهى من ٣ صفحات وتحمل رقم ٦٩٠٧ – س. ايه.

(٦) وثيقة من المخابرات المركزية بعنوان «تقرير عن حياة أشرف عبداللطيف غربال السفير المصرى فى الولايات المتحدة، وهى تحمل خاتم السفارة الامريكية فى طهران بتاريخ ١٩٧٣/١٢/١٧، وهو تاريخ وصول صورة منها إلى طهران، اما تاريخ اعدادها فهو ١٩٧٣/١١/٢٣ وهى مكونة من ٧ صفحات، وتضم صورة فوتوغرافية للسفير المصرى وصورة اخرى لزوجته السيدة أمل أحمد أمير التى تصفها المخابرات المركزية بأنها «سيدة جذابة جداً ولاترتاح للامريكيين على عكس زوجها».

(٧) و(٨) بوب وود ورد – المصدر السابق ص ١٦٨، وص ٣٥٢.

(٩) الوثيقة صادرة من وزارة الخارجية فى واشنطن إلى السفارة الامريكية فى طهران، وبتاريخ ١٩٧٩/١/٢٥ وبعنوان: «السادات ووضع الشاه والوضع الإيرانى» وهى مكونة من ٣ صفحات وسرية.

(١٠) وثيقة رقم ٣٢٥٩ – طهران صادرة من السفارة الامريكية فى طهران إلى الخارجية الامريكية فى واشنطن بعنوان: «ردود الفعل الإيرانية تجاه المعاهدة المصرية الإسرائيلية» وهى من ٦ بنود وصفحة واحدة.

٦ المخابرات الأمريكية والجماعات الإسلامية !

■ فى يناير ١٩٧٩ نشرت صحيفة «الأهرام».. القاهرية شبه الرسمية.. خبرا أقام الدنيا ولم يقعدها.. فرض على أطراف عديدة الكذب والتنصل والانكار.. منها رئيس الدولة.. أنور السادات.. ورئيس الحكومة.. ممدوح سالم.. والسفارة الأمريكية فى القاهرة..

كان مصدر الخبر.. الذى نشرته «الأهرام» صحيفة أمريكية، وثيقة الصلة بالمخابرات المركزية هى «واشنطن بوست».. التى فجرت فضيحة «ووترجيت». اما ملخص الخبر فهو: أن المخابرات المركزية تلقت تكليفاً من د. برجينسكى مستشار الرئيس الأمريكى لشئون الأمن القومى، بتحضير وإعداد دراسة شاملة حول الحركات الإسلامية فى جميع أنحاء العالم العربى.. وأن المخابرات المركزية ستعتمد فى هذه الدراسة على مصادر بشرية تنتمى إلى هذه الحركات.. وذلك حتى تعرف الإدارة الأمريكية أفضل الأساليب للتعامل معها حتى لا تتكرر مفاجأة الثورة الإسلامية فى إيران.

ومع أن «الاهرام» لم تبرز الخبر.. ولم تفرط فى نشر التفاصيل التى نشرتها «واشنطن بوست».. فإن الجماعات الأصولية فى مصر، تلقت الخبر، وعلقت عليه فى منشوراتها السرية.. واتهمت الحكومة المصرية بالتواطؤ مع المخابرات الأمريكية للتخلص منها.. «ومن كل ما يمت للإسلام النقى. الحقيقى بصلة».

فى ذلك الوقت كانت العلاقة بين السادات والجماعات الأصولية قد وصلت إلى طريق مسدود.. إلى نقطة اللاعودة.. وكان العنف المتبادل بينهما هو اللغة الوحيدة، المتاحة للتفاهم.. ومن ثم جاء هذا الخبر ليصب مزيداً من الوقود على النيران المشتعلة.. فكان لابد من إطفاء الحريق، أو على الأقل تهدئة ألسنة اللهب.. فسارع الجميع بتكذيب الخبر.

«الأهرام» والحكومة ورئاسة الجمهورية والسفارة الأمريكية.. وكما يحدث عادة فى مثل هذه الأزمات، حملت الصحافة المصرية الوزر، وتلقت.. فى صمت.. تهمة عدم تحرى الدقة، وإثارة البلبلة، وتحريض الخواطر.

والحقيقة أن الخبر صحيح ولا حرف واحد فيه غير دقيق.. إحدى الوثائق الأمريكية.. التى استولى عليها الطلبة فى طهران.. تؤكد ذلك.. الوثيقة سرية.. تتكون من خمس صفحات.. وصادرة من السفارة الأمريكية فى القاهرة إلى وزراء الخارجية فى واشنطن.. بتاريخ ٢٣ يناير ١٩٧٩ ورقمها «الكودى» ١٤٢٩، وعنوان موضوعها: تورط مصر فى التقارير التى طلبتها المخابرات المركزية لدراسة الحركات الإسلامية».

وفى الوثيقة.. بالنص: «التقطت الأهرام رواية واشنطن بوست بأن المخابرات المركزية كلُفت بتحضير دراسة شاملة عن الحركات الإسلامية فى العالم العربى(١) وفيها. «أن الأهرام كشف طلب د. برجينسكى للمخابرات المركزية بتحضير الدراسة»(٢) وفيها «أن الذى نشر الخبر أصلاً فى واشنطن بوست مندوبها فى الكونجرس هوجلاند.. وقد حصل عليه من لجنة العلاقات الخارجية فى الكونجرس، التى كانت قد عرفت به من لجنة المخابرات فى مجلس الشيوخ الأمريكى».

وهوجلاند.. هو جيم هوجلاند.. الذى تسبب فيما بعد فى اثارة أزمة حادة فى العلاقات المصرية الأمريكية، عندما نشر فى شتاء ١٩٩٤، بعد حوالى ١٥ سنة على هذه الأزمة – مقالاً فى الصحيفة نفسها بعنوان «مصر صديق لواشنطن لا يحق له التعامل مع ليبيا» أتهم فيه مصر بخرق الحصار الذى فُرض على ليبيا بسبب اتهامها فى قضية لوكيربى.. وهى قضية تفجير رحلة «بان اميركان» رقم ١٠٣ فى ديسمبر ١٩٨٨، والتى راح ضحيتها ١٨٩ راكباً، وطالب المقال بسحب المعونة الأمريكية «حوالى ٢ مليار دولار سنوياً» وبسحب المساندة السياسية لها فى مواجهة جماعات العنف الإسلامية. (٣)

وقد عمل هوجلاند مراسلاً للواشنطن بوست فى بيروت والقاهرة، ويعد من أهم كتابها، وكاد أن يتولى رئاسة تحريرها خلفا لبن برادى.. ولعل اهميته هى التى ضاعفت من حجم ردود الفعل على الخبر الذى نشره عن دراسة المخابرات المركزية حول الجماعات الإسلامية.. وبإفتضاح الأمر، وجد جميع الأطراف أن الوقت غير مناسب للقيام بهذه الدراسة، الذى يلزم القيام بها درجة كبيرة من الحيطة والسرية.

وحسب الوثيقة الأمريكية – المشار إليها – فإن المخابرات المركزية – ظلت مترددة عدة سنوات فى القيام بهذه الدراسة، لان موضوعها «حساس جداً بالنسبة لمصر».. بل «وخطر

أيضاً».. وخطورته فى أن كشفه يضع علاقة المخابرات المركزية مع نظام السادات فى موضع المجازفة.. وهو ما جعل الوثيقة تقول بالحرف: إنه «لا يوجد فى مصر قطاع أكثر تأثراً وحساسية من اليمين المسلم المتشدد»(٤) أو «دوائر المسلمين الأورثوذكس» على حد تعبير الوثيقة.. وقد استخدمت كلمة «الاورثوذكس» إشارة إلى أكثر المذاهب المسيحية تمسكاً بالأصولية.

وتصف الوثيقة اليمين المسلم المتشدد «بالحساسية والشك» أيضاً، بسبب اهتمامه بقضية القدس، فهو يتعاطف مع الفلسطينيين ويشعر بمرارة من إستمرار الأحتلال الإسرائيلى للضفة «الغربية» وقطاع غزة.. وبسبب عدم قدرته على القيام بأى عمل لمواجهة ذلك وهو ما يجعله يلقى باللوم على الولايات المتحدة فى المقالات الواردة فى مجلتى «الدعوة» و«الاعتصام» وفى خطب «الجمعة».. ومن الضرورى القيام بأعمال إيجابية لإيجاد تعاطف وفهم للإسلام ومواجهة عدم الثقة لدى المسلمين المصريين تجاه دوافعنا».

وقد كان نشر خبر الدراسة ضربة – ليست للمخابرات المركزية – فحسب وإنما للسفارة الأمريكية فى القاهرة أيضاً.. فقد تعطلت جهود كانت مبذولة من قبل السفارة «لاقامة حوار بناء مع عناصر اليمين الدينى «المتشدد» هذه المرة.. والسبب انها لم تقصد الجماعات التى تستخدم العنف مثل «الجهاد» أو «التكفير والهجرة» أو حزب التحرير الإسلامى.. وانما قصدت «الإخوان المسلمين» التى «لا تزال مؤثرة فى مصر رغم تعرضها لعمليات اجهاض متتالية ورغم ما تعانيه من مشاكل على مستوى القيادة».

وقد بدأ الحوار «البناء» بين الإخوان والسفارة فى منتصف ١٩٧٧، وبدأه المسئول السياسى «فوستر» مع عمر التلمسانى – المرشد العام ورئيس تحرير «الدعوة» – بعد أن رفض الإخوان ذلك كثيراً من قبل.

ومن الواضح أن السادات كان على علم بهذا «الحوار».. وفى الوثيقة.. أن السادات نصح الطرف الأمريكى بتوخى الحظر.. «لان اليمين المسلم أكثر يقظة اليوم من أى وقت مضى فيما يتعلق بهذا النوع من الدراسات».. واقترح السادات: أن تستند هذه الدراسة إلى «مصادر مصرية حكومية».

وما يؤكد أن السادات كان على علم بهذه الأتصالات هو أنه قال فى ١٥ ابريل ١٩٧٩ «بيتقال لولادنا النهاردة إن امريكا باعتة لحكومة ممدوح سالم تقول لها أوعى الحركات الدينية.. خلصى على الحركات الدينية... ما هم عايزين التلمسانى».

كان السادات يتحدث فى اجتماع مع رؤساء وأساتذة جامعتى اسيوط والمنيا، ويرد

على ما كتبه عمر التلمسانى فى مجلة «الدعوة» عن خطة أمريكية للقضاء على الجماعات الدينية.

ولم يفهم الذين سمعوا السادات أنه كان يقصد «الأمريكان» بـ«هم» «اللى عايزين التلمسانى».. لكن الآن.. وبعد هذه الوثيقة – يمكن أن نفهم بالأتصالات الأمريكية مع عمر التلمسانى.. وانه كان يخشى أن يختار «الأمريكان» التلمسانى ليكون بديلاً للسادات.. «ماهم عايزين التلمسانى»!

وفى أول اتصال بين السفارة الأمريكية وقيادات الإخوان، أعرب عمر التلمسانى ورفاقه «عن رضاهم بهذه الاتصالات من خلال مناقشاتهم الصريحة مع مسئولى السفارة، وأبدوا عدم خوفهم منا بالرغم من أنها جزء من تغطية المخابرات المركزية، لتحضير برنامجها المتعلق بدراسة الحركات الإسلامية»(٥)

وعلى لسان المسئولين السياسيين فى السفارة تستطرد الوثيقة: أن هذه الإتصالات «يجب أن تعزز بعناية وبشكل سرى».. والنصيحة موجهة إلى الخارجية الأمريكية، والمخابرات المركزية.. فهذه الاتصالات السرية تجعلهم يقتربون من «الهدف».. وهو معرفة ما يجرى فى الكواليس».. ورسم «صورة واضحة لأوضاع التيار الدينى الداخلية» فى مصر.

وتضع الوثيقة الأمريكية – التى تتسم بخطورة – بعض ملامح هذه الصورة.. بدون مكياج، على النحو التالى:

١– ان الأصوليين المسلمين ينظرون بشك للولايات المتحدة.

٢– ويتعاطف الإخوان المسلمون كثيراً مع الفلسطنيين بسبب ما تفعله إسرائيل فى القدس، والضفة الغربية وقطاع غزة.

٣– وهذا ما جعل اليمين المسلم يوجه الأنتقادات للسادات بعد توقيعه لمعاهدة كامب ديفيد مع العدو الصهيونى.. وفشله فى الحصول على تعهد باستعادة القدس الشرقية، حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة.. بل إن إسرائيل بعد معاهدة الصلح ازدادت تشدداً وأعلنت القدس عاصمة أبدية موحدة للدولة اليهودية.. ومن المتوقع اثارة حفيظة اليمين المسلم كلما قامت إسرائيل بالاعتداء على المقدسات الإسلامية فى الأرض المحتلة.

٤– ويشعر المسلمون العرب بالفشل فى القيام بأى عمل ضد الإحتلال الإسرائيلى للإراضى الفلسطينية، وأعماله التعسفية، وهو ما يجعلهم يوجهون اللوم للولايات المتحدة الأمريكية التى يعتبرها المسلمون الأصوليون مسئولة عن هذا الاحتلال.

وبعد تدهور الوضع فى إيران زاد عداء المسلمين فى مصر للولايات المتحدة.

٥– إن الديناميكية السياسية للشيعة والسنة مختلفة بالطبيعة المذهبية.. ولكنها والآن متحدة بالنسبة للشك فى أهداف الولايات المتحدة.

٦– وقد تجاوز العداء للولايات المتحدة تعليقات ومقالات مجلتى «الدعوة» و«الاعتصام» وخطب الجمعة فى بعض المساجد الأهلية إلى انتقادات من بعض كبار الوزراء الذين عبروا عن مخاوفهم من نوايا ودوافع الولايات المتحدة.

٧– وقد أصبح الوضع أكثر سوءا عندما حرك المعسكر السوفيتى، واليسار المصرى (خالد محى الدين) مثلاً» وأعاد اتصالاته مع اليمين المسلم: الإخوان المسلمين على وجه الخصوص بهدف استغلال الوضع.

٨– ولاجدال أن تقارير المخابرات المركزية الأمريكية حول الحركات الإسلامية يمكن أن تؤدى إلى مزيد من الأضطراب والتردى.

٩– لكن.. ينبغى وضع المسلمين المتشددين فى مصر تحت المراقبة لانهم يشكلون أحد مفاتيح الاستقرار السياسى فى المستقبل.

١٠– ولابد أن تلين واشنطن موقفها تجاه المسلمين الأصوليين فى مصر.

١١– ومن المبالغ فيه الحديث عن بدائية هذه الجماعات.

١٢– ولابد أن نعزز جهودنا لتطوير الحوار مع قيادات الإخوان المسلمين، وهذا أفضل من العمل بأساليب المخابرات.. مع أن دراسة المخابرات يمكن أن تكون ضرورة.

١٣– ولابد أن نحذر من أن الانتقادات الموجهة ضد السعودية من قبل أعضاء الكونجرس البارزين لا تنطبق على اليمين المسلم فى مصر. (٦)

بين السطور تكشف هذه الوثيقة، طبيعة الصراع المزمن بين الخارجية الأمريكية، والمخابرات المركزية.. أو بين السفارة والوكالة.. أو بين الدبلوماسية، والأعمال الخفية.. وهذا الصراع ليس جديداً.. ولن يتوقف مهما كانت النتائج.. فرجال المخابرات يؤمنون بانه لا أجهزة قوية بدون أعمال سرية.. ويقولون أن ترك هذه الأعمال يحولهم إلى «وكالة صغيرة فى زاوية بعيدة يعلوها الغبار».. أما الدبلوماسيون فى الخارجية الأمريكية فيصفون رجال المخابرات بالرجال «الذين يعيشون وسط الأحراش».. ويرون فى تصرفاتهم «غطرسة» و«جليطة» تنتهى دائماً بالخيبة.. والفشل.. وهو فشل سببه انهم ينفذون مجموعة محددة من الخطط الجاهزة دون أن يدرسوا الواقع.. دون أن يضعوه فى

حسبانهم.. ثم .. إن تقديراتهم دائما ميتة.. أى لا تهتم بالمؤثرات النفسية التى تحرك الشعوب.. لذلك لا تختلف نظرتهم كثيراً إلى رئيس كان منفلت العيار مثل الرئيس الأوغندى الأسبق عيدى أمين.. وزعيم دينى يعرف كيف يُشعل الثورة مثل آية الله خومينى.

ويصعب على الأمريكان - الدبلوماسيين ورجال المخابرات - فهم الفروق المذهبية والعرقية الاقليمية بين الجماعات والفرق والتيارات الإسلامية المختلفة. ومن ثم لا يفرقون بين الوهابية فى مجتمع نفطى ثرى مثل السعودية، والسنية فى مجتمع زراعى متواضع مثل مصر.. ولا بين الشيعة فى إيران والشيعة فى اليمن.. ولا بين الدروز فى لبنان والدروز فى إسرائيل.. وقد وضعوا كل السوائل والزيوت فى زجاجة واحدة.

لذلك.. لم يكن مثيراً للدهشة أن يختفى السادات كما اختفى الشاه.. وأن تفشل المخابرات المركزية فى مصر - بعد حوالى سنتين - نفس فشلها فى إيران.. وأن ترتطم فى القاهرة بنفس الشاحنة التى صدمتها فى طهران.

■ ■ ■

هوامش

(١) البند ٢ - ص أولى من الوثيقة

(٢) كنت أول من ترجم مقال هوجلاند وعلق عليه - انظر روز اليوسف عدد ١٩٩٤/١١/٢١ وقد اثار ما كتبت ردود فعل صحفية وسياسية على كافة المستويات والدوائر.. وقد وصفت فى تعليقى على مقال هوجلاند.. الولايات المتحدة بأنها مصابة بعمى العرب.. وهو اخطر من عمى الألوان.. وقلت أنها لم تر العرب ولا تحسب حسابهم حتى ولو كانوا اصدقاء.. وعندما تفقد السياسة الامريكية التميز فإنها تتصرف مثل سمكة قرش فتنهش اللحم وتسيل الدم وتبتلع كل جسم يتحرك امامها دون ان تكون جائعة».

(٣) بند ٣ ص ٢ من الوثيقة

(٤) بند ٤ ص ٢ من الوثيقة.. وعما قاله السادات عن التلمسانى فى جامعة اسيوط راجع حسنين كروم: «الاخوان المسلمون والصلح مع إسرائيل» الناشر. نادركو القاهرة ١٩٨٥ ص ٤٢.

(٥) بند ٤ (أ) ص ٢ من الوثيقة.

(٦) البنود ٥ ،٦، ٨ ، ٩ - ص ٣ ، ٤ ، ٥ من الوثيقة.

٧ إحتلال بيت الله الحرام

■ القدس هى «وجع قلب» المسلمين المزمن.. «زهرة المدائن» .. المخطوفة .. مركز المعراج للسماء المهدد بالتحول إلى «بيت رهونات» يهودى.. أو إلى «ديسكوتيك» صاخب بالصراخ والألم، أو إلى «حائط مبكى» للمسلمين.

وقد بدأ الوجع بعد أن غرزت الأمم المتحدة «سكين» التقسيم فى مدينة الله، وراحت تشطرها نصفين.. وكأنها كعكة لا مدينة مقدسة.. ثم اصبح الوجع لا يطاق بعد أن سيطرت عليها احذية جنود إسرائيل السوداء الثقيلة فى يونيو ١٩٦٧.

فى ذلك الوقت فاض الدمع على أغلى المدن، واكثرها جمالا، واقلها حظا.. ولكن الامل فى انقاذها ظل حاضرا.. ولم يخفت الا بعد معاهدة «كامب ديفيد».. التى حولتها إلى بند متواضع فى ذيل المفاوضات.. لايساوى اكثر من نصف دولار، ثم الورق والحبر الذى كتبت به الرسائل المتبادلة بشأنها بين الرئيس الامريكى جيمى كارتر والطرف المصرى فى المفاوضات.. فباعدوا بالصلح بيننا وبين القدس.

على انه قبل وبعد «كامب ديفيد» كانت القدس «المغص الكلوى» الذى يؤلم السعوديين فى علاقتهم الحميمة بالامريكيين.. فالملك فيصل كان يتمنى ان يصلى فى المسجد الاقصى، وبجوار قبة الصخرة.. حيث عرج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى السماء.. لكن امنيته لم تتحقق.. وقتل فى قصره بيد احد افراد عائلته.

وحاول خليفته الملك خالد أن يقاوم مخطط كامب ديفيد.. لكن الامريكيين غضبوا.. وحاولوا اقناعة بعدم جدوى المقاومة.. دون ان يتفهموا مبررات بلاده.. وهى أن السعودية مركز الكون الإسلامى.. فيها الكعبة، بيت الله الحرام، ومسجد الرسول وقبره.. وإليها – حيث القبلة – يتوجه ٨٠٠ مليون مسلم فى صلواتهم الخمس.. وأن شرعية الحكم فيها

تستند إلى الدفاع عن المقدسات الإسلامية.. ومنها القدس.

لم يستوعب الأمريكيون التبرير السعودى لانهم لايستوعبون مثل هذه الامور التى تدخل فى المشاعر وتخرج من المصالح.. فشلوا فى أن يحسوا بأن القدس هى مدينة الله.. وفى أن يسمعوا آياته من حجارتها.. وأن يروا معجزاته فى طرقها.. وأن يلمسوا وجوده فى قبابها.. ولم يصدقوا أن الثروة الروحية فيها أغلى من الثروة النفطية الموجودة فى العالم..

بدأت الأزمة السعودية الأمريكية فور توقيع كامب ديفيد.. شعر السعوديون بأن مصر «خرقت» وانها «خانت ثقتهم».. وهذه الاوصاف مذكورة بالنص فى احدى وثائق الخارجية الأمريكية. (١)

كان موضوع علاقات مصر بالدول العربية وخاصة السعودية بعد كامب ديفيد هو أهم وأخطر موضوع يشغل الخارجية الامريكية فى ذلك الوقت.. فواشنطن لا تريد عقاب مصر لانها صالحت إسرائيل.. ولا تريد أن تعوض مصر عن الأموال العربية التى فقدتها بهذا الصلح.. ثم انها لا تريد أن تقتصر التسوية السلمية على مصر فقط.. إن مصر المفتاح ولكنها ليست الصندوق.. وإسرائيل حصلت على المفتاح والولايات المتحدة تريد ان تقدم لها الصندوق.. والصندوق هو العالم العربى.. بدول المواجهة.. ودول الدعم.

كانت السعودية من أهم الدول التى ازعجت الولايات المتحدة بمعارضه كامب ديفيد.. والسبب انها قوة اقليمية مؤثرة بحكم الجوار فى دول الخليج.. ومؤثرة بحكم الثروة فى دول عربية فقيرة.. ومؤثرة بحكم المقدسات فى العالم الإسلامى كله.

فى تلك الفترة أُستخدم كل ما فى القاموس من شتائم ليسب النظم العربية التى رفضت «سلامة» مع إسرائيل.. وصف العراق بالبلطجة والدموية.. وسوريا بالخيانة... والسعودية بالفساد.. وفى وثيقة للخارجية الامريكية بتاريخ ٥ مايو ١٩٧٩: أن السعوديين لم يردوا مباشرة على التهم والشتائم التى وجهها السادات ولكن وسائل الاعلام السعودية وصفته بالكذب.. وتضيف الوثيقة:

«ان السعوديين غير مرتاحين لمعاهدة السلام، ومعارضتهم لبعض مطالب المتشددين العرب.. ارتكزت على اختلاف فى الاسلوب وليس فى المبدأ». (٢)

وفى وثيقة اخرى:

إن السادات تابع انتقاداته لاعضاء المؤتمر الإسلامى الذين صوتوا لصالح تعليق عضوية مصر.. «وقال بالحرف الواحد: إن المغرب لعب دورا وضيعاً واضاف: إن تعليق عضوية مصر هو جزء من خطة سعودية وتابع السادات قوله: بأن تعليق عضوية مصر ليس

بذلك الأمر المهم ولا قيمة له.

وتضيف الوثيقة الصادرة من الخارجية الامريكية بتاريخ ١٢ مايو ١٩٧٩: أن «كلام السادات موجه إلى الشعب المصرى الذى يروقه حاليا التهجم على الاغنياء العرب فى شبه الجزيرة العربية.. ولكن المفكرين المصريين سيتساءلون مع مرور الوقت حول عزلة بلدهم عن الدول العربية التى لها معهم علاقات مشتركة على الصعيدين الثقافى الدينى والسياسى وسيزداد هذا التساؤل حدة عندما يدرك المفكرون المصريون ما تعانيه مصر فى عزلتها والعقوبات المفروضة عليها وخاصة إذا لم تستفد مصر فى معاهدتها السلمية مع إسرائيل. (٣)

وفى وثيقة اضافية بتاريخ ٣١ يوليو ١٩٧٩: إن السادات جدد انتقاداته للسعودية فى خطاب القاه يوم ٢٦ يوليو للمرة الأولى بعد مرور ثلاثة اشهر من انتقاده السابق لها، وقال إن عرب الخليج اصابهم الخوف من الحوادث التى تقع فى إيران، وامتدح السادات أمير الكويت الراحل والملك فيصل وقال:

إن التحالف السعودى العراقى لن يستمر لانه مبنى على سراب.

وعلقت الخارجية الامريكية على العبارة الاخيرة للسادات قائلة: «إنه تأكيد ادبى من الرئيس المصرى إذا لم نقل أنه تأكيد واقعى». (٤)

كان اشد مايؤلم السادات هو أن السعوديين سحبوا الدعم المالى لمصر وهو ما ازعج الامريكيين ايضاً.. وقد بدأت متاعب مصر الاقتصادية تشتد بعد شهر واحد من اعلان عقوبات قمة بغداد.. وأصبح من الصعب عليها تنفيذ برنامج التوسع العسكرى الذى وضعته قبل ٣ سنوات.. وتقول وثيقة امريكية بتاريخ ٢ يوليو ١٩٧٩ (وهى تقرير سرى يحمل رقم ١٣٠٩) إن وقف المساعدات المالية لمصر سيؤثر على قدرتها فى شراء اسلحة ومعدات عسكرية من اوروبا الغربية والولايات المتحدة.

وثمن هذه المعدات منذ سنة ١٩٧٦ يقدر بحوالى ٣,٥ بليون دولار، وعدم توافر الاموال العربية يمكن ان يؤثر بنسبة ٥٠٪ على قدرة مصر على شراء اسلحة تم الاتفاق عليها بموجب عقود مع الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا. (٥)

ويضيف التقرير السرى:

إن مصر مضطرة إلى اتخاذ «مجموعة من الاجراءات لزيادة الأموال اللازمة لتنفيذ العقود المبرمة مع الغرب.. منها الاقتراض التجارى.. وزيادة الأعباء على الشعب والتقليل من برنامج التحديث العسكرى».. وهو ما يهدد دعامة السادات داخل القوات المسلحة».

وهناك احتمال واحد فقط لتلبية متطلبات مصر من الاسلحة وهو تخفيض سعر

تكلفة الاسلحة الامريكية والاوروبية.. وصيانة الاسلحة السوفيتية الموجودة لديها.. مثل اصلاح مقاتلات الميج – ٢١ فى بريطانيا.. وقيام ايطاليا بتقديم قطع غيار الاجهزة الالكترونية لهذه الطائرات.. وقيام الولايات المتحدة بصيانة هياكل الغواصات السوفييتية»(٦)

باختصار.. لم تشأ الولايات المتحدة أن تعوض مصر عن الأموال العربية التى فقدتها بعد كامب ديفيد.. واظهرت عملية استطلاع الرأى العام هناك.. اجرتها فى مارس ١٩٧٩ مؤسسة هاريس وبعض شبكات التليفزيون القوية.. «مُعارضة شديدة لزيادة الدعم الاقتصادى والعسكرى لمصر وإسرائيل» بنسبة ٦٥٪ على الاقل وهى النسبة التى ابدت «تشاؤمها» من حدوث سلام دائم بين مصر وإسرائيل.. وقال هؤلاء: ان الولايات المتحدة ستقدم هذا الدعم لتسليح «محاربى المستقبل». وانها «يمكن ان تتورط معهم فى صدامات حتمية الوقوع». (٧)

ومن ناحية اخرى سعت الولايات المتحدة إلى أن يدفع السعوديون لمصر نيابة عنها ثمن «كامب ديفيد».. لكن المشكلة كانت كيف يدفع السعوديون ثمنا لما يرفضونه؟

لم ترد السعودية رسميا على انتقادات السادات.. لكنها راحت تستخدم نفوذها المالى.. والنفطى فى الضغط على دول كثيرة فى العالم حتى لا تؤيد معاهدة كامب ديفيد.. وإلى جانب نجاحها فى تعليق عضوية مصر فى المؤتمر الإسلامى اشاروا إلى تعليق عضويتها فى الجامعة العربية.. وتحركوا لطرد ٦٠٠ ألف مصرى يعملون فى مؤسساتها، ويحولون لبلادهم ١,٧٥ مليار دولار سنويا.. وفى منتصف مايو ١٩٧٩ أعلن وزير الدفاع السعودى سلطان بن عبدالعزيز حل الهيئة العربية للتصنيع الحربى التى تشارك فيها السعودية ودول الخليج ومصر برأس مال قدره ٢٦٠ مليون دولار لكل دولة.

ولمواجهة التصرفات السعودية المتلاحقة سعى الامريكيون للضغوط الدبلوماسية.. وكان بطل هذه الضغوط سفير امريكا الاسبق فى القاهرة «هيرمان ايلتس» وزميله فى الخارجية الامريكية «روبرت شتراوس».. وحسب الوثائق غير المنشورة، كانت مطالب واشنطن واضحة ومحددة وهى:

١ – وقف الحملات المتبادلة بين السعودية ومصر.

٢ – عدم سحب الودائع السعودية فى البنوك المصرية.

٣ – ترك القطاع الخاص السعوى يستثمر امواله فى مصر.

٤ – ان تكف السعودية فورا عن استخدام نفوذها المالى فى الدول الافريقية والاسيوية وبعض دول امريكا اللاتينية فى الضغط على هذه الدول لكى لا تؤيد سياسات التسوية التى تقودها الولايات المتحدة فى الشرق الاوسط.

فى تلك الفترة التقى شتراوس بولى العهد السعودى الامير فهد بن عبدالعزيز، وكان اللقاء عاصفا وقال فهد:

– نحن مستعدون لقبول مطالب امريكا جملة وتفصيلا ولكن بشرط..

– ما هو؟

– اقصاء السادات عن حكم مصر وبيجن عن حكم إسرائيل!

وامام دهشة شتراوس راح فهد يشرح له طبيعة العرب الانفعالية والشخصية التى تجعلهم يقبلون سياسة ما من شخص ما ولا يقبلونها من شخص اخر.. والمعنى أن ازاحة السادات سيزيل الثأر الشخصى بينه وبين العرب.. وانه سيذهب حاملا كل الاوزار.. وهو ما يجعل من السهل عليهم الدخول فى طابور التسوية.

ولكن شتراوس قال:

إن اقصاء بيجن عن الحكم فى إسرائيل أمر ممكن.. التركيبة السياسية فى إسرائيل تسمح بذلك.. واللعبة الديمقراطية هناك تتيح التدخل فى الحكم.. اما اقصاء السادات عن الحكم فى مصر فأمر غير ممكن لأكثر من سبب.

– ما هذه الأسباب؟

– أن الرئيس السادات بوصفه رئيس اكبر دولة عربية – تقرر مصير الحرب قبل السلام – قد اصبح عضوا فعالا فى المجتمع الدولى والمجتمع الامريكى.. ثم أنه قام بمبادرة شجاعة والتزم بكافة خطوات السلام واقراره فى المنطقة، ويساعد الولايات المتحدة فى سياسة الانفراج الدولى.. ثم أنه يتمتع بشعبية لا بأس بها فى مصر.. اما القوى السياسية المعارضة له فتأثيرها محدود جداً.. إنه اقوى الضعفاء فى العالم العربى.. وهو يريد الآن أن يعيد بناء نظام بلاده الاقتصادى المنهار على اسس علمية فى ظل خطط السلام التى التزم بها.

ثم.. اضاف شتراوس:

اننى أنقل إليكم موقف الولايات المتحدة الذى شارك فى وضعه وزير الخارجية سايروس فانس فأرجو أن تستجيبوا لما نريد.. وسوف نرسل لكم السفير هيرمان ايلتس قبل مؤتمر القمة العربية القادم فى تونس، فى نوفمبر المقبل لمزيد من التداول.

وكما بدأ اللقاء انتهى.. اى دون تغيير فى الموقف السعودى.

وهو ما جعل واشنطن تقرر أن الخطوة القادمة للضغوط الدبلوماسية ستكون مصحوبة بالعمل الخفى.. وهكذا أُضيء الضوء الاخضر امام وكالة المخابرات المركزية.. للتحرك.

كان كل شيء يتحرك تحت السطح والأزمة والضغوط والمؤامرات السرية، اما فوق السطح فكان السعوديون يحاولون النجاة.

فى وثيقة للمخابرات الامريكية: أن الملك خالد اعترف بوجود بعض الخلافات بين السعودية وامريكا حول عملية السلام.. وقال: إن العلاقات بين البلدين متينة ومرتكزة على أسس الصداقة والتعاون والمصالح المشتركة والمتبادلة.. لكنه «كذب التقارير التى تتحدث عن ممارسة امريكا الضغوط على السعودية لتغيير موقفها من المعاهدة او لتهدئة المقاطعة ضد مصر».

ثم اضاف الملك: «أن بلاده تعتبر الصهيونية والشيوعية والامبريالية تحالفا ثلاثيا معاديا للعرب وحقوق المسلمين وضد طموحاتهم».. وكرر: أنه لن يكون هناك سلام ولا استقرار فى المنطقة بدون اعادة الحقوق الفلسطينية واستعادة جميع الاراضى المحتلة والقدس.. وانتقد اخيرا «توقعات التدخل العسكرى فى شبه الجزيرة العربية.. وقال إن زمن استخدام القوة لحماية المصالح قد انتهى إلى الابد». (٨)

كان ذلك فى شهر يوليو ١٩٧٩، وبعد ما قاله الملك فهد بساعات.. قرر الديوان الملكى السعودى فجأة زيادة إنتاج النفط، وبرر ذلك بأنه «لمصلحة الاقتصاد العالمى».. والحقيقة ان القرار كان رداً على ماقاله العقيد معمر القذافى فى الكويت قبل ٢٤ ساعة فقط.. كان الرئيس الليبى قد وصف إيقاف تصدير النفط بأنه «حق شرعى».. ووصف السفارة الأمريكية فى القاهرة بانها بؤرة الشر.. ورد السفارة: إن قوة التهديد فى خطاب القذافى يشجعه على متابعة جهوده لوضع الولايات المتحدة خارج ميزان السيطرة فى الشرق الأوسط. (٩).. ومن ثم جاء القرار السعودى المضاد لخطب الود الامريكى من جديد بعد ان عكرته توترات مابعد كامب ديفيد.

تصور السعوديون أن النفط فقط هو ما تريده واشنطن منها.. ولكن هذا التصور – الذى يتجاهل العشق الامريكى لإسرائيل – كان خاطئا –.. ومن ثم لم يغير قرار زيادة إنتاج النفط من خطة المخابرات المركزية التى بدأت تنفيذها على مساحات كبيرة فى العالم العربى وبصورة مكثفة لم تحدث من قبل.

كانت الخطة السرية التى نُفذت فى ذلك الوقت تعتمد على فتح ثغرات فى مناطق الضعف فى الدول العربية التى رفضت التسوية.. وتضمنت الخطة اثارة الاضطرابات والمشاكل الداخلية، والنعرات الطائفية والعرقية فيها.. وكان الهدف أن تنشغل هذه الدول بأمورها الذاتية.. وتكف عن النظر خارج حدودها إلى مشكلة المنطقة المزمنة.. مشكلة الصراع العربى الإسرائيلى.

يضاف إلى ذلك: أن تشعر هذه الدول بأن نظم حكمها غير مستقرة.. «على كف عفريت».. وأن من الاولى أن تحمى نفسها قبل أن تفكر فى غيرها.. ثم والاهم.. تؤمن بأنها اضعف من أن تقاوم تيار التسوية.. والافضل أن تسبح معه.

زادت حدة حرب الصحراء بين المغرب والجزائر.. طفت على السطح بين تونس وليبيا مشكلة «الجوف».. واجهت تونس اشتباكات بين الحكومة والعمال.. وفى الاردن تحرك الطلاب ضد الملك حسين. وكان تحركهم انعكاسا لصراع تفجر داخل السلطة الاردنية، ولوحت واشنطن بقطع المساعدات لارهاب الملك حسين حتى لا يتمادى فى رفضه لمعاهدة كامب ديفيد.

وبتشجيع من الإدارة الامريكية توطت سوريا أكثر فى لبنان.. وتحركت القوى المعارضة الدينية والطائفية.. وعاشت سوريا طوال عام ١٩٧٩ فى مشاكل امنية مخيفة.. شلت النظام عن أى دور خارجى، وبات يدافع عن نفسه واستعان بمنظمة التحرير الفلسطينية.

وفى الكويت وقعت اضطرابات فى الجامعة ونُفخ فى الشيعة الذين انضموا للمعارضة الاصولية ولم يعودوا قوة خاملة كسولة.. وفى العراق اصبح النظام اكثر اعتدالا بعد أن تفجر صراع فى داخله فجأه بين اقطاب حزب «البعث» الحاكم. وأدى ذلك إلى سلسلة من الاعدامات تناولت معظم شركاء صدام حسين فى السلطة.. وقبل أن يعود العراق إلى درجة الاستقرار التى تسمح له باستعادة دوره العربى تورط فى حرب طويلة مع إيران.

أما السعودية فكانت الضربة التى وجهت إليها اشد.. وكانت فى المساحة التى تتواجد فيها شرعية الحكم.. فى بيت الله الحرام.

فى تمام الساعة الرابعة والنصف من فجر يوم الثلاثاء ٢٠ نوفمبر ١٩٧٩، الأول من محرم ١٤٠٠ هجرية بدأت وقائع حادث اقتحام واحتلال المسجد الحرام فى مكة.. والاعتصام فيه لمدة ٢٢ يوما.. كان النظام السعودى خلالها فى محنة يصعب تصورها الآن.

فى هذا الوقت – الذى نميز فيه الخيط الابيض من الخيط الاسود – يكون الطقس فى مكة باردا.. فيسهل التبرك بالحجر الاسود.. فالزحام خفيف، والاحساس بالإيمان يزيد.. لكن هذا اليوم لم يكن يوما عاديا.. ففيه يحتفل المسلمون برأس السنة الهجرية.. وفى هذا اليوم بالذات كانوا يحتفلون بميلاد قرن هجرى جديد.

وفى هذا اليوم ايضاً يبدأ الشيعة ايامهم العشرة المقدسة التى يستعدون فيها لاحياء ذكرى يوم «عاشوراء».. اليوم الذى استشهد فيه الحسين بن على حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم وسبطه على يد انصار يزيد بن معاوية فى كربلاء.. وهم يحيون هذه الذكرى باقامة مجالس «العزاء».. وفى بعض الدول الإسلامية يخرج الشيعة فى مواكب

«الندم» ليضربوا انفسهم بالسيوف والجنازير والحجارة.. نوعاً من العقاب البدنى القاسى لانهم تركوا «سيد الشهداء» يموت غدرا دون أن يتدخلوا فى انقاذه.. وفى دولة مثل لبنان تمثل الشيعة ماجرى (فى سنة ٦٠ هجرية) على مسرح مكشوف يبكى فيه الجمهور، وهم يطلبون من الحسين رضى الله عنه الرحمة، ومن الله سبحانه وتعالى المغفرة.

فى هذا اليوم المقدس عند جميع المسلمين - والذى يبدأ بشهر «المحرم» المحرم فيه القتال - اندفعت حملة من السيارات فى اتجاه المسجد الحرام.. وعند اقرب مكان من المسجد نزل من السيارات عشرات من الرجال والنساء والاطفال يزيد عددهم على ٢٠٠٠ شخص، ودخلوا المسجد وهم يهتفون «الله اكبر».. وخلال نصف ساعة كانوا فى بطن المسجد منضمين إلى المصلين الذين كانوا فى الدور الارضى خلف الشيخ محمد سبيل الذى كان امام ذلك اليوم.. ويسع الدور الارضى حوالى ٥٠ ألف مصلٍ وفيه ٩ ابواب مزدوجة.. ويخدم فيه حوالى ٢٠٠ حارس وخادم.. كان القليل منهم متواجد.

بمجرد أن انهى الشيخ «سبيل» الصلاة وقبل ان يصافح المصلون بعضهم البعض.. هب احد الرجال الذين اقتحموا المسجد من مكانه وهو يصيح: «المهدى».. «المهدى».. «المهدى» الذى سيحقق العدل فى الأرض.. المهدى هو أخى.. أخى أنا .. أنا اسمى جهيمان.. والمهدى المنتظر الذى سينظف المملكة من الفساد».

وقام «المهدى المنتظر» .. محمد بن عبدالله القحطانى.. وبينما كان يخطب فى المصلين كان اتباعه يسيطرون على المسجد.. الأبواب والنوافذ.. المنبر، ومكبرات الصوت، والقبو، والمنارات والشرفات.. وفى دقائق اصبح بيت الله الحرام - اكثر بقاع الارض ورعا - مختطفا.

وتحدث المهدى المنتظر عن علاماته.. وهى العلامات التى عليه أن يعلنها وقت ظهوره حتى لا يتهم بالدجل.. ومن العلامات التى اعلنها ان اسمه «محمد».. وانه جاء فى مطلع قرن هجرى جديد.. وانه سيزيل فساد الملوك، ويعيد العدل المفقود فى الارض.. وهذا بالضبط ما سبق أن قاله قبل ١٠٠ سنة هجرية المهدى الذى ظهر فى الخرطوم، وحاربه الجيش البريطانى بقيادة «جوردون» فى سنة ١٨٨٥.

ولم يكن المهدى الجديد - أو محمد القحطانى هو قائد المقتحمين، وان كان شيخهم وزعيمهم ومفكرهم ومعجزتهم.. اما قائد الاقتحام فكن جهيمان الذى قدم المهدى للمصلين.. وهو اسم سيلمع كثيرا فيما بعد.. وجهيمان.. هو جهيمان بن محمد بن صافى العتيبى.. وهو من أصل يمنى، ينتمى إلى قبلية «عتيبة» وهى قبيلة فقيرة، معدمة، ومسحوقة.. جذورها فى اليمن الجنوبية، وفروعها فى اليمن الشمالية وترتبط بالسعوديين

ارتباطا عشائريا.. وهو ارتباط سمح لعائلة جهيمان بالاقامة فى منطقة تسمى «العرجا» قرب الرياض.. ومع تدفق النفط اصبحت الاقامة اكثر استقرارا وإن لم تكن اكثر رفاهية.

وُلد جهيمان سنة ١٩٣٦، وتعلم القراءة والكتابة، وحفظ القرآن وانضم فى سنة ١٩٦٠ إلى الحرس الوطنى، وظل فى خدمته حتى ١٩٧٣.. ثم طُرد منه بسبب تطرفه الدينى، ولكن الصحف السعودية - الخاضعة للنظام تماما - قالت بعد الحادث: إن سبب الطرد شذوذه الجنسى وادمانه المخدارات والكحول. (١٠)

والحقيقة انه ابدى اهتماماً مبكراً بالمذهب الوهابى المتشدد، وانضم وعمره ١٧ سنة إلى جامعة إسلامية بالمدينة، وتتلمذ على يد الشيخ عبدالعزيز بن باز، مفتى البلاد، الذى افتى بأن الأرض غير كروية، وأن الإنسان يمكن أن يعاشر الجن.. وهو يرفض كل ما يأتى من الغرب ويعتبروه - مثل المتشددين - منبع الفساد.

انهم يرفضون كرة القدم، وصوت المرأة، والتصوير... وقد شن جهيمان من خلال الميكروفونات التى يصل صوتها إلى قلب مكة - حملة شديدة على وزير الاعلام الذى يسمح للنساء بالغناء فى التليفزيون.. وهاجم الاسرة المالكة.. وقال إن الامراء يشربون الخمر.. وضاعف هجومه على أمير مكة.. الأمير فواز بن عبدالعزير.. الذى يهوى الحب ويشرب الويسكى ويلعب القمار.. وتساءل جهيمان:

«كيف يكون مثل هذا الشخص مسئولا عن اشرف بقاع الارض..» .. وفيما بعد لم يعد فواز بن عبدالعزيز اميرا على مكة.

واثناء احتلال البيت الحرام.. اعلن جهيمان رفضه للحكم السعودى ووصفه بأنه غير شرعى وراح يدلل على ذلك.. واستنكر الفساد الاخلاقى والاجتماعى المنتشر - على حد قوله - بتساهل من الحكومة والامراء.. ثم حدد مطالب واهداف جماعته.. التى اطلقت على نفسها الاخوان - منذ الساعات الاولى للعملية وهى:

١- انهاء الحكم الملكى السعودى.

٢- قطع الروابط مع حكومات النصارى وخاصة الولايات المتحدة واخراج الاجانب النصارى من البلاد.

٣- القضاء على الفساد والانحراف فى المجتمع والتشدد فى تطبيق الاحكام الشرعية وادانة النظام الحاكم على اهماله لها. (١١)

ولاجدال أن خبرة جهيمان فى الحرس الوطنى سهلت له وضع خطة الاقتحام وخطة السيطرة والدفاع عما احتلوه.. لكن.. افكاره الدينية اخطر من معلوماته العسكرية.. وقد جذبت هذه الافكار اتباعه إليه.. واتباعه كان بعضهم من زملائه فى الحرس الوطنى وكان

البعض الاخر طلبة لم يكملوا دراستهم.. وقد جاءوا إلى الحرم بعائلاتهم، وطعامهم وشرابهم واسلحتهم.

ويمكن تلخيص هذه الافكار فى عبارة واحدة هى: العودة إلى الاصولية الوهابية.. وقد شرحها جيهمان فى ١٤ كتابا.. اشهرها ما يعرف برسائله الاحدى عشرة.

وقيل انه كان يتلقى افكاره وهو نائم.. ولكن فى منتصف ١٩٧٩ «اخبره الوحى بأن محمد القحطانى هو المهدى المنتظر.. فسارع للإيمان به.. ودعم هذا الإيمان أن جهيمان تزوج شقيقة القحطانى.. زوجته الثانية.

اما مطالبه السياسية والدينية فقد اتسمت ببراءة وعدم خبرة.. فقد طالب بها وهو محصور فى مكان.. مهما كان شأنه – فهو محدود.. ثم ان الذين طالب بانهاء حكمهم هم الذين استخدموا القوة فى التخلص منه.

فى الساعة السابعة صباحاً استيقظ الملك خالد من نومة على خبر احتلال الحرم، وكان الخبر قد وصل إلى السلطات السعودية من الشيخ محمد سبيل الذى وصف ما حدث تليفونيا من مكتبه بالحرم.. وسارعت سيارات الشرطة إلى المكان.. وفى الوقت نفسه راح الملك خالد يتصل بحكام العالم الإسلامى بالتليفون والتلكس وحاول ان يطمئنهم .. واكد لهم ان صورة الاسرة السعودية كحامية للمقدسات الإسلامية لن تهتز.

والمثير للدهشة أن الزعيم الإيرانى آية الله الخومينى قال فور سماعه النبأ: انهم الصهاينة والامريكان اعداء الإسلام.. وصدق المسلمون فى باكستان اتهامه فاعتدوا على السفارة الامريكية فى كراتشى وقتلوا اثنين من مشاة البحرية كانوا يحرسونها.

وغادر وزير الدفاع (سلطان بن عبدالعزيز) والداخلية (نايف بن عبدالعزير) الرياض بالطائرة إلى جدة.. ثم انطلقا بسيارة مسرعة إلى مكة.. وحولا فندق قريب من الحرم إلى غرفة عمليات.. ووصلت وحدات من الجيش بمدرعاتها واسلحتها المتنوعة – مثل المورترز والبازوكا – وحاصرت الحرم.

أما الامير فهد ولى العهد فكان خارج البلاد فى تونس، يحضر مؤتمرا للقمة العربية كان أهم بند فى جدول اعماله: الهجوم على التسوية السلمية ومضاعفة العقوبات على مصر.. وكان فهد قد التقى قبل يومين من سفره بهيرمان ايلتس الذى نجح فى الحصول منه على وعد بان تكون لغة المؤتمر هادئة ومتزنة.. وإن لم يظفر منه باستجابة لتنفيذ المطالب الامريكية.

وكان من الطبيعى أن تغطى اخبار حادث الحرم فى مكة على اخبار القمة العربية فى تونس.. التى فقدت بريقها وأصبحت باهتة.. ولم يعد عند ولى العهد السعودى ما يقوله

– فى المؤتمر – عن مواجهة مخططات التسوية.. فقد كان عليه ان يتحدث عن مواجهة مخططات مختطفى الكعبة.. المسئولة السعودية عن حمايتها.

ولاجدال أن المخابرات المركزية – كما الح الاعلام الامريكى فيما بعد – كانت على علم بتحركات الجماعة التى نفذت حادث اقتحام الكعبة.. ولكنها تركت افرادها يقومون بالتنفيذ دون أن تتدخل بمعنى اخر.. تركت جهيمان واتباعه يصلون إلى منتصف الطريق.. ثم قامت – بالتعاون مع الامن السعودى – باحباط النصف الاخر من العملية.. كان منتصف الطريق يكفى لتحقيق الهدف المطلوب وهو أن يرى السعوديون العين الامريكية «الحمراء».. وأن يهتز نظامهم فقط دون أن يسقط.. وأن يضطرب قليلا لكن دون أن يصاب بالسكته القلبية.

لم تلعب المخابرات الامريكية دورها المعهود فى كشف ما سيحدث قبل أن يحدث.. لم تكشف السعودية خطة اقتحام الحرم قبل وقوعها.. وهو دور كانت تؤدية للسعودية.. بل وكانت تطلب من المخابرات الصديقة (مثل الموساد) مساعدتها فى تأديته ان امكن.. والدليل ما ذكره رئيس مخابرات سلاح الجو الامريكى الاسبق الجنرال جورج ف. كيجان فى ندوة عقدت فى واشنطن فى مايو ١٩٧٨ حول التوازن الاستراتيجى فى الشرق الاوسط قال: «كانت توجد ثلاث محاولات على الاقل خلال الخمس عشرة سنة الماضية لقيام انقلابات فى السعودية واغتيال الملك.. ونحن نعرف ان محاولتين من تلك المحاولات كان للمخابرات الإسرائيلية الفضل فى منع حدوثها واحباطها. (١٢)

وقيل أن اسلحة العملية دفعت ليبيا ثمنها.. ولكن ليس لاقتحام المسجد الحرام وانما للاطاحة بحكم عبد الفتاح إسماعيل فى اليمن الجنوبية الذى كان العقيد القذافى يريد التخلص منه.. لذلك فقد دعم قبائل الزيدية والعتيبية بالسلاح اللازم لهذه المهمة التى تراجع عنها القذافى فيما بعد.. بعد أن وقع معاهدة تعاون مشترك مع عبدالفتاح إسماعيل نفسه.. لكن.. السلاح بقى فى ايدى القبائل التى ينتمى إلى واحدة منها جهيمان.. وكان من السهل ان يحصل على جزء منه.. هو الذى استخدمه فى العملية.

لقد ادخل المقتحمون قبل العملية بأيام إلى قبو المسجد الحرام ٢٠٠ – ٣٠٠ قطعة سلاح سوفييتية الصنع من طراز ايه كيه – ٤٧.. وحتى الآن لا توجد رواية موكدة عن كيفية ادخال السلاح.. هناك رواية تقول:

أن السلاح دخل فى نعوش.. وهناك رواية اخرى تقول: أن جهيمان واتباعه دفعوا ٤٠ الف ريال رشوة لاحد حراس المسجد.. وهناك رواية ثالثة تقول: أن عائلات قوية تملك المال والنفوذ ساعدتهم فى ذلك وفى غيره.. والمقصود بكلمة «غيره» المنشورات التى تعبر عن

معتقدات المقتحمين ومطالبهم.. وقد طُبع بعضها فى دولة خليجية مجاورة.. ثم تسربت إلى السعودية.. وقيل أن عائلة معروفة فى جده ساهمت فى تمويل جماعة جهيمان ودفعت ١٠٠ الف ريال.

ولمواجهة العملية حشدت الحكومة السعودية كل قواها.. لكن كانت هناك مشكلة القتال فى شهر المحرم.. فهو حرام.. وحرام ايضاً القتال فى الكعبة.. وكان لابد من فتوى دينية تبيح ذلك.. وتكون غطاء شرعيا للتدخل بالقوات المسلحة.. وحصل الملك على هذه الفتوى بصعوبة، وفى اليوم الخامس للعملية بعد أن شرح لرجال الدين بنفسه خطورة الأمر.. لكن بعض الجنود لم يتقبلوا الفتوى.. لم يقبلوا باطلاق النار فى بيت الله الحرام.. وراح وزير الدفاع يحفز الجنود على القتال.. وعندما فشل فقد اعصابه وصرخ فيهم: يمكنكم ان تذهبوا إلى بيوتكم! لكنه استطرد: لكن ماذا نفعل حتى نستعيد بيت الله؟.. هل نلجأ إلى الباكستانيين ليفعلوا ذلك؟ بالطبع لا.. فهذا بيت الله.. وأنتم جنوده.. وهذه حرب مقدسة، من يخوضها يدخل الجنة(١٣).

وما أن انتهى سلطان بن عبدالعزيز من خطبته الحماسية حتى صاح عدد من الضباط الكبار معلنين استعدادهم للقتال، واندفع بعض الجنود خلفهم.. وقُبض على الرافضين وارسلوا إلى بتهمة العصيان وقت الحرب، وكانت التهمة الأولى من نوعها فى تاريخ الجيش السعودى الذى لم يشترك من قبل فى اى عملية عسكرية.

لم يكن القتال سهلاً.. واضطر الجيش السعودى إلى اطلاق قنابل الغاز واطلاق الرصاص، وبعد قتال استمر ٢٢ يوما سقط فيه ما يزيد على ٣٠٠٠ قتيل من الجانبين، توقفت النيران.. كانت مجزرة بشعة.. مجزرة باسم الإسلام.. كان كل طرف فيها قادر على استخدام ادلة واسانيد شرعية لتبرير دوره فيها.

وقُبض على جهيمان.. وما تبقى من اتباعه.. وظهر على شاشة التليفزيون وهو مقيد اليدين من الخلف، ويكاد ينكفىء وهو يمشى.. وخيم الاكتئاب على أم القرى، ولم تفتح المحلات والبنوك خلال ايام الحادث.. وانتقل الاكتئاب إلى العالم الإسلامى الذى لم يكن يعرف حقيقة ما يجرى فى مكة.

ومن المؤكد أن بعض رجال محطة المخابرات المركزية فى السعودية كانوا يتابعون عن قرب ما يحدث وتجاوز السعوديون قاعدة تحريم دخول غير المسلمين إلى مكة، وسمحوا لهم بذلك.. ويمكن الآن أن نتذكر الاتهام الذى جاء فى فيلم «موت اميرة» على لسان سعودى مستنير: انتم الغرب، مسئولون عما يفعله النظام السعودى.. كنتم دائما إلى جانب اعداء التقدم.. لانكم لا تريدون سوى السيطرة على العرب.. هل تعرفون اى شىء عن محاولات الانقلاب التى قامت بها جماعات من خيرة شبابنا؟ لم يكونوا شيوعيين.. ولكن وكالة المخابرات المركزية وشت بهم وسلمتهم للسلطات.

والاتهام، حقيقة.. لكن.. هل ما فعله جيهمان واتباعه – مثلاً – يعد انقلاباً؟ وإذا كان انقلابا فلما سيطروا على الكعبة لا على الاذاعة والتليفزيون؟ هل كانت سيطرتهم على الكعبة بداية لتحركات من جانب جماعات اخرى لاسقاط النظام؟ أم أنهم تصوروا أن اعلان ظهور المهدى المنتظر كان كفيلا بأن يؤمن به الناس، ويسقطوا النظام، خاصة وانه سيحقق العدل المفقود وسيطهر البلاد من الفساد.

اغلب الظن أن الاحتمال الاخير كان صحيحا.. لأن إيمان هذه الجماعة بالمهدى المنتظر كان بلا حدود.. وكان إيمانهم بمعجزاته مطلقا، وكانت اولى هذه المعجزات التى آمنوا بحدوثها.. أن يرثوا الارض باعتبارهم عباد الله الصالحين وأن يطهروا البلاد من رجس النظام.. وهى معجزة لم تتحقق.. منذ قضى عليهم النظام كما قضى على الاضطرابات الشيعية – التى حدثت فى الوقت نفسه تقريبا – فى المنطقة الشرقية «وفى الظهران والدمام والخبر» حيث يوجد ٢٠٠ ألف شيعى هناك.

على أن ذلك لم يمنع اجهزة الاعلام الامريكية من المبالغة فيما حدث، ووصفت العملية بأنها كانت انقلابا شديد الخطورة كاد أن ينجح فى الاطاحة بالنظام السعودى»(١٤) وكانت هذه المبالغة جزء من خطة المخابرات المركزية كى يشعر السعوديون بمزيد من الامتنان لها.. ومن ثم فإن رد الجميل يكون باستجابة السعودية للمطالب الامريكية التى عرضها شتراوس على فهد.. وهو بالفعل ما حدث.

بدأ الرئيس السودانى جعفر نميرى يلعب دور الوسيط بين القاهرة والرياض «اعادة الجسور المحترقة بينهما.. إن نميرى كان مخرج مسرحية تراجع الرياض عن موقفها من مقاطعة القاهرة.. وكان بمثابة «المحلل» فى الطلاق الثلاثى الذى وقع.. ويمكن القول بأن نميرى تعرض لانفعالات متناقضة غير مفهومة من السعوديين.. فقد طلبوا منه ذات يوم وعلى وجه السرعة السفر إلى الرياض ليخرج لهم الطريقة التى سيعيدون بها علاقتهم بمصر.. واستجاب نميرى.. لكن فى قاعة الاجتماعات بمقر الملك فى الرياض فوجىء نميرى بانهم غيروا موقفهم وبأنهم يصفون عكس المتوقع – كل من يقبل كامب ديفيد بالخيانة.. وكان نميرى نفسه ممن قبلوا بها.. ثم طلب الملك خالد تجهيز الطعام اشارة منه إلى انتهاء المفاوضات.. وفى قاعة الطعام كان كل شىء يدعوا إلى السأم، ولم يفهم نميرى سر هذا التراجع، ولا سر معاملته بهذا السوء الذى وصل إلى حد ان الملك خالد ودعه قبل سفره من قاعة الطعام لا من قاعة كبار الزوار فى المطار.

لكن.. ذلك لم يمنع الرئيس السوداني من مواصلة دوره.. وفي ٣ مايو ١٩٨٠ طار السادات سرا إلى قاعدة حربية على مقربة من الخرطوم في حماية طائرات ميج ٢٣ ، وبعد ٤٥ دقيقة من نزوله هبطت طائرة أخرى كانت تقل الامير فهد.. وبينما كانا يتعانقان، كان نميري يجلس في غرفة مجاورة هو ورئيس المخابرات السعودية السابق كمال أدهم.

وفي هذا اللقاء نفذ السعوديون كل المطالب الامريكية.. لكنهم اشترطوا أن يكون الاعلان عن ذلك في وقت لاحق!

وفي ١٨ سبتمبر ١٩٨٠ قال المبعوث الامريكي لينوفيتش الذي كان يزور القاهرة: «ان جهدا حقيقياً يبذل وبهدوء لايجاد اساس للتقارب بين السعودية ومصر وإن مثل هذه الامور تحتاج إلى وقت لتعطي ثمارها».

ونشرت جريدة الاوبزرفر البريطانية مقالا لباتريك سيل قال فيه: «منذ الهجوم على المسجد الحرام في مكة قبل ٨ اشهر والوضع الامني يسيطر على تفكير المسئولين السعوديين مما يشغل تفكير غيرهم في اوروبا واليابان والولايات المتحدة التي تعتمد اعتماداً كبيراً على النفط السعودي.. لقد عزم السعوديون على ابقاء هذه المشكلة في مستوى السلطة فتحركوا في اتجاهين واسعين.. الاول: خارجي دبلوماسي.. والثاني: داخلي امني للامساك بكافة مستويات السلطة جيدا من قبل العائلة المالكة.. فعلى الصعيد الدبلوماسي كما ظهر مؤخراً – اتجهت السعودية لاعادة بناء الجسور مع مصر بعد أن قطعتها منذ ١٨ شهراً – مع غيرها من الدول العربية – احتجاجاً على معاهدة السادات مع إسرائيل.

وأضاف سيل: «إن ابرز مؤشر على توجه السعودية لمصالحة مصر هو ما قاله الامير فهد للواشنطن بوست: أنه إذا ما اعلنت إسرائيل عزمها على الانسحاب من الاراضي المحتلة فإن السعودية ستعمل ما بوسعها لاشراك العرب في معاهدة السلام».

وهكذا..

وقعت الفأس الأمريكية في رأس السعودية:

■■■

هوامش

(١) وثيقة من الخارجية الامريكية إلى البعثة الامريكية في سيناء بتاريخ ١٩٧٩/٥/٣ وموضوعها «ملخص تقرير» البند ٣ ص١.

(٢) وثيقة من الخارجية الامريكية إلى البعثة الامريكية في سيناء بتاريخ ١٩٧٩/٥/٥ وموضوعها «ملخص معلومات المخابرات» البند ٥.

(٣) وثيقة من الخارجية الامريكية إلى مجموعة المعلومات بتاريخ ١٩٧٩/٧/٣١ وموضوعها ملخص معلومات المخابرات» البند ٢٢.

(٤) وثيقة في الخارجية الامريكية إلى البعثة الامريكية في سيناء بتاريخ ١٩٧٩/٥/١٢ وموضوعها «ملخص معلومات» البند ٦

(٥) و(٦) تقرير رقم ١٢٠٩ بتاريخ ١٩٧٩/٧/٢ وموضوعه «متطلبات مصر العسكرية ومشاكلها المالية.. الملخص.

(٧) وثيقة من الخارجية إلى بعثة سيناء، بتاريخ ١٩٧٩/٥/٣ البند ١١.

(٨) وثيقة من الخارجية إلى جميع البعثات الدبلوماسية بتاريخ ١٩٧٩/٧/٥ وموضوعها «ملخص تقرير» البند ٨.

(٩) المصدر السابق البند ١٠ و١١.

(١٠) روبرت لاس: «المملكة» الطبعة الانجليزية – دار فونتانا – لندن ١٩٨٠ ص (٤٨١) الفقرة الثالثة.

(١١) رفعت سيد احمد: «رسائل جهيمان العتيبي» مكتبة مدبولي ص ٢١.

(١٢) والف بليتزر: «بين واشنطن وإسرائيل» الهيئة العامة للاستعلامات كتب مترجمة (٧٩٢) – ص ١١١.

(١٣) لاس: المصد السابق ص ٤٨٥

(١٤) مجلة نيوزويك ١٩٧٩/١١/٢٩.

٨ الأميرة فى خدمة المخابرات الأمريكية

■ لا يمكن التحدث عن «ثلاثية» نجيب محفوظ دون ذكر السيد احمد عبدالجواد.. ولا يمكن التحدث عن السعودية والخليج دون ذكر النفط.. ولا يمكن التحدث عن السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط دون ذكر إسرائيل.

إن إسرائيل هى نخاع هذه السياسة ومفتاحها، وقلبها، وعقلها، وطفلها «المدلل».. وهى أنيابها ومخالبها إذا لزم الأمر.. هى فوق الجميع.. بغض النظر عن الجنس والدين والمصالح.. وهذا ما يفسر لماذا تفضل الولايات المتحدة أصغر تاجر روبابيكيا - فى سوق الكانتو فى تل ابيب - على نصف مفكرى وحكام العالم العربى!

انها علاقة عاطفية.. إستراتيجية تعمى بصر واشنطن وبصيرتها.. عشق جنون، تفضحه الخطابات الغرامية المكتوبة على فواتير السلاح.. والمحفورة على القنابل العنقودية بجانب عبارة «صنع فى امريكا» وهو عشق تحول إلى زفاف بعد توقيع عقد القران الشهير، والمعروف بالتعاون الإستراتيجى.. وبمقتضى هذا العقد المسجل فى الشهر العقارى الامريكى المسمى بالكونجرس، تصبح إسرائيل «سيدة البيت» فى الشرق الأوسط، لا يجوز المساس بشعرة واحدة فى رأسها.. وقد حدث - بعد صدمة الأيام الأولى فى حرب ١٩٧٣ أن تصرفت الولايات المتحدة مثل زوج «حمش» وقدمت إلى إسرائيل فى ساعات - عبر جسر جوى عاجل - أسلحة ومعدات قيمتها ٢,٢ مليار دولار فى عملية «نقل دم» حيوية أعادت إليها الحياة بعد أن كادت تحتضر من كثرة ما نزفت.. وحدث أيضا أن سارعت الولايات المتحدة بتقديم بطاريات صواريخ باتريوت إليها لتصد بها صواريخ سكود - بى التى أطلقها العراقيون على إسرائيل منذ اليوم الثانى لحرب الخليج الثانية.

وحدث كذلك أن اقترح بعض اعضاء الكونجرس وعلى رأسهم السيناتور الجمهورى رودى بوشفتش الذى كان رئيس اللجنة الفرعية للعلاقات الخارجية لشئون الشرق الأوسط وجنوب آسيا، أن ينقل البرنامج السنوى للمساعدة العسكرية الأمريكية لإسرائيل من ميزانية المعونة الأجنبية إلى ميزانية الدفاع الأمريكية.. فهذا أدق.. لأن إسرائيل جزء من جسد الأمة الأمريكية.

اقترح على الجانب الآخر لم تكن إسرائيل زوجة «مسالمة» وانما كانت زوجة «غجرية» مشاكسة تفرض الشر على جيرانها.. وحتى الأحتلال العراقى للكويت «٢ أغسطس ١٩٩٠» كانت إسرائيل تقنع الولايات المتحدة بأنها «شرطى» المنطقة الذى يحمى الأمن فيها، فهى قادرة بسلاحها الجوى على تدمير الأسطول السوفيتى فى شرق البحر المتوسط بأكمله.. وهى قادرة على تعبئة ٤٠٠ ألف جندى فى ٧٢ ساعة.. ومن ثم فلا حاجة لتواجد قوات برية امريكية فى الشرق الأوسط كما هو الحال فى غرب أوربا التى يتواجد فيها ٣٠٠ ألف جندى امريكى.. أو كما هو الحال فى الشرق الأقصى الذى احتمل تواجد ١٥٠ ألف جندى امريكى فى وقت من الأوقات.

وفى عش الزوجية.. وتحت غطاء شرعى كان من الطبيعى أن تمتد الجسور القوية بين الموساد «المخابرات المركزية» وأقوى هذه الجسور.. تبادل المعلومات.. فالموساد تقدم ما عندها عن مصر وسوريا ولبنان والأردن، ومنظمة التحرير.. وفى المقابل تحصل على ما تريد من معلومات عن السعودية ودول الخليج من المخابرات المركزية.. والعلاقة بين الجهازين غير خفية.. ويتفاخر الإسرائيليون بأعلانها.. وإن كانت هذه العلاقة لا تسمح بأن يتجسس كل منها على الآخر.. لكن الموساد لا تلتزم بذلك.

فى مذكراته التى نشرها تحت عنوان «السلطة والمبادىء» يقول د. زينجينو بريجنسكى مستشار الرئيس كارتر للأمن القومى أنه طلب التصنت على الوفد الإسرائيلى فى مفاوضات كامب ديفيد فإذا بكارتر يمنعه.. فلم يفعل.. ولكنه يضيف: أن الإسرائيليين تصنتوا على محادثات كارتر الخاصة أثناء اقامته فى جناحه بفندق «الملك داود» فى القدس فى مارس ١٩٧٩ حينما كان يحاول حل المسائل الأخيرة: المتعلقة بمعاهدة: الصلح المصرية الإسرائيلية، فخلال إحدى هذه المحادثات هاجم كارتر تصلب رئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجن بقسوة، فسأله سكرتيره الخاص هاملتون جوردان: هل: أسجل هذه الملاحظة ياسيدى الرئيس... فضحك بريجنسكى وقال مشيراً إلى السقف: «انها سُجلت فعلاً»!

ومشكلة السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط انها تكره من يكره إسرائيل، وتدعم

من يدعمها وتطيح بمن يتطاول عليها، أو يحاربها أو يعطل مصالحها أو حتى يكون محايداً فى النظر إليها.. والكذبة الكبرى فى حياة العرب هى «تحييد امريكا» وكل العرب الذين تعاملوا مع البيت الأبيض على هذا الأمل اكتشفوا فى النهاية انهم امام دولة نصفها الأعلى امريكى ونصفها الاسفل إسرائيلى.

ومن بين هؤلاء كان السادات.. الذى: أعطى الولايات المتحدة كل ما تريد ثم اكتشف فى النهاية أن عشقه لها من طرف واحد.. فمات كمدا قبل أن يموت اغتيالاً.

وكان يكفى أن تعارض دولة عربية اتفاقية كامب ديفيد حتى تعمل ضدها «المخابرات المركزية».. حتى لو كانت هذه الدولة السعودية الحليف القوى والثرى فى المنطقة.. لقد كشف مقال فى واشنطن بوست فى عدد ٣٠ يوليو ١٩٨٠ كتبه ديفيد لى بعنوان: التسرب الخاطىء فى واشنطن – زلة المخابرات الأمريكية التى صدمت العربية السعودية.. كشف المقال أن السعودية تعرضت لحملة شرسة من حملات الدعاية السوداء، شنتها المخابرات المركزية ضدها فى اجهزة الإعلام التى تسيطر عليها داخل الولايات المتحدة بسبب احجامها عن الأنضمام إلى عملية «كامب ديفيد للسلام». (١)

ولأن النظام السعودى يستمد شرعيته من الإسلام وحماية المقدسات فى مكة والمدينة فإن الحملة «السوداء» وجهت ضرباتها «تحت الحزام».. وراحت تتحدث عن الوضع الهش لترتيبات الحكم السعودى.. ثم وجدت الحملة نفسها تنزلق وتهاجم الإسلام.. مفهومه للقصاص وللمرأة وسعت إلى اثبات أن ذلك ينتمى إلى القرون الوسطى. (٢)

ولان الحملة سياسية وليست دينية فان أحدا «لم يشر فى الوقت نفسه إلى أن الحاخامات فى إسرائيل يعلنون آراء بالغة الشبه بذلك بالنسبة للعقاب والنساء.. وربما اشد. (٣)

وقد انفجرت هذه الحملة فى أواخر سنة ١٩٧٨ فور أن أعلنت السعودية رفضها الأنضمام إلى مخطط التسوية السلمية.. وكان من نتائجها – عارض إداورد سعيد – انخفاض قدر السعودية إلى مرتبة أدنى».. وضاعف بذلك من حجم النفور منها.. وزاد من كونها غير مقبولة ومنافية للعقل والمنطق على الصعيد الثقافى والفكرى.. (٤)

وأقوى ما فى هذه الحملة التى مزجت الإسلام بالسياسة كان فيلم «موت اميرة»!.

فى يوم الأربعاء ٩ إبرايل سنة ١٩٨٠ عُرض الفيلم فى لندن، عبر القناة التليفزيونية التجارية المستقلة «أى. تى. فى» وهى التى انتجت الفيلم الذى يصعب فصل الدراما التمثيلية فيه عن الجوانب التسجيلية الواقعية.. ويقال إنه يعتمد فى مادته على حالة اعدام حقيقة

حدثت لأميرة سعودية ماتت رميا بالرصاص فى صيف ١٩٧٧ ، بعد أن فصل السيف رأس عشيقها عن جسده فى ميدان عام بدقائق.

واخرج الفيلم انتونى توماس فى صورة تحقيق صحفى يقوم به صحفى: اسمه كريستوفر رايدر يبحث عن حقيقة الأميرة وما جرى لها فى أماكن متنوعة من العالم العربى منها بلدها السعودية التى يسميها الفيلم «العربية». وقيل أن السعوديين شاهدوا الفيلم قبل عرضه وحاولوا بشتى طرق الإغراء أن يمنعوا عرضه، أو أن تحذف منه بعض المشاهد لكنهم فشلوا ومن ثم عُرض الفيلم فى معظم تليفزيونات أوروبا الغربية والولايات المتحدة، وتسربت نسخ منه على شرائط فيديو إلى الدول العربية، فانتشر بسرعة البرق، وضاعف ذلك من الضجة الاعلامية والسياسية والدبلوماسية والدينية التى أثارها.

وقد شاهدت الفيلم بعد عرضه بأسابيع وأنا فى القاهرة.. ثم عدت مرة آخرى لمتابعة الأحداث والمشاهد التى جرت على النحو التالى:

بعد اسم الفيلم تبدأ الأحداث مباشرة بمشهد سيارة تحمل نساء محجبات.. ونقرأ عبارة «العربية - يوليو ١٩٧٧».. صوت مؤذن.. جمهور يصلى فى مسجد.. بعد الصلاة يندفع الجمهور إلى ساحة كبيرة خارج المسجد.. تقف سيارة فى الساحة.. تنزل منها إمراة مغطاة بالسواد.. تقف سيارة أخرى.. ينزل منها شاب تُقتل المرأة بالرصاص.. ويُقطع رأس الشاب.. وتظهر منشتات جرائد بلغات مختلفة.. «موت أميرة».. ثم تقرأ عبارة تقول: إن سيناريو الفيلم استند إلى مقابلات جرت فى لندن وباريس وبيروت العربية فى الفترة بين يوليو ونوفمبر ١٩٧٨.

حفل عشاء فى لندن يتحدث فيه بعض الأثرياء للصحفى.. نفهم من كلامهم أن العرب الآن يحاولون التوازن بين قوتين.. قوة الإسلام وقوة النفط التى جاءت بمؤثرات الغرب.. ونفهم أيضاً: أن الأميرة - يسميها الفيلم منى - كانت واقعة فى هذا التناقض.. فتمردت على أهلها وزوجها وأسرتها وارتكبت جريمة الزنا وأعترفت بذلك على نفسها وهى تعرف أن الموت هو الثمن.. فكأنها أرادت الموت.

فى وسط هذه الثرثرة يأتى شخص إلى أكبر رأس فى الحفل ويهمس له.. «واشنطن على التليفون».. فيرد عليه باللغة العربية: «قل لهم اننى موافق على كل شىء»!

الصحفى يناقش الحادث مع استاذ عربى فى جامعة لندن: اسمه فى الفيلم شاهين.. يقول: ان الشخصية العربية من كثرة ما أخذت من الغرب ومن كثرة ما تتعرض له من ضغوط أصبحت شخصية مزدوجة.. مصابة بالفصام.. الشيزوفرنيا.. وقصة الأميرة

هى نتيجة التناقض «بين تخلف الأمس ومؤثرات اليوم».

الصحفى ينظر إلى المشاهدين ويتساءل: «من أين نبدأ».

يلتقى بعامل انجليزى شاب فى مدينة بريطانية كان يعمل فى «العربية» شاهد اعدام الأميرة بعد أن اخبره بالموعد موظف الاستقبال فى الفندق الذى كان يقيم فيه، وصمم على تصوير الاعدام بكاميرا اخفاها فى علبة سجائر، وراح يستعرض الصور مع الصحفى ويروى له كيف كان المشهد وكيف انتهى بنقل الجثتين فى سيارة أقرب لسيارات نقل الموتى.

يلتقى الصحفى بمربية ابن الأميرة.. تحكى له عنها وعن حياتها الخاصة.. انها كانت فى التاسعة عشر من عمرها.. جميلة جذابة.. رشيقة.. تبدو مثل الغزال البرى.. تهوى الموسيقى والطرب والرقص.

فى بيروت نرى الصحفى وسط عدد من الفلسطينين، تقول إحدى الفلسطينيات: أنا كفلسطينية شعرت باننى أريد أن انفجر بعد أن عجزت عن أن أجد من يسمع متاعبى.. الأميرة كانت مثلى.. لم تجد من يسمع متاعبها.. فلم يكن أمامها سوى الموت.

فى فندق سان جورج ببيروت يتحدث الصحفى إلى رجال أعمال لبنانى نفهم من كلامه أن الأميرة كانت طالبة فى كلية البنات فى بيروت وأن صديقها الفلسطينى كان طالباً فى الجامعة الأمريكية هناك.

فى كلية البنات تكتشف أن الأميرة لم تكن طالبة فيها ابداً.

يعود الصحفى إلى المربية التى تؤكد أن الأميرة لم تذهب إلى أى كلية.. ثم تحكى عن حياتها الخاصة وزوجها الغائب فى امريكا.. والأميرات اللائى يمارسن الحب من ملل الحياة فى القصور.. وتقول: إن الأميرة لم تكن تصلى.. وإن كانت تسمع تلاوة القرآن أحياناً.. وكانت لا تقرأ إلا مجلات السينما والنجوم.. وكان مطربها المفضل عبد الحليم حافظ.. أما أغنيتها الغربية المفضلة فكانت بعنوان «أدخر قبلاتك لى».

المربية تستطرد أن الأميرة سافرت إلى لندن فى نوفمبر ١٩٧٦ وكانت سعيدة وتريد أن تكون «هيبة».. وكان سر سعادتها هو الحب.. وكانت تعلق صورة من تحب فى سلسلة حول رقبتها.. بعد بضعة أشهر اختفت الأميرة.. وقيل للمربية انها ذهبت إلى فندق على ساحل البحر وغرقت، فقد وجدوا ملابسها على الشاطىء وفى الحقيقة انهم قبضوها عليها فى الفندق مع صديقها.

ويسأل الصحفى المربية:

– لماذا هى وحدها التى تموت وهناك غيرها كثيرات لهن علاقات خاصة؟

– لانها جعلت الأمر علنيا.. والمهم أن يكون سراً.. وإلا كانت الفضيحة!

– هل كانت هناك محاكمة؟

– لابد من محاكمة.

– هل ادانت نفسها؟

– لا أعرف ما الذى جرى فى المحاكمة؟

نرى مشاهد حية من مدينة جدة.. ثم نرى الصحفى فى حفل السفارة البريطانية وهو يستمع إلى شخص يقول له:

– لقد سمع أن الأميرة لا تزال على قيد الحياة ولكن فى مصحة للأمراض النفسية فى سويسرا.

ولكن.. كيف وقد اعدمت امام الناس؟

ليس من الصعب ابدال الأميرة بأمرأة آخرى.

الصحفى فى مكتب وزير الداخلية.. الوزير يحدثه عن استثمارات بلاده الاقتصادية فى الغرب.. ثم يضيف: أما بالنسبة للأميرة «منى» فإن لنا شريعتنا.. نحن لا نتغاضى عن الأنحراف حتى فى الأسرة المالكة.. ونحن فى الوقت نفسه نهتم بدور المرأة فى المجتمع.. ويمكنك زيارة كلية البنات.

الصحفى يقابل مديرة كلية البنات فى مكتبها ثم فى بيتها فى وجود عمتها، شقيقة الأستاذ بدر شاهين الذى حمل منه توصية إليها...

سألته:

كيف أساعدك؟

حدثينى عن الأميرة التى أُعدمت.

هل سمعت القصة الحقيقية؟

سمعت عشر قصص حقيقية؟

لكن....

دعينى أسألك أولاً.. هل قضيت سنوات عديدة فى حياتك فى أمريكا؟

نعم ولكن كان على أن أعود.

لماذا؟

كان على أن أعود إلى جذورى فأنا عربية.. مسلمة.

وهل ترتاحين فى هذا البلد المحافظ؟

انهم هنا يشوهون الإسلام ويستعملونه.. ان عقوباتهم وحشية ولا علاقة لها بالإسلام.. لا حجاب فى الإسلام.. الحجاب شئ عثمانى جاء به العثمانيين.. طريقتهم فى معالجة أمر هذه الأمير لا علاقة لها بتعاليم الإسلام .. الأميرة لم تعترف.. انما أرادوا أن يجعلوا منها عبرة لأنها تحدتهم.. أما هى فكان عليها أن تموت حتى تثبت أنها على حق.. الإسلام ديمقراطى ولكن الحكام هنا أوتوقراطيون.. لا ملكية فى الإسلام.. والقرآن يقول أن الأمر شورى فى الحكم.

– لكن من المسئول عن هذا النظام؟

أنتم الغرب مسئولون.. كنتم دائماً إلى جانب أعداء التقدم... نحن الآن نحاول أن نعود إلى روح الإسلام ... الديمقراطية الحقيقية.. وقد بدأت حركتنا بالفعل والأميرة كانت جزءاً منها.

أريد حقائق عن الأميرة..

سأرتب على لقاء مع سيدة مقربة من الأسرة المالكة، ولكن يجب أن يبقى اسمها سراً.. إنها كانت تعرف الأميرة.

لا تظهر هذه السيدة أمامنا على الشاشة بوضوح لكن ما تقوله ليس فى حاجة إلى شرح.. تتحدث عن الفراغ والسأم فى حياة الأميرات.. وتتحدث عن الأميرة التى كانت تجلس فى سيارتها الفخمة المطفأة الأنوار أمام فندق «انتركونتينتال» لترقب البشر لساعات طويلة.. وتتحدث عن الجنس وكيف أصبح أهم ما فى حياة الأميرات.. والمدهش هنا أن الأميرات هن اللاتى يقمن باصطياد الرجال..

هناك طريق صحراوى تنطلق فيه سيارات الرجال بعد العصر.. تتبعها سيارات النساء يستعرضن الرجال ويختزن من يعجبهن.

والأميرة؟

لقد أخذها جدها إلى لندن وهناك لم تتعلم شيئاً وانما اختلط عليها الأمر.. ولم تعد قادرة على أن تعرف رأسها من قدميها.

وهناك أيضاً قابلت الفتى الذى أحبته؟

لا .. قابلته هنا.. رأته يغنى ويعزف الجيتار فى التليفزيون فأعجبت به وأرسلت سائقها ليطلب منه أن يقابلها فى محال تجارى.. كان عمره ٢١ سنة، وكان خائفاً ولكنها كانت جريئة.. ودامت العلاقة بينهما ٣ أسابيع فقط.. واتفقا على ان يلتقيا فى أوروبا.. ولكن يبدو أن جدها أحس بشىء فمنعها من السفر. فتحايلت على أمها حتى اقنعتها بالذهاب إلى شاليه الأسرة على البحر.. وهناك كان الفتى فى انتظارها.. وتركت الأميرة ملابسها على الشاطىء ليظن الناس انها غرقت. وذهبت مع صديقها إلى فندق صغير على بعد خمسة أميال من الشاليه وكان هذا مخبأهما.

نرى الصحفى فى الفندق.. يتحدث إليه رجل بدين.. يقول:

أنا رأيتها بعينى.. كانت الأميرة مع الولد.. كان الكل يبحثون عن الغريقة.. وهى هنا معه.. أختفيا يوم الأثنين.. ويوم الجمعة أُعدما.

نعود إلى السيدة المجهولة التى كشفت أن الأميرة تركت رسالة مع الخادمة أوصتها أن توصلها لها بعد أسبوع.. ولكن الخادمة التى أحست بالاضطراب سلمت الرسالة للأم قبل الموعد.. أو فى اليوم الذى قرر فيه العاشقان السفر.

فى المطار نرى الأميرة متنكرة فى ثياب غلام والشرطة تنظر إليه فى ريبة وعند التفتيش ينكشف أمرها.. وجاء الفتى لينقذها فقُبض عليه أيضاً.

فى غرفة قاضى المحكمة، يتحدث القاضى الشيخ عن ضرورة اثبات الجرم قبل القصاص فى الشريعة الأسلامية.. ويتحدث عن سماحه هذه الشريعة التى ضاعفت من شروط الأثبات حتى لا يقع العقاب على برىء.

ثم يقول القاضى للصحفى:

أما بخصوص الأميرة فلم تكن هناك محاكمة أصلاً.. كان الاعدام مسألة سياسية فجد الفتاة هو شقيق الملك الأكبر.. والتوازنات بينهما مطلوبة مهما كان الثمن.. أخذوا الفتاة إلى الجد وفى يوم الجمعة التالى أعدمها حرس الجد.. كان الملك ضد القتل لكن الأمير - الجد لا يخضع إلا لسلطان نفسه.. انه يشعر بان من يهب الحياة قادر على أخذها.. وهذه ليست شريعة الإسلام وانما شريعة القبيلة.

فى النهاية يتساءل الصحفى ما معنى أن تؤخذ فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها إلى كومة من الرمال لتموت بالرصاص دون محاكمة أو شهود؟

فى صالون فندق رويال جاردن هتف رجل اعمال إنجليزى: ياالهى.. اتمنى أن عرف من وراء هذا الفيلم؟

فأجابه رجل أعمال آخر كان يجلس على يمينة: كامب ديفيد.

هذه الواقعة التى لا تعرف مدى صحتها - نشرتها جريدة «الجزيرة» السعودية فى معرض ردها - هى وباقى الأعلام السعودى على الفيلم ومهما كانت الحقيقة فإن النتيجة صحيحة.. فتش عن كامب ديفيد.. وهذا ما توصلت إليه صحيفة «الرياض» أيضاً وقد سخرت من الفيلم قائلة: أنه انتاج بريطانيا العظمى.. بطولة جيمى كارتر ومارجريت تاتشر.. وقصة وسيناريو واخراج المفكر اليهودى الكبير هنرى كيسنجر.. أما الكومبارس فيأتى فى مقدمتهم النظام المصرى.

الحقيقة أن نظام السادات دعم الفيلم وسمح بتصويره فى مصر «بين القاهرة وبلطيم» لمدة ٣ أسابيع فى يونيو ١٩٧٩، وقامت بدور الأميرة الممثلة سوسن بدر، واشترك فى كتابة الحوار صلاح جاهين الذى مثل أيضاً دوراً ثانوياً فى الفليم، واشرفت على الإنتاج شركة تسمى «صن توب» من خلال الشركة التى يملكها يوسف شاهين.

بعرض الفيلم اكتملت الصورة التى وصفها البعض بانها.. مؤامرة صهيونية، ساداتية امريكية ضد العرب والمسلمين. (٥)

ولم تكن المؤامرة كذلك.. وانما كانت مؤامرة سياسية لاجبار دولة كالسعودية للدخول فى التسوية.. وقد نجحت المؤامرة فعلاً.

■■■

هوامش

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ادوارد سعيد: تغطية الإسلام ص ٩٦ ، ٩٧

(٥) لا جدال أن رد الفعل السعودى كان قوياً لدرجة وصلت إلى حد سحب السفير السعودى فى لندن وتخفيض حجم التبادل التجارى مع بريطانيا.. وقد صدرت عدة بيانات رسمية ضد الفيلم لعل أهمها بيان الخارجية السعودية وبيان مجلس القضاء الأعلى.

٩ ليذهب السادات إلى الجحيم

■ «ليذهب السادات إلى الجحيم».. هل قالها «الأمريكيون».. ثم تركوه يلقى حتفه برصاص الإصوليين الإسلاميين ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٨١؟

هل ضحكوا به؟

هل الرصاصات التى أُطلقت على جمال عبد الناصر فى المنشية ١٩٥٤: أصابت أنور السادات بعد ٢٧ سنة؟

الاتهام ليس جديداً.. وقد سبق أن طرحة هيكل فى كتابه «خريف الغضب».. وطرحته فى كتابى «إغتيال رئيس»، وكان هذا الطرح إستجابه لمشاعر مضطربة عبر عنها الناس من فئات مختلفة - فى مصر فور قتل السادات.. وراحوا يستخرجون من الحادث ادلة تشير إلى أن المؤامرة أكبر مما كشف عنها.. ولانني لم أتوصل إلى مايثبت الإتهام فإننى لم أهمله.. وظللت أبحث عن المزيد من الاسرار والتفاصيل.. (١)

وما حلصت عليه خلال سنوات ما بعد نشر.. «إغتيال رئيس» يسمح بالقاء ضوء جديد على الأتهام المعلق برقبة الأمريكيين.. ويسمح بتشغيل عقولنا.. فالإدانة - أو البراءة - مسألة حسابية قبل أن تكون جنائية.

بعد سقط الشاه فى إيران بدأت المخابرات الأمريكية خطة عاجلة لحماية رجالها من الحكام فى دول كثيرة فى العالم.. منهم: الرئيس حسين حبرى فى تشاد.. والرئيس محمد ضياء الحق فى باكستان.. والرئيس صعويل دو فى ليبريا.. والرئيس ماركوس فى الفلبين، والرئيس جعفر النميرى فى السودان.. والرئيس أمين الجميل فى لبنان.. والرئيس دوارت فى السلفادور.. وقبل هؤلاء.. الرئيس محمد أنور السادات فى مصر.

كانوا جميعاً على علاقات قوية مع المخابرات المركزية وكانوا فى مواقع هامة بالنسبة لها وهو ما جعلها تسارع بدعم نظم حمايتهم وحراستهم.. وكان ذلك من خلال خطة وُضعت فى وكالة المخابرات المركزية تقضى بإرسال فريق مكون من ٣ – ٥ أفراد، خبراء من فرقة خاصة فى الوكالة تسمى فرقة «النشاط الدولى» كانت مهمة هذا الفريق فى كل دولة من هذه الدول – تسليم الأسلحة والمعدات المتطورة لحماية «الرئيس».. وتدريب حرسة عليها وتشمل هذه الأسلحة والمعدات.. بنادق أتوماتيكية دقيقة التصويب وأجهزة رؤية ليلية وأجهزة اتصال وطائرات هليوكوبتر وقمصان واقية من الرصاص وأجهزة أنذار متقدمة.. والتزمت الوكالة.. كجزء من خطة الحماية بتقديم كل ما يصل إليها من معلومات عن الأخطار التى تهدد «الرئيس» وتعرض حياتة للموت أو للسقوط.

لو تأملنا الآن.. بعد هذه السنوات التى مرت على اغتيال السادات.. هذه القائمة التى تضم هؤلاء الحكام لما وجدناهم فى أماكنهم. . ولو تتبعنا ما جرى لهم لعرفنا أن بعضهم قتل، وأغلبهم أُزيح من السلطة.. وتفسير ذلك أن الولايات المتحدة بعد سقوط جيمى كارتر وفوز رونالد ريجان اعتمدت سياسة جديدة، رفضت بمقتضاها التعامل مع النمط التقليدى من الحكام الديكتاتوريين حتى ولو كانوا أصدقاء لمخابراتها واستبدالهم بنمط آخر من الحكام ديموكتاتورى.. أى نصف ديمقراطى ونصف ديكتاتورى.. أو تكون واجهة الحكم ديمقراطية، وقوته عسكرية.. وفى الواجهة صحافة تتمتع بحريتها ولكنها غير مؤثرة فى ظل سيطرة الدولة على الإذاعة والتليفزيون.. وفى الواجهه احزاب ومعارضة لها حق الاعتراض، لكنها لا تملك فرصة للوصول إلى الحكم.

باختصار.. هذا النمط الجديد وجهه مغطى بمساحيق تجميل ديمقراطية.. لكن عضلاته لا تزال ديكتاتورية.. وهو لابد أن يكون نظاماً يسهل التفاهم معه.. ويمكن التنبؤ بردود أفعاله.. ولا يفاجىء الإدارة الأمريكية بانعطافات حادة.. أو مفاجآت حادة.. ولا يعتمد أسلوب الصدمات الكهربائية.

ويمكن القول بأن السادات كان الضحية الأولى لهذه السياسة الأمريكية الجديدة.. ثم توالى الضحايا بعده.. نميرى.. ماركوس.. ضياء الحق.. ألخ.

لقد كان السادات مهما جداً للسياسة الأمريكية.. ولكن الأهم بالنسبة لها أن تصرفاته يصعب التنبؤ بها.. وردود فعله لا يمكن حسابها مقدما.. وهو ما لا يمكن لسياسة قوى كبرى احتماله.. مهما كان صاحبها قريباً إلى مصالحة.. والقاعدة هنا.. عدو عاقل أفضل من صديق متهور وقد كان السادات فى سنواته الأخيرة.صديقاً متهوراً.

فى مذكراته التى تحمل عنوان «الرجال الشرفاء» يقول المدير الأسبق لوكالة المخابرات

المركزية وليم كولبى: ان السادات «فتح نفسه وبلاده لوكالة المخابرات المركزية وللمصالح المشتركة المصرية الأمريكية.. ولكنه.. كان مثل طريق ذى اتجاهين.. خطره مزدوج».

ويرى كولبى مايؤكد أن السادات كان «مزاجيا».. يمكن أن يضحى بمصالح الآخرين ولو كانت حيوية.. فى سبيل مصالحه ولو كانت عابرة.. فقد حدث أن قام كولبى برحلة إلى فلوريدا ليقابل السادات.. الذى كان فى زيارة للولايات المتحدة.. ومضى كولبى الليلة (وكانت ليلة عطلة نهاية الأسبوع) جالساً فى سيارته خارج مقر اقامة السادات دون أن يتمكن من مقابلته.. لأن السادات كان مشغولا مع التليفزيونية اللامعة بربارة والترز.. التى كان يروى لها قصة حياته ويتحدث إليها عن قريته ميت أبو الكوم.

وقد تزايد الشك فى السادات مع ازدياد التعامل معه.. وفى شهور حكمة الأخيرة استنتج محللو المعلومات والشخصيات فى الوكالة أنه «مخادع».. فهو.. فى رأيهم.. يجعل كل طرف يظن أنه يملكه ويسيطر عليه.. وهذا غير صحيح لأنه فى النهاية مثل الزئبق لا يمكن الإمساك به.. ثم انه كان يشترى بسرعة ويبيع أسرع، وفى الحالين لا يسأل عن الثمن.. فالمهم عنده – ليس المكسب ولا الخسارة – وانما الاستمرار فى اللعب.

فى وقت واحد «كانت الولايات المتحدة تعتقد انها تملكه.. وهذا ما أعتقده الجيش المصرى أيضاً.. وكذلك فكرت بعض البلاد العربية قبل كامب ديفيد.. وكذلك تصورت إسرائيل بعد كامب ديفيد «.. كانت هذه طريقة السادات للإمساك بجميع الأوراق.. إلا أن ذلك ضاعف من عزلته على كافة المستويات.. حتى جاء يوم الحساب.. حيث قُتل وسط جو من الرضى الظاهر وفشل حراسة فى حمايته «٢».

والمعنى ألا أحد فى أيامه الأخيرة كان يأمن له.. العرب.. إسرائيل.. السوفييت.. والولايات المتحدة التى لم تصدقه حينما أعلن أكثر من مرة أن ٩٠٪ من أوراق اللعبة فى الشرق الأوسط فى يدها.. ولأن من الممكن أن يرجع السادات المسافة التى قطعها فى طريق الصلح مع إسرائيل – بعد استرداد سيناء كاملة فى ٢٥ ابريل ١٩٨٢ – فما المانع أن يكون مفيداً لواشنطن الاستغناء عنه.

لقد أمنوا فى النهاية بإنه «مغامر» لا يمكن الوثوق فى تصرفاته ولا يمكن التنبؤ بها ومن ثم يكون من المصلحة وضعه على رف «المعاش» ولكن لانه عنيد ولا يقبل التنازل عن السلطة بسهولة فلا مفر من التعامل معه بالرصاص.

قبل أقل من أسبوعين على اغتياله تلقى السادات معلومات مفصلة حول تهديدات من ليبيا واثيوبيا وسوريا وإيران.. وكان مصدرها الوكالة التى اهتمت بتحذيره من «التهديدات

الخارجية» وأهملت «القوى الداخلية».. والتى كانت منها جماعة «الجهاد» الاصولية التى قتلته. (٣)

وكان تجاهل هذه القوى وراء احساس السادات المتضخم بأنها أضعف من أن تطوله.. وهو ما جعله لا يهتم كثيرا بتأمين نفسه فى العرض العسكرى الذى قتل خلاله.

وقد بدأت المخابرات المركزية فى رصد كل ما يتعلق بالسادات بصورة منتظمة بعد توقيعه معاهدة السلام.. أى انهم كانوا يعرفون كل ما يحيط به وما يتعرض له أولا بأول.

وفى وثيقة للخارجية الأمريكية مستندة إلى معلومات المخابرات المركزية بتاريخ ٥ يوليو ١٩٧٩: أن تحليلات المخابرات المركزية تشير إلى أن «شعبية الرئيس السادات لازالت مرتفعة فى أوساط الشعب المصرية والعسكريين الذى يؤيدون معاهدة السلام ويجنون فوائد اقتصادية من ورائها».. ويحتل المعارضون السياسيون للسادات مراكز حساسة فى المجتمع المصرى، ولكنهم فى الوقت الحاضرفى حاجة إلى تنظيم وتنقصهم القيادة الصحيحة لجذب مؤيدى السادات».

لكن.. هذا لا يمنع أن «وضع السادات الداخلى عرضة للتقلبات والفشل وخلال السنة الأخيرة حدث بعض التدهور فى وضعه داخل مصر.. وهذا بمثابة تهديد لسياسته.. وهناك الموقف الشعبى الذى سيبرز إذا خابت توقعات الشعب بحصول تحسن فى الوضع الاقتصادى فى مصر ولماذا لم يحدث توقع ملموس على صعيد مفاوضات الحكم الذاتى خلال سنة من المعاهدة التى صدق عليها بيجن والسادات فى مارس الماضى فإن التهديدات ستزداد ضد السادات ومن المتوقع أن يتخذ خطوات تتسم بالمجازفة لوقف الهجوم المضاد لسياسته».

وتضيف الوثيقة «وقد كان للمعاهدة السلمية وقع طيب وتجاوب وتأييد لدى غالبية المصريين الذين ملوا من صراعهم مع إسرائيل ويأمل المصريون خيراً من معاهدة السلام ويتوقعون تحسن الوضع الاقتصادى فى مصر حتى أن القيادة العسكرية تشارك فى هذه الأمال وتحقق فوائد اقتصادية.. ويشعر العسكريون بالفرح لاسترجاع شبه جزيرة سيناء وتضاءل احمال اندلاع الحرب من جديد مع إسرائيل وخاصة وأن مصر غير مستعدة لذلك وهذا ما يثير القلق.. ولكن توريدات الأسلحة من الولايات المتحدة ومن مصادر أخرى للقوات المسلحة ستقلل من قلق هذه القوات التى تخشى من أن الاسلحة التى فى يدها والتى أصبحت غير قابلة للإستعمال».

«ويحتاج السادات إلى تقدم واضح فى المفاوضات مع إسرائيل أو إلى حدوث تطور إقتصادى ايجابى لتجاوز تردى موقفه ومن الصعب الحصول على نجاحات بارزة فى هذه

المنطقة بسبب حساسية الضفة الغربية وعناد إسرائيل وعدم احتمال مصالحة مصر مع اشقائها العرب وتعقد المشاكل الاقتصادية فى مصر.. وإذا لم يحدث تقدم فى مفاوضات الحكم الذاتى فإن إنتقادات معارضى المعاهدة ستزداد حدة وتتسع».

أن السادات عرضة لمحاولات اغتيال من قبل الراديكاليين المحليين فى الخارج أكثر من الداخل وإن كان وضعه على الصعيد الأمنى والحماية لا بأس به، ولكن محاولة القضاء على حياته احتمال مستمر فى ضوء الغضب العارم فى الدول العربية تجاه معاهدة السلام مع إسرائيل.. إن الدستور المصرى لا ينص على وضع خلف للرئيس السادات بشكل تلقائى ونائب الرئيس حسنى مبارك وهو اختيار السادات ليحل محله مالم تطرأ ظروف غريبة تزعزع هذا الوضع.. ومواقف مبارك السياسية هى نفسها مواقف السادات.. ومن المحتمل أن يقوم مبارك بتكملة مسيرة السلام مع إسرائيل وان كان موت السادات يمكن أن يؤدى إلى وضع مضطرب فى مصر يتضمن عدم استقرارها وهناك قسم كبير من الشعب المصرى يفضل أن يسلك الطريق الأكثر أمانا وهو العودة إلى الحظيرة العربية والوقوف تحت لوائه» (٤)..

هذا هو بالنص الجزء الذى يهمنا فى هذه الوثيقة الأمريكية الخطيرة.. والتى تتيح لنا تقدير موقف السادات قبل ١٥ شهرا من إغتياله.. وذلك على النحو التالى:

١- شعبية السادات لا تزال مرتفعة ولكنها معرضة للانهيار إذا لم يتحقق الرخاء الذى وعد به الشعب بعد المعاهدة.. وهذا الرخاء كان بمثابة الحلم الكاذب.. أو الحمل الكاذب.

٢- سعد العسكريون باستعادة سيناء بلا حرب ولكنهم فى حالة قلق من الأسلحة التى فى أيديهم والتى أصبحت غير قابلة للإستعمال.. والخروج من هذه الحالة بحصولهم على الأسلحة الجديدة من الغرب والتى تصل قيمتها إلى ٥,٢ مليار دولار وهو مبلغ لم تعد مصر قادرة على سداده بعد تلاشى الدعم العربى وهذا يعنى أن كثيراً من الصفقات المتفق عليها مهددة بألا تكتمل وأهم هذه الصفقات كانت. صفقة مع فرنسا بحوالى ٢,٩ مليار دولار لشراء قوارب مجهزة بصواريخ أوتوماتيكية وطائرات ميراج وصواريخ كروتال أرض جو.. وصفقة مع الصين الشعبية بحوالى ١٢٠ مليون دولار لشراء طائرات ف-٦ المقاتلة.. وصفقة مع بريطانيا قيمتها ٨٠٠ مليون دولار لشراء ١٦٠ طائرة ألفا المصممة للهجوم الأرضى كان سيتم تجميعها فى القاهرة.. وصفقة مع إيطاليا قيمتها ٢٢٥ مليون دولار لشراء فرقاطات حربية من نوع لوبو.. بخلاف صفقات أخرى بحوالى ٥٠ مليون دولار لشراء طوربيدات الغواصات الأيطالية.. وكانت هناك صفقة مع المانيا لشراء ناقلات

جنود بحوالى ٥٠ مليون دولار.. يضاف إلى ذلك أن الهيئة العربية للتصنيع كانت فى حاجة إلى ١،٥ مليون دولار لاستكمال مشاريعها الخاصة بتصنيع السلاح فى مصر. (٥)

وهذه الصفقات وغيرها لم يعد من السهل استكمالها لاسباب مالية وكان الحل الوحيد المزيد من الاقتراض والديون ومن تدهور الأوضاع الاقتصادية.

٣– إن المخابرات المركزية بدأت فى بحث الأوضاع فى مصر بعد إغتيال السادات وكان ذلك قبل سنة وربع السنة من إغتياله.

٤– انها اهتمت برصد حجم المصريين الذين يفضلون عودة بلادهم إلى الحظيرة العربية وكان الحجم رغم عدم ظهور الأثار السلبية لمعاهدة السلام – كبيراً.

٥– اهتمت أيضاً برصد حجم المعارضة السياسية للسادات وتوقعت أن تزداد يوماً بعد آخر مع توالى ظهور النتائج السلبية للمعاهدة وهو ما حدث فعلاً.

وقبل أقل من شهر على هذا التقدير، كانت هناك وثيقة أخرى أشارت إلى أن الوضع فى مصر يتدهور أسرع من المتوقع.. والوثيقة بتاريخ ٣١ يوليو ١٩٧٩ وصادرة من الخارجية الأمريكية ومستندة إلى معلومات المخابرات المركزية وهى معلومات خاصة بما أطلقت عليهم.. «المناضلين الإسلاميين».. ويقول الجزء الذى يهمنا فى الوثيقة.

١– يستمر السادات فى شن هجمات على اليمين الإسلامى فى مصر ويتساءل بعض السياسيين عن مدى حكمة السادات فى شن هجومه ضد حركة من الممكن أن تصبح مركزاً للقوى المعارضة لحكمة.. انه يستمر فى هجومه ويبدو واثقاً من نفسه ومن قدراته على قراءة المزاج المصرى ولايبدى خوفه من المسلمين الأصوليين.

٢– كانت الرصاصة الأولى فى هذه الحملة تصريح السادات فى فبراير الماضى والذى قال فيه محذراً «لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين».. وهذا التحذير كرره بعد ذلك.. ثم اقترح تغيير قانون الأحوال الشخصية لاعطاء النساء حقوقاً أكثر خاصة فى المسائل الحساسة مثل الطلاق.. وأشار فى خطاب له أمام مجلس الشعب إلى الحاجة إلى تنظيم الأسرة وقام بحل الأتحادات الطلابية فى الجامعات فى محاولة واضحة لإنهاء سيطرة الجماعات الإسلامية وحث حزبة الحاكم على الأهتمام أكثر بالدعوة والثقافة الأسلامية.

٣– اعتبر قادة المسلمين هذه التحركات جهوداً ترمى إلى القضاء على برامجهم ومطالبهم. وبعد أن أغلق السادات مراكز تواجدهم التى كانوا يجتمعون فيها أصبحوا أكثر ابتعادا عنه. ومن ناحية أخرى يعود هذا الأبتعاد – الذى لا يخلو من الكراهية – إلى معاهدة السلام التى لا تفى بوعد استرجاع القدس ولا توفر للفلسطينين حقوقهم ولكن غضبهم وغيظهم يعود بشكل رئيسى إلى محاولاتهم اعادة توجيه المجتمع المصرى بعيداً

عن المؤثرات الغربية.. والعودة إلى الأصولية الأسلامية الصحيحة.

٤– ربما كان السادات محقا فى تصوراته بأن هذه المجموعات لا تشكل تهديداً له، ولكن العديد من المسئولين المصريين تساورهم الشكوك حول استراتيجية السادات غير المفهومة.. وقد أشار زعيم المعارضة إبراهيم شكرى إلى أن السادات يهدف إلى القيام بمواجهة غير ضرورية الآن مع الاصوليين.. وكان إبراهيم شكرى يعارض وينتقد الجهود الرامية إلى منع المعارضة من الوصول إلى مجلس الشعب بما فى ذلك الأسلاميين وأعرب عن اعتقاده بأن السادات أخطأ بتعديله قانون الأحوال الشخصية دون الرجوع إلى الإجراءات التشريعية.

٥– حتى هذا التاريخ فإنه من الصعب الإشارة إلى زيادة نشاط المعارضة الأسلامية باستثناء بعض التى وقعت فى الجامعات ويضاف إلى ذلك أن التقارير سجلت أن المعارضة الإسلامية كانت تدعو إلى اضطرابات عامة!

٦– من المؤكد قيام الأصوليين الإسلاميين بتنظيم معارضة نشطة ضد السادات فى الجامعات مرة أخرى فى الخريف لأن قوتهم هناك أكبر وأوسع من قوة أى قطاع آخر فى المجتمع المصرى ولكن ليس لديهم منفذ لتوسيع هذه المعارضة ضد السادات. (٦)

انتهى نص الجزء الذى يهمنا فى الوثيقة.

وواضح من هذا الجزء أن قوة المعارضة الأسلامية زادت.. انها سيطرت على الجامعات وأصبحت على وشك الخروج منه إلى الشارع.. وانها لم تعد تحتمل تصرفات السادات ومنها قانون تنظيم الأسرة والأحوال الشخصية الجديدة.. وترى زوجته جيهان رؤوف تتصرف وكأنها إمرأة غربية.

وفى مذكراتها الموجهة للعقلية الغربية «سيدة من مصر» – لا «سيدة مصر» – تقدم جيهان السادات الكثير من التفاصيل المثيرة، والصغيرة عن تلك الفترة الحرجة بين زوجها والمعارضة الإسلامية وهى تفاصيل لم تقترب منها وثائق المخابرات المركزية.

بشجاعة تنتقد جيهان السادات وضع المرأة المتخلف فى معظم الدول العربية.. ففى السعودية مثلاً.. حرم على المرأة قيادة السيارة أو العمل جنبا إلى جنب الرجل. أو السفر وحدها دون «محرم».. وفى المؤتمر العالمى للمرأة الذى عقد فى المكسيك ١٩٧٥ كان وفد المرأة السعودية جميعه من «الرجال». وهو ماتكرر بعد ١٠ سنوات فى مؤتمر المرأة العالمى الذى عقد فى نيروبى.

ولا تظهر المرأة فى السعودية دون أن تغطى رأسها وساقيها بالكامل والا تعرضت

لتضيق من رجال الدين المتشددين الذى ينتمون إلى جماعة «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر».. وعندما شوهدت زوجة أحد المسئولين المصريين. فى مكة أثناء الحج بدون غطاء الرأس عنفتها هذه الجماعة وضربتها على ساقيها بالعصى»(٧).

وبالرغم من ذلك اصرت جيهان على اصطحاب زوجها فى زياراته الرسمية للسعودية وهى تصف لحظة ظهورها على سلم الطائرة فى مطار الرياض – والملك خالد والأمراء فى انتظار نزول السادات – بأنها كانت لحظة «فريدة من نوعها».. لقد نصحتها السفارة السعودية فى القاهرة – قبل الرحلة – بالبقاء فى الطائرة إلى أن ينتهى الأستقبال الرسمى لأن المجتمع السعودى المحافظ المتشدد لا يستسيغ ظهور أمرأة مسلمة علانية بصحبة رجال.. ولكنها رفضت النصيحة وقال: أنا لا احتاج لاحد كى يخبرنى أو يعلمنى كيف أكون امرأة مسلمة صالحة».. وأضافت: أنا لا أحتجب عن الرجال فى مصر.

ولن أفعل ذلك فى أى مكان آخر سواء كنت فى اليابان أو فى السعودية أو فوق القمر، أنا لن أغير شيئاً»..

وبهذه الجراءة سعت جيهان إلى تعديل قانون الأحوال الشخصية، وأضافت إليه مكاسب للمرأة مثل نفقة المتعة وحقها فى الطلاق لو تزوج عليها زوجها، واجبار الزوج على أن يخبر زوجته بزواجه الثانى، وعلى الزوجة أن تختار اما الاستمرار أو الطلاق.

وهاجم المتشددون تعديلات القانون وقال الشيخ عبد الحميد كشك: أن هذه هى قوانين جيهان وليست قوانين الإسلام.. إن هذه القوانين التى تريدها سوف تحول الرجال إلى نساء والنساء إلى رجال وسوف تتسبب فى انهيار بنية الأسرة المصرية وتحول المئات إلى الكفر.. هذه القوانين ضد الشريعة.. ضد كلمة الله كما نزلت فى القرآن».

ومنذ هاجمها كشك وإلى أن ألغيت هذه القوانين بعد إغتيال السادات، وهى تعرف بقوانين جيهان.

وخرجت المظاهرات ضد قوانين «جيهان».. تهتف «مثنى وثلاث ورباع».. نريد زوجة واثنتين وثلاثا وأربعا».. ولم تكن الهتافات سوى تعبير عن الرفض.. أما الواقع فكان يؤكد صعوبة الزواج من واحدة.. الواقع الاقتصادى المر الذى كان أحد أسباب ازدهار الجماعات الأصولية.. لقد حاول الشبان الاحتماء بالدين لمواجهة تيارات الفساد والأثارة – ولجأوا إلى الدين حتى يسموا عن واقعهم الاجتماعى المتواضع وعما يعانون من توترات جنسية بحكم المراهقة.. حتى الباحث الفرنسى جيل كيبل لم تفته هذه الملاحظة وهو يرصد حركة التطرف الدينى فى مصر وقال فى كتابة «النبى والفرعون»: أن الكبت لم يكن سياسياً فقط بل كان جنسياً أيضاً.. إن العادة السرية أصبحت عادة قومية.

كان مطلب الزواج من أربع مطالب أقرب للحلم.. أو للحق المؤجل.. لكنه حق ولو لم يستعمل.. ولا يجوز أن يمنعه القانون.. هكذا أحس الأصوليون الذى تظاهروا ضد جيهان.. واعتبروها امرأة «متفرنجة».. وقد حاولوا أقناعها بأرتداء الحجاب والثياب الطويلة وأرسلوا فتاة من أحدى الجامعات تدعوها لذلك.. لكنها ردت: اننى دائما ارتدى ملابس محافظة ومحترمة وذات أكمام طويلة».. والاكثر اهمية من المظهر الجوهر.. والاهم من الثياب.. الاعمال لكن الكلام عن الأعمال بدلاً من الثياب لم يعد مقبولاً من زوجة الرئيس بعد أن تورطت فى نشر حديث لمجلة «بلاى بوى» العارية، والموجهة للمراهقين من الذكور.. وفى العدد نفسه كان هناك حديث آخر للكاتبة المعروفة أمينة السعيد نشرته البلاى بوى إلى جانب صورة لرجل عار.. وقامت الدنيا ولم تقعد.. وتحولت الورطة إلى فضيحة وتحولت الفضيحة إلى مقالات شرسة فى الصحف العربية، وفى منشورات الجماعات الأصولية.

وزاد الهجوم على جيهان السادات بعد استضافتها نجوم السينما والطرب العالميين المتعاطفين مع إسرائيل.. مثل اليزابيث تايلور وفرانك سيناترا.

ثم تدفقت أسباب الخلاف والتوتر بين السادات والأصوليين، وكان فى مقدمتها استضافة شاه إيران ثم دفنه فى جنازة عسكرية.

وفى مايو ١٩٨٠ قرر السادات تعديل الدستور ليصبح رئيسا مدى الحياة.. وكانت مدة رئاسته الثانية والأخيرة تنتهى فى اكتوبر ١٩٨٢.. بعد سنة من إغتياله.. وقد جرى التعديل بمسرحية من الحزب الوطنى الذى هتف بعض أعضائه فى المؤتمر السنوى للحزب: للأبد.. للأبد ياسادات»..

فى يونيو ١٩٨٠ أعلنت إسرائيل القدس عاصمة موحدة وابدية لها.. وفى يونيو١٩٨١ ضربت المفاعل النووى العراقى، بعد ساعات من لقاء جرى بين السادات وبيجن فى شرم الشيخ.. وتساءل السادات فى ألم: فى صف من تقف إسرائيل؟.. هل انضموا للعرب فى محاربة السلام؟

ثم وقعت أحداث الفتنة الطائفية التى انتهت بخصومة بين السادات والبابا شنودة.. فى ذلك الوقت كان السادات يحزم حقائبة إلى واشنطن ليقدم فروض الولاء للرئيس الجديد ريجان.. لكن كان المطلوب أن يقابله ريجان وقد أصبح جثة هامدة.. بدون أوراق يلعب بها بدون قوة تسانده.. بدون قدرة تجعله مسيطرا على اوضاع بلاده.. كان المطلوب ألا يجد فيه سيد البيت الأبيض الجديد أى ميزة أو فائدة تبرر استمراره فى الحكم.. على العكس.. كان لابد أن يبدو ضعيفاً، عاجزاً، فاشلاً إلى الحد الذى يغرى ريجان بالبدء فى تنفيذ سياسته الجديدة.. التخلص من الوجوه القديمة.

وحتى يتم الأجهاز عليه نشرت صحيفة «واشنطن بوست» اعلانا فى اليوم التالى لوصوله فى نصف صفحة بعنوان «الرجال الأقباط يُحرقون احياء».. وفى الأعلان رسالة إلى السادات كرئيس مصر موقعه من قبل اتحادات الأقباط فى كندا وأمريكا.. لا يتسم ما فيها بالصحة، ولا يستبعد منه الإستعمال.. ففيها أن الأقباط اجبروا على التخلى عن ديانتهم!! وفيها أن الأطفال الأقباط يقذف بهم من الشرفات!! وفيها أن الديانة المسيحية تتعرض للسخرية فى وسائل الأعلام!! وفى النهاية تساؤل للسادات: «لماذا لا تضع حد لهذا الجنون؟»..

وعرف السادات أن واشنطن رفعت يدها عنه وأن ريجان لا يريده فقرر – مثل اساطير الدراما الأغريقية – أن يتحدى قدره، ويخوض معركته الأخيرة.. فبعد ايام من عودته من واشنطن اعتقل ١٥٠٠ رمزاً من رموز المجتمع المصرى السياسية والدينية.. ولم يعد يملك من شعبيته شيئاً.. وفى ٥ سبتمبر ١٩٨١ – تاريخ حملات الأعتقالات المجنونة أنتهى السادات تماماً!

– وراح الغرب الذى صنع منه نجماً يلقى عليه البيض الفاسد والحجازة وبدأ يصفه بالديكتاتورية.. وهى كلمة السر التى سبقت سقوط الشاه قبله.. ونميرى وماركوس وصمويل دو بعده.

وأغلب الظن انه كان يشعر بانهم يريدون التخلص منه.. والدليل أن زوجته قالت: أنه قالها ثلاث مرات فى شهر سبتمبر ١٩٨١ بعد عودته من واشنطن.. قال انه سيقابل ربه.. وقالها رابع مرة فى بداية شهر اكتوبر الذى قتل فى السادس منه وعلقت زوجته قائلة: إن هذا ليس السادات الذى عرفته الواقعى، والقوى، الذى لم يعش مطلقاً فى الوهم.. وفى تقديرى أنه لم يكن يعش فى الوهم.. بل كان يلمس الحقيقة بعقله قبل أن يلمسها بجسده.. لقد عاش سنوات طويلة فى حياته فى كواليس المؤامرات والأغتيالات.. يعرف متى ينتهى الحاكم سلما ومتى يسقط اغتيالاً.. كمسئول كبير.. كان على علاقات ليست عادية مع أجهزة المخابرات الألمانية والأمريكية والإسرائيلية أصبح قادراً على فهم الفرق بين كلمة «النهاية» وكلمة «الأستمرار».. وأصبح قادراً على فهم أساليب هذه الأجهزة فى كيفية التخلص ممن لا يريدون من الحكام.

لقد فهم فى زيارته الأخيرة لواشنطن أنهم لا يريدونه.. فهمها بطريقة أو بأخرى تصريحاً أو تلميحاً.. المهم أنه فهم.. لكنه لم يستسلم.. لم يقبل التنازل.. فكان لابد من الإغتيال أن ملابسات الإغتيال تمتلى بالألغاز التى لم تجد حلاً حتى الأن.. منها أن خالد الإسلامبولى كان محرماً عليه الأشتراك فى العرض العسكرى بعد تقارير المخابرات الحربية التى رصدت

نشاطه فى أوساط الجماعات المتطرفة.. ومنها أن شقيقة محمد الأسلامبولى كان من بين المقبوض عليهم فى حملات الاعتقالات الواسعة التى جرت فى ٥ سبتمبر.. ثم.. السهولة التى أدخل بها خالد الإسلامبولى زملاءه إلى ارض المعرض ونجاحه فى الحاقهم على وحدته واشتراكهم فى العرض.. يضاف إلى ذلك أنه استخرج لهم الأوراق والمستندات اللازمة لتغطيتهم.. وهناك ملابسات آخرى تعرضنا لها بالتفصيل فى «اغتيال رئيس» حول التفتيش والأمن وإبر ضرب النار التى لم تنزع من البنادق، وتهريب القنابل إلى طابور العرْض.. فهل كان خالد الإسلامبولى قادراً بمفرده على ذلك كله؟.. هل كانت هناك قوة أكبر – ولو من بعيد – تغطيه؟.

وفى ظروف التوتر التى كانت تعيشها البلاد، ويعرف فيها السادات أنه مطلوب ميتاً «يمكن أن نصف تقصير الحرس الشخصى – الذى تكلف تدريبه ٢٠ مليون دولار بالاهمال، إن الاهمال كلمة مهذبة فى مثل هذه الظروف.. ثم لماذا لم يكن القناصة – الذين تعودوا حماية السادات – فى أماكنهم هذه المرة؟.. ثم من الذى اقنع السادات بأن لا يرتدى القميص الواقى من الرصاص؟».

ألف لغز ولغز بلا حل.

فى محاكمة قتلة السادات أجتهد المحامون فى أثبات أن الرصاصات التى قتلته ليست هى التى اطلقها خالد الأسلامبولى ورفاقه. (٨)

وفى مذكراتها تقول جيهان السادات: انها خلال «تلك الفترة العصيبة من صيف وخريف ١٩٨١» كانت تخاف كثيراً على حياة زوجها.. وتضيف: «وخلال التوتر المتصاعد فى الأسابيع التى سبقت العرض – لم يمر يوم واحد إلا وكنت أودع زوجى وأباركة فى الصباح.. وكنت انتظر موته فى المساء.. إلا فى ذلك اليوم لم تتوقع أن يموت زوجها.. لأنه كان فى أشد الأماكن امناً بالنسبه له.. وسط القوات المسلحة.. وهو قائدها الأعلى.

ولا جدال أن السادات لم يتوقع اغتياله فى ذلك اليوم للسبب نفسه فهو فى حماية وحراسة جميع الأسلحة.. وهذا ما جعل الحادث مفاجأة: للجميع بما فيهم هو نفسه.. إن السادات الذى تعود على مفاجأة الجميع بقراراته فوجىء هو بموته.

مما زاد من حدة المفاجأة.. أن كل التحذيرات التى تلقاها من المخابرات المركزية كانت تشير إلى أن الخطر سيأتى من الخارج لا من الداخل.. ودعم ذلك انه فى طريق عودته آخر مرة من واشنطن كان سيمر على فيينا ولكن مستشارها برونوكرايسكى اتصل بالسادات ونصحه بأن لا يتوقف فى العاصمة النمساوية وأن يتوجه مباشرة إلى القاهرة حفاظاً على حياته لأن الموساد ابلغت حكومة النمسا بمؤامرة لأغتياله وقُبض على اثنين من

الفلسطينين فى المطار وبحوزتهما أسلحة أتوماتيكية وقنابل يدوية.. ولم يعاند السادات وعاد إلى القاهرة.. وقد اختفت انباء هذه المؤامرة فهل كان ذلك جزءاً من خطة متعمدة لخداعة نفسيا، وتوجيه احساسه بالخطر إلى الخارج، ودفعه بعيداً عن الخطر الحقيقى - فى الداخل - دون أن يستعد له؟.

وتعترف جيهان السادات بأن الشك ساور الجميع.. وتساءلت: هل كان هناك شخص غريب فى المنصة.. شخص لا نعرفة أطلق الرصاص؟..

كل ذلك يعانى وجود شك فى قوة مجهولة يمكن أن تكون وراء قتل السادات.. فهل كانت هذه القوة هى المخابرات المركزية.

إن أسباب الأدارة المركزية للتخلص من السادات ليست هينة كما ذكرنا.. ولكن لو كانت المخابرات المركزية وراء قتله.. فكيف يمكن تصور حدوث ذلك؟.. كيف يمكن وجود علاقة - يصعب تخيلها أحيأنا - بينها وبين تنظيم الجهاد الذى قتل السادات؟

يمكن أن يكون دور المخابرات المركزية فى المؤامرة دوراً سلبياً.. يقتصر على عدم توصيل معلومات عن المؤامرة - عرفتها - إلى السادات.. لم تشأ أن يعرفها.. ومن ثم تركتهم يخلصونها من السادات دون أن تتورط فى التنفيذ فتكون بريئة من دمه.. وهو الأسلوب الذى اتبعته فى عملية اقتحام الكعبة.

إن المخابرات المركزية تعترف فى الوثائق التى نشرناها بأنها كانت تعرف ما يدور حول السادات دقيقة بدقيقة.. كما أنها كانت مخترقة لبعض التنظيمات الإسلامية.. وكانت مهتمة برصد تحركاتها حركة بحركة.. فهل قتلت السادات بتعمد الإهمال:

ويمكن أن يكون دورها ممتدا إلى التضليل.. حيث أبعدت احساس السادات بالخطر.. وجعلته ينظر إلى جهة اخرى، يمكن أن يمتد الوسطاء إلى المشاركة غير المباشرة.. من بعيد.. عبر «وصلات متعددة، من الوسطاء، تجعل من الصعب الربط المباشر بينها وبين مجموعة الإغتيال.. وأكثر من ذلك فان مجموعة الاغتيال تكون خالية الذهن عن طرف الخيط البعيد الذى يحركها.. وهو اسلوب معروف فى المخابرات.. وفى المخدرات.. حيث لا يعرف التاجر الصغير من هو المهرب الكبير؟.

وبجانب الأسباب التى ذكرت.. هناك اسباب آخرى تؤكد أن السادات كان قد انتهى بالنسبة للسياسة الأمريكية.. ولنتذكر الأن الحوار الذى دار بين فهد وشتراوس، والذى ابدى خلاله ولى العهد السعودى استعداد بلاده للدخول فى مخطط التسوية السلمية الأمريكية بشرط اقصاء بيجن والسادات.. ولنتذكر عناصر قوة السادات - فى ذلك الوقت - كما عرضها شتراوس هى: شعبيته.. رغبته فى البناء الأقتصادى.. وصورته فى المجتمع

الأمريكى.. ثم لنتذكر ماجرى لهذه العناصر قبل اغتياله مباشرة.. شعبيته انهارت بعد أن خاصم القوى السياسية والدينية ووضع رموزها فى المعتقلات.. رغبته فى البناء الأقتصادى غرقت فى بحر الديون الخارجية والعجز المالى المزمن.. أما صورته فى المجتمع الأمريكى فقد جرى تشويهها بعد أن راحت أجهزة الأعلام هناك تصفه بالديكتاتورية وجنون العظمة.

وقد حدث أن استفزه صحفى امريكى حين سأله:

هل أخذت رأى الرئيس ريجان فى الأجراءات الإستثنائية التى تقوم بها؟

فكظم السادات غيظة وابتلع الاهانة واكتفى بالقول:

لو لم تكن فى مصر ديمقراطية لاعتقلتك.

لقد جرى تفريغ السادات من عناصر قوته خلال أشهر معدودة، ثبت خلالها للسياسة الأمريكية أنه لم يعد يملك ما يقدمه لها.. بل اصبح عقبة فى سبيل استمرار مخططات التسوية السلمية التى حان الوقت لانضمام دول عربية أخرى إليها.. وكان من الصعب ان يتم ذلك ومصر معزولة عن العرب.. وبعبارة اخرى فإن التسوية السلمية تريد باقى العرب مع وجود مصر.. ولكن ذلك مستحيل فى وجود السادات.. اذن فليذهب السادات إلى الجحيم.. وليعود العرب إلى مصر..

ولتقودهم مصر إلى التسوية.. وهو ما حدث.

إن السادات كان مثل طائرة نفذ وقودها.. فكان لابد أن تهوى.. لقد استنفذ كل ما كان يدخره فى مخازنه السياسية فأصبحت متاعبه أكثر من مميزاته.. ولم يعد يملك شيئاً يقدمه لواشنطن.. كان ضعيفاً، معزولاً وغير قادر على الوفاء بالوعود الذى قطعها على نفسه لتوفير الرخاء والديمقراطية.. فلا قدم الخبز ولا قدم الحرية.. ومن ثم كان لا مفر من التخلص منه قبل فوات الآوان.. قبل أن يفلت الزمام.. ويحدث فى مصر ماحدث فى إيران.

■■■

هوامش

) راجع كتابنا «إغتيال رئيس» لمزيد من إستيعاب هذا الفصل.

٢) ، (٣)، بوب وود درد.. مرجع سبق الاشارة إليه.

٤) وثيقة من الخارجية الامريكية بتاريخ ١٩٧٩/٧/٥ البنود من ١-٥.

٥) تقرير رقم ١٣٠٩ سبق الاشارة إليه ص ٥.

) وثيقة عن الخارجية الامريكية بتاريخ ١٩٧٩/٧/٣١ - البنور من ١/-٦

٧) جيهان السادات: سيدة من مصر - المكتب المصرى الحديث القاهرة ١٩٨٧.

٨) لمزيد من التفاصيل ما جرى فى محاكمة قتلة السادات نقترح الرجوع إلى كتاب شوقى خالد: «محاكمة فرعون» دار سينا القاهرة.

١٠ فيصل القاتل .. وفيصل القتيل !

■ قبل اغتيال السادات بأكثر من ٦ سنوات، قتل حاكم عربى آخر، لاسباب مشابهة، ولكن بطريقة مختلفة. هو الملك فيصل بن عبدالعزيز.. الملك الثالث فى تاريخ السعودية.

كانت عناصر الأغتيال وتفاعلاتها فى الحادثين واحدة، وإن كانت بنسة متفاوته.. التطرف الرصاص.. المفاجأة.. التدين.. الثأر.. الأنتقام.. وضغوط الأصوليين.

ولم يُقتل الملك فيصل أيضاً دون الغاز لم تُحسم، ودون شكوك لم تُبدد.. وفى وسط الفوضى والدوامات قفز الإتهام نفسه.. هل اغتالته المخابرات الأمريكية؟

وخرجت من الأتهام هذه المرة رائحة النفط إلى حد أنها زكمت الأنوف التى عطست بكثير من الرذاذ المُعدى.

فى يوم الثلاثاء ٢٥ مارس ١٩٧٥ قُتل الملك فيصل.. قتله ابن أخيه فيصل بن مساعد وهو فى مجلسه بالرصاص فى وجود وزير النفط السعودى الشيخ: أحمد زكى يمانى، ووزير النفط الكويتى عبد المطلب الكاظمى... مد الملك يده لمصافحة الأمير.. فسحب الأمير مسدسة واطلق النار على الملك.

فيصل الأمير قتل فيصل الملك.

فى ذلك الوقت كان ولى العهد الأمير خالد فى قصره يحتسى الشاى، وبينما كان يدفع الفنجان فى يده دق جرس التليفون وتلقى النبأ.. فأمسك ببندقيته الأتوماتيكية وجرى مع حرسه إلى القصر الملكى.

كان آخر ما قاله فيصل وهو ينظر إلى سقف الحجرة «امرك ياسيدى» أما الشيخ يمانى فأخذ يبكى ويصرخ ويلطم وجهه قائلاً: «قتلوك يا فيصل.. قتلوك يا فيصل».

وكشاهد عيان يقول يمانى:

فى صباح ذلك اليوم حضر إلى الرياض وزير النفط الكويتى الجديد، وكان علىّ أن أصطحبه هو والوفد المرافق له إلى مكتب الملك فى القصر فى زيارة تعارف رسمية، كانت فى العاشرة والنصف صباحاً.. قبل الموعد بعشر دقائق كنت استقبل الكاظمى فى غرفة الأنتظار خارج مكتب الملك.. عرفنى الكاظمى على أعضاء الوفد المرافق له ومن بينهم شاب دعاه «الأخ» فيصل بن مساعد.. لم أتعرف عليه.. لكننى دهشت من أن أسم عائلته سعودى بينما وهو يتكلم بكلنة كويتية ولفت نظرى توتره الواضح.. والشديد.. لكن من الظاهر أنه كان على معرفة وثيقة بالكاظمى.. وبدا وكأنه ينتمى إلى الوفد الكويتى فلم أفكر فى المزيد(١).

فى تمام العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين دخل الملك فيصل إلى مكتبه برفقه حارس واحد.. وتمكنت من رؤيته وأنا فى غرفة الانتظار.. فاعتذرت للوفد الكويتى.. الذى بقى مع رئيس التشريفات – كى أتحدث مع الملك على انفراد للحظات قليلة.

كانت غرفة الملك متواضعة، ضيقة، تقع فى نهاية ممر وتطل على حديقة القصر، أما الأثاث فكان عبارة عن مكتب يواجه مقعدين واريكتين.

شرح يمانى للملك هدف الزيارة.. هز الملك رأسه.. ولأنه كان يشعر بانشراح فى ذلك الصباح فإنه راح يتبادل المزاح مع يمانى.. ثم غادرا الغرفة إلى قاعة استقبال متواضعة أيضاً لكنها أكبر من غرفة المكتب وبعد نصف دقيقة حضر مصورو التليفزيون لتسجيل المقابلة التى كان من المقرر أن تستمر ١٠–١٥ دقيقة. ما يكفى للترحيب وشرب القهوة وتبادل كلمات المجاملة.

فُتح الباب.. وأشار رئيس التشريفات إلى الوفد الكويتى بالدخول.. ودخل الكاظمى.. ثم أنتظر أفراد الوفد دورهم.. رحب الملك بالكاظمى.. وما أن فعل حتى أسرع الأمير فيصل فى اتجاه الملك.. بسرعة.. ووصل إلى قرب الكاظمى مباشرة قبل أن يلاحظ أحد.. وأصبح على بعد قدمين من الملك ويمانى.. وسحب مسدساً عيار ٣٨ مم من تحت ردائه.. وبدأ يطلق النار.. وكانت الساعة العاشرة والدقيقة الثانية والثلاثين.. وقد أطلق النار ثلاث مرات.

ويقول يمانى «لم أدر ما حدث.. سمعت الطلقات النارية لكن لم أعرف من يطلقها.. ثم خر الملك أرضاً.. وسقطت معه».

أنتشر الذعر فى القاعة.. رفع يمانى رأسه.. وجد حارس الملك ممسكاً بالشاب.. كانا يتصارعان على المسدس.. كان الحارس يقبض على زند الشاب مصوباً يده نحو السقف.. لكن الشاب كان يحدق مباشرة فى يمانى.. وخرجت طلقات أخرى.

ويقول يمانى: «نظر القاتل فى عينىّ.. حدق مباشرة فى وجهى.. وأطلق النار فى اتجاه سقف القاعة».

وعندما دخل المزيد من الحراس لانتزاع السلاح من يد الشاب.. هرع يمانى خارج الغرفة طالباً المساعدة.. صاح بأعلى صوته يطلب طبيباً.. صاح عدد آخر من الموجودين.. جاء طبيب باكستانى ممن يعملون فى القصر.. فحص الملك.. ثم قرر انه مات.. عاد يمانى مندفعاً إلى القاعة يشق طريقه بين الجمع.. انحنى قرب الملك الذى تمدد على البساط غارقاً فى دمه.. وصلت سيارة أسعاف.. حملوا الملك القتيل إلى المستشفى المركزى.. وبعد قليل أعلنت أذاعة الرياض النبأ.. ووصف البيان الرسمى القاتل بانه «مختل عقلياً» ووصف الجريمة بانها «حادث فردى» أى لا مؤامرة أكبر.

أراد السعوديون وضع حد لأى شائعة حول وجود مؤامرة ما يكون فيها الأمير القاتل أداة انقلاب على الأسرة المالكة.. وتلا ذلك اعلان خالد ولى العهد ملكاً.. فى دقائق.. قُتل الملك.. يحيا الملك.. «والملك هو الملك».

أمضى الملك خالد ساعات يستوجب القاتل بنفسه.. وعلم الملك خالد أن القاتل عندما كان يحدق فى عينى يمانى ثم أطلق النار فى اتجاه السقف كان يعتقد حقاً أن مسدسه مصوب إلى يمانى وكان مقتنعاً أنه قُتل أيضاً.

وبعد أن قرر الملك خالد أنه ليس للجريمة دوافع خارجية.. سمح لمجلس طبى بالكشف على القاتل فقرر أنه «وإن كان مختلاً عقلياً فإنه كان يتمتع بكامل قواه ساعة وقوع الجريمة».

فى ١٨ يونيو، أقتيد الأمير القاتل إلى قلب ساحة «الرياض» الرئيسية.. أمام «قصر العدل» ودار به شرطى حول المحتشدين.. كان الأمير يتعثر فى مشيته.. غير ثابت.. يرتدى ثيابا بيضاء.. معصوب العينين.. وبعد أن أعيد إلى منطقة الاعدام، دفعه الشرطى فخر على ركبتيه ثم جاء من الخلف رجل يحمل سيفاً.. وبضربة مستوية قطع رأسه.. ولمدة ١٥ دقيقة علّقت رأس الأمير على وتد ثم أتت سيارة إسعاف لتنقل الجثة. (٢)

والملك فيصل.. ولد فى ٩ أبريل ١٩٠٦.. وبعد ٥ أشهر فقط ماتت أمه.. فتربى فى بيت

جده لأمه بعيداً عن والده الملك عبدالعزيز.. وعمر ١١ سنة، شارك والده فى الغزوات. تعلم القراءة والكتابة لمدة ٣ سنوات فى أحد الكتاتيب.. وعندما بلغ سن الثالثة عشر تبنى تدريبه على أصول الحياة العامة، رجل بريطانى، كان مؤثراً فى لندن والرياض معاً هو جون فلب، وكان مقرباً من الملك عبدالعزيز ومن أهم مستشاريه السياسيين.. وسرعان ما أتقن فيصل اللغة الانجليزية وأصبح من المعجبين بأساليب الحكم الغربية.. وعندما ضم الملك عبدالعزيز الحجاز إلى نفوذه عيُن فيصل نائباً عنه هناك.. وكان ذلك فى صيف ١٩٢٦.. وبعد ٤ سنوات أصبح وزيراً للخارجية وكان عمره ٢٥ سنة.

وبعد وفاة الأب وتولى سعود – الابن العرش أصبح فيصل ولى العهد، وسهل له فساد الملك الجديد وحبه للترف والبذخ – أن يصبح الرجل القوى فى المملكة.. وقد دعم قوته بوضع رجاله فى المراكز الحساسة.. مثل شقيق زوجته كمال أدهم الذى كان أخطر رؤساء المخابرات السعودية.. ومثل مستشاره الخاص، اللبنانى الأصل رشاد فرعون.. وقد اكتفى فيصل دائماً بزوجة واحدة.. فبعد وفاة زوجته الأولى، تزوج فقط من الملكة «عفت».

فى سنة ١٩٦٤ نجح فى إقصاء شقيقه سعود عن العرش وأصبح هو الملك.. وكان أهم قراراته إلغاء نظام «الرق» الذى كان سائداً.. كما أنه سمح – رغم معارضة المتشددين من رجال الدين بتعليم الفتيات.. وببدء الارسال التليفزيونى.. وخفف من القيود الصارمة المفروضة على عمل المرأة.

كان فيصل فى جراة ابيه وهو يواجه التزمت الذى يفرضه رجال الدين.. وكان يرى ألا أمل فى أن تكون بلاده مؤثره ما لم تأخذ ما يناسبها من وسائل الحضارة الغربية.. مثل التليفون والتليفزيون.. وهذا ما جعله.. متهورا فى نظر خصومه المتشددين الذين استسلموا لما يريد على مضض.

وحتى الآن لا يزال رجال الدين ينظرون إلى التليفون على أنه «من عمل الشيطان» خاصة انه يتيح الإتصال – ولو عن بعد بين رجل وامرأة.. يكون التليفون خلاله – مثل الشيطان.. ثالثهما.. والعيب بالقطع ليس فى التليفون وانما فى المجتمع الذى يحرم على المرأة كل شىء.. فتظل حبيسة البيت والسأم فلا تجد أمامها – فى كثير من الأحيان – سوى التليفون، لتستخدمه بصورة عشوائية فى الأتصال برجال لا تعرفهم، وتمارس معهم الحب بالصوت عبر الأثير.. وهذا النوع من الجنس يوصف فى المجتمعات السوية بالشذوذ.. لكنه يصبح عادة قومية فى المجتمعات المغلقة مثل السعودية!

وحتى الآن لا يحق للمدرسين الرجال التدريس فى مدارس البنات إلا من خلال حجرة

معزولة عن الفصل، وترى الفتيات الشروح عبر شاشة تليفزيونية لدائرة مغلقة.. أما الأسئلة فتوجه للمعلم عبر تليفون داخلى.

وقد أدخل الملك فيصل التليفزيون إلى السعودية فى سنة ١٩٦٥ فقامت الدنيا ولم تقعد، وهاج رجال الدين، وهاجموه واعتبروه جهازا للفجر والرذيلة، لأنه ينقل الرقص والموسيقى والغناء ولأنه يُدخل الغرباء من الرجال والنساء بيوتا غير بيوتهم، ولم تستطع الرقابة الصارمة – التى كانت تحذف مشاهد العرى والخمر والقبلات – أن تهدىء من هذا الغضب.

وامتد الغضب إلى المتزمتين وكان من بينهم الأمير خالد بن مساعد، شقيق الأمير القاتل.. اعتبر الأمير خالد التليفزيون عملا من أعمال الكفر والزندقة، فقاد هجوماً مسلحاً على محطة الإسال التليفزيونى فى الرياض.. وحاولوا – هو ومن معه – الاستيلاء عليها بالقوة تمهيداً لتخريبها واسكات ما تبثه من أفلام وبرامج.. وعلى الفور وصلت الشرطة لقمع الاضطراب ولكن اعوان الأمير خالد رفضوا التفرق.

وما أن تبين للضابط المسئول أن قائد المشاغبين هو أمير من الأسرة المالكة وأبن شقيق الملك وحفيد بن سعود الخامس عشر حتى أتصل بقائد قوات الأمن الذى سارع بدوره بابلاغ الملك فيصل.. وفكر الملك فى الموضوع ثم قال: لا يهم من يكون الرجل.. لا أحد فوق القانون.. ثم أضاف: إذا أطلق الأمير النار.. يجب أن تردوا عليه بالمثل.

ولم تنته العملية إلا عندما أطلق قائد قوات الأمن النار على خالد بن مساعد وأرداه قتيلاً.. وهكذا.. انفجر الدم فى العائلة السعودية الحاكمة.

بعد مرور فترة من الوقت على الحادث سافر فيصل بن مساعد للولايات المتحدة للدراسة، وهناك حاول أن يجد نفسه بطرق شتى.. دون أن ينسى الثأر.

ولد فيصل بن مساعد فى سنة ١٩٥٠.. وليست هناك معلومات متاحة عن طفولته وتاريخه الدراسى فى السعودية.. ولكننا نعرف أنه سافر إلى الولايات المتحدة فى سنة ١٩٦٦ لدراسة العلوم السياسية.. درس اللغة الانجليزية فى جامعة سان فرانسيسكو لمدة سنة.. ثم التحق بجامعة كلورادو لدراسة العلوم السياسية، وحصل على شهادة البكالوريوس فى سنة ١٩٧١، ثم التحق بجامعة كاليفورنيا لاستكمال دراسته العليا.. قبل عودته إلى السعودية فى يوليو ١٩٧٤ ليعين مدرساً فى جامعة الرياض.

وقيل انه أُتهم بتعاطى المخدرات أثناء وجوده فى الولايات المتحدة وانه أُلقى القبض عليه

فى سنة ١٩٧٠ فى كولورادو بتهمة بيع عقار الهلوسة، المخدر، المعروف باسم «ال. أس. دى» وبالرغم من رفض الملك فيصل التدخل لانقاذه من السجن فإن الأجراس بدأت ترن فى الخارجية الأمريكية عندما بلغهم نبأ اعتقاله.. فطلبت الإدارة الأمريكية من قاضى كولورادو أن يكون لينا مع الصبى لانه جزء من الأسرة السعودية التى لا تريد واشنطن أن تخسرها، فسمح القاضى للأمير بالأقرار بذنبه وأصدر حكما عليه مع وقف التنفيذ ووضعه تحت المراقبة.

وفيما بعد.. بعد اغتيال الملك فيصل، استمرت الصحافة المواليه للسعوديين فى التشنيع على الأمير القاتل مستغلة هذا الحكم.. وأضافت من عندها الكثير من الأوصاف غير الدقيقة والوقائع التى لم تحدث.. فقالت صحيفة الأهرام المصرية: انه شاب مهزوز الأعصاب ليست عنده أى حوافز للعمل.. عاطل.. مجنون مثل أبيه.. ومع أنه عاطل إلا أن مزاجه العصبى خلق لديه تطلعات للحياة والسلطة والشهرة.. وقالت صيحفة الجمهورية المصرية أيضاً.. (٢) ان القاتل ظهر فى احد المرات عاريا تماما فى ردهة أحد فنادق القاهرة الفاخرة. (٣)

وحتى تدلل الأهرام أنه مجنون مثل أبيه روت أن والده جاء إلي القاهرة مرة على طائرة وهو يلبس ملابس المارشالات العسكرية ويحمل على صدره العديد من النياشين والأوسمة المصنوعة من الذهب الخالص، ووقف على باب الطائرة وهو يضع عصا المارشاليه تحت أبطه وأخذ يسأل: اين حرس الشرف الذى يستقبلنى؟.. وأدى ذلك إلى ابلاغ سلطات المطار بوصول شخصية عسكرية كبيرة.. ثم اكتشفوا أنه الأمير مساعد بن عبدالعزيز.

وأضافت الأهرام.. وفى جده قام بمحاولة أخرى وقتل أحد الأشخاص ووضع فى السجن بأمر الملك بعد محاكمة عاجلة وهو الأن محدد الأقامة فى قصره وكثيراً ما وضع تحت اشراف الأطباء لعلاجه من مرضه العصبى.

ولا جدال فى أن مثل هذه الروايات كانت جزءاً من السيناريو السعودى الرسمى لتغطية حادث اغتيال الملك فيصل، خاصة أن السلطات السعودية أدانت القاتل واعتبرته فى كامل قواه العقلية قبل أرتكاب الجريمة وهذا السيناريو حاول أن يصور ما حدث على أن القاتل مجنون لذلك ارتكب جريمته وأنه ليست وراءه أى قوة أكبر فى الداخل أو فى الخارج مما يعنى أن العرش السعودى مستقر تماماً ولا يوجد ما يهدده.

وتجاهل هذا السيناريو ما قالته صديقة الأمير فيصل الأمريكية كريستين سورما: أنه كان ودودا مهذباً وشديد التدين.. وتجاهل ما قاله صاحب البيت الذى كان يسكنه فى

بيركلى: أنه كان أهدأ وألطف شخص أقام عندى وأن كان أحد أصدقاء الأمير قد وجد فيه بعض الغرابة والشذوذ لانه يدفع ثمن مشروبات أصحابه.

ونقلا عن استاذ – فى جامعة كلورادو قالت مجلة نيوزويك الأمريكية: انه شاب لطيف.. متواضع.. لم يتصرف أبداً كواحد من أفراد الأسرة السعودية الحاكمة. (٤)

ويعتقد أحمد زكى يمانى أن الأمير فيصل كان يريد تغيير النظام فى بلاده.. يقول يمانى اعترف بأننى لست متأكداً من ذلك لكن بعد بضعة أشهر عندما احتجزنى الأرهابى كارلوس مع باقى أعضاء الأوبيك، أخبرنى أنه كان على معرفة بالأمير فيصل وقال كارلوس انه كان يمازح صديقة الأمير الأمريكية.. وكيف تقبل أن تصحب متعصباً مثله فأخبرته أن الأمير لم يكن متعصباً وأضافت: وقريباً سيقدم على أمر يبرهن أنه بطل». (٥)

وفى الولايات المتحدة كان الأمير فيصل يقول لأصدقائه فى الجامعة: ان اسرته هى أكبر عقبة فى وجه التقدم فى العالم العربى.. وكان ينتقد تصرفاتها فى كل فرصة تسمح له بذلك.

لكن..

ما الذى جمع بين كارلوس وقاتل الملك فيصل؟

أن العلاقة بينهما تشير إلى وجودها شخص كان الملك فيصل يعتبره ابنا له هو زكى يمانى.. ومصدر هذه المعلومة يمانى نفسه.. فما سر هذه العلاقة؟

وما الذى جمع كارلوس بكريستين سورما، صديقة الأمير، وما الذى كانت تعرفه لتقول لكارلوس أن الأمير سيفعل شيئاً يبرهن به على أنه بطل؟.. وهل هذا البرهان هو قتل الملك فيصل أم شىء آخر؟

أن دور كريستين سوما فى حياة فيصل بن مساعد أكبر بكثير من دور صديقه عرفها أيام الدراسة الجامعية.. لقد تعرف عليها فى سنة ١٩٦٧ فى جامعة كولورادو واستمرت زمالتهما هناك خمس سنوات.. وبعد الحادث حاولت الاتصال به هاتفياً وطلبت التحدث إليه والأطمئنان على سلامته ولكن طلبها رفض.. فكان أن ابرقت إلى الملك خالد تناشده البقاء حياة صديقها.

وقيل أنها كانت عشيقته.. قيل أن أصلها يهودى.. وقيل انها استغلت كعين من عيون المراقبة عليه بعد قضية حبوب الهلوسة.. ولكن ذلك لا يفسر حجم دورها ولا يجيب عن الألغاز السابقة.

ان أبعاد الاغتيال الذى وقع فى القصر الملكى فى الرياض تمتد إلى العمق الأمريكى.. هذا مؤكد.. ولكن إلى أى مدى يصل هذا العمق.. لا أحد يعرف.

فى اليوم التالى للإغتيال قفز اتهام الولايات المتحدة بانها الفاعل.. أو وراء الفاعل.. جاءت أول إشارة إلى ذلك فى مقال افتتاحى لجريدة الأهرام كتبه احسان عبدالقدوس وقال فيه.

انه «منذ سنوات وأحاديث كثيرة تتردد عن صورة الحاكم فى السعودية بعد فيصل وترددت بعض هذه الأحاديث كأنها خطط قد وضُعت لتنفذ بعد الوفاة – ولم يكن الاغتيال يخطر على بال – وبعضها خطط نسبته إلى جهات أجنبية ومنها الولايات المتحدة بالذات.. (٦)

فى اليوم الثالث بعد الاغتيال تساءلت صحيفة «المحرر» اللبنانية: «هل كان فيصل الصغير أداة بلهاء غبية فى عمليات من العمليات القذرة التى احترفتها المخابرات الامريكية».. (٧)

وقبل هذه الأشارة سارع وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنجر ليقول مقدما ودون أن توجه الأتهامات إلى دولته: «أننى واثق تماماً بألا أحد فى الولايات المتحدة له مصلحة فى أغتيال الملك فيصل».. فهل ما قاله كيسنجر على طريقة.. كاد المريب أن يقول خذونى».

وقال فيكتور مارشيتى العميل السابق لوكالة المخابرات المركزية: «أنه يأمل الا تكون الوكالة متورطة فى عملية أغتيال الملك فيصل.. وأضاف: لكن كل شىء ممكن»!.

وتبارت الصحف العربية والأجنبية فى نشر الكثير عن تورط المخابرات المركزية فى عملية إغتيال الملك فيصل ويمكن تصفية أهم ما نشرت هذه الصحف من معلومات على النحو التالى: (٨)

١– إن احتمال وجود أصابع للمخابرات الأمريكية فى اغتيال فيصل يرجع إلى اللعبة الأمريكية القائمة على أساس تغييرالرؤوس فترة بعد أخرى انطلاقاً من مبدأ أن الأستقرار الطويل يخلق المتاعب للبيت الأبيض.

٢– إن الملك فيصل كان يعرف أن المخابرات المركزية تخطط لأغتياله أو الأطاحة به، ولكنه لم يكن يعرف كيف أو متى ستأتى الضربة؟

٣– أن سفيراً عربياً فى بيروت تربطة علاقة وثيقة بالأسرة السعودية المالكة قال: أن الملك فيصل أسر إليه بأن وكالة المخابرات المركزية تخطط الآن للاطاحة بأكثر من رأس فى المملكة.

٤– أن الأمير القاتل وصل إلى المملكة قبل الاغتيال بثلاثة أيام فقط.

٥– أن المحيطين بالملك فيصل يرون أنه كان فى السنة الأخيرة مستغرقاً فى التفكير متشبثاً بالمبادئ التى آمن بها.. وأصبح زاهداً فى الدنيا.. قليل الكلام إلا فى أمور الدولة.. وهجر المخدع الملكى واشترى سريراً من الحديد.

والسؤال الهام: لماذا يقتلونه؟

لماذا تتخلص منه المخابرات المركزية، وكان يُقال أنه أمريكى أكثر من الأمريكيين؟

فى حرب اكتوبر استخدم البترول كسلاح فى الحرب ضد إسرائيل.. وأصبحت أوروبا مثل امرأة عجوز ترتعش من البرد، وراحت تلطم خديها بعد أن فقدت دفء النفط.. وعجزت شركات البترول العالمية عن اتخاذ قرار ضد الدول العربية المنتجة للنفط.

كان الملك فيصل بطل هذا الموقف.. وخفضت بلاده إنتاجها بنسبة ٢٧,٨ ٪ وتلتها الكويت والجزائر ثم باقى دول الخليج على أن يتم خفض الإنتاج فيما بعد ٥ ٪ شهرياً.. وفى الوقت نفسه تقرر زيادة سعر برميل النفط من أقل من ٣ دولارات – قبل الحرب – إلى ٥,١١ دولار بعد الحرب مباشر ثم إلى ١٢ دولار فى يناير ١٩٧٤، ثم راحت الأسعار تقفز بجنون دون أى تدخل.

ومن جانبة قرر فيصل أن يكون الخفض ١٠ ٪ لا ٥ ٪ شهرياً كما قرر مؤتمر وزراء البترول العرب فى الكويت.

لقد ذاق الغرب العطش النفطى لأول مرة فى حياته، ودفع الكثير ثمناً للأرتواء.. واضطرب اقتصاده بسبب ارتفاع اسعار النفط.. وبدأت الضغوط على رجال السياسة من رجال المال.. ثم على رجال المخابرات من رجال السياسة.. وفى الخفاء كان لابد من الأنتقام.

إن اللعب بالنفط أخطر – فى عرف أجهزة المخابرات الغربية – من اللعب بالنار.. وقد سبق أن تدخلت المخابرات المركزية وأطاحت بحكم الدكتور محمد مصدق الوطنى فى إيران بعد أن أمم النفط الذى تستخرجه الشركة الأنجلو – إيرانية.. واعادت حكم الشاه.. وقبل ذلك قتلت المخابرات البريطانية الملك فيصل ملك العراق فى ٧ سبتمبر ١٩٣٣ فى حجرته بالفندق الذى كان ينزل فيه فى بون بسويسرا بعد عودته من جولة بالسيارة.. وقد مات مدير الفندق بعد ذلك فى اليوم نفسه.. وترامت الشائعات بأن موت الملك المفاجىء يرتبط بمفاوضات سرية أجراها مع رجال بترول امريكيين.

وكما أُغتيل فيصل العراق، أُغتيل – فيصل السعودية.

لقد عبث الملك بسلعة النفط المقدسة واستغل ثقل السعودية فى الإنتاج وجعل الغرب يقف على أظافره أو مخالبه.. فكان لابد من أن يشهر، الغرب أنيابه، ويغرز مخالبة فى قلب فيصل.

وبعد الأرتفاع المجنون فى أسعار النفط تضاعفت الأموال فى يد العرب حتى أصبحوا أساطين المال فى العالم، وأنتقلوا من مرحلة أخذ البقشيش إلى مرحلة منحة بسخاء.. فقد كانت الودائع العربية فى سنة ١٩٧٣ حوالى ٢٣ مليار دولار.. وفى سنة ١٩٨٧ وصلت ٤٥٠ ملياراً.

وقد أصبح المساس بهذه الأموال فى الغرب كالمساس بالنفط مسألة محرقة.. وقد تجاسر الملك فيصل وتجاوز الخط الأحمر وقرر تجميد اتفاقية مالية بين السعودية والولايات المتحدة تقضى بأن توظف الأولى ٢٠ مليار دولار إضافية فى مشاريع اقتصادية تقام فى الثانية.. واشتد الخلاف بين وزير مالية السعودية محمد أبا الخيل ووزير الخزانة الأمريكى وليم سيمون وصلت إلى حد أن قطع الوزير السعودى المفاوضات واتصل تليفونيا بالملك فيصل الذى طلب منه العودة إلى الرياض فوراً.

وبسبب ما حدث غضب الملك فيصل وأوقف جميع الاتفاقات الأمريكية.. وأضاف إلى أسباب اغتياله سبباً آخر.. أخطر.. وأعاد بما فعل المواجع التى شعر بها الأمريكيون بعد قرار حظر النفط.

ومن المواجع التى تقلبت على الأمريكيين أيضاً ما قاله فيصل للسفير الأمريكى الجديد الذى جاء لتقديم أوراق اعتماده فى أوائل شهر نوفمب ١٩٧٣: «اننى رجل عجوز.. وأريد أن اصلى وأتعبد فى المسجد الأقصى قبل أن أموت.. وسيتحقق ذلك بأذن الله».

قالها فيصل وهو منفعل وكان انفعاله أقرب للغضب.

وهو غضب أضاف إلى أسباب أغتياله سبباً آخر.

لكن..

كيف توصلت المخابرات الأمريكية إلى الأمير فيصل.. وكيف استخدمته لتنفيذ ما تريده.

أغلب الظن أن الأمير فيصل كان يعانى من اضطرابات نفسيه لا يمكن انكارها أو تجاوزها.. ولا جدال فى أن هذه الأضطرابات زادت بعد ما جرى لوالده وشقيقة وتحولت فى إتجاه تحميل الملك فيصل مسئولية ما جرى لهما.. ثم زادت حدة هذه المشاعر بعد

سفره إلى الولايات المتحدة وتعرضه للتناقض بين الكبت والحرية ولانه عجز عن التوازن فقد لجأ إلى المخدرات.. وبعد القبض عليه بتهمة الأتجار فى المخدرات وصل إلى أقصى درجات الضعف والانهيار.. لكن لم يعترف بمسئوليته عما جرى له، وظل يشعر بأن الملك فيصل هو السبب.. وكان أن تسلطت عليه هذه الفكرة عجز عن التخلص منها.. ولم يكن من الممكن أن يتخلص منها إلا بتنفيذ جريمة قتل.. كما هو الحال فى معظم حالات الفصام التى كان واحداً من مصابيها.

ويمكن أن تكون المخابرات المركزية قد وضعت عينيها عليه بعد قضية المخدرات وقرر القاضى بمراقبته.. واتاحت لها هذه الفرصة أن تعرف تقارير يومية عنه.. وعن كل ما حوله، وذلك خلال مدة طويلة تكفى للحكم على مدى صلاحيته لتنفيذ مهمة قتل شخص هو يريد التخلص منه أيضاً.

وليس من الصعب بعد ذلك القيام بعملية غسيل مخ له وأخضاعة لايحاءات مستمرة لدفعة ناحية الهدف.. والدليل على ذلك ما قالته صديقته أنه سيبرهن على أنه بطل.

لقد أقنعوه بأنه سيكون بطلاً لو قتل الملك فيصل.. وحولوا غيظة وضعفه وأضطرابه إلى رصاصات أطلقها بسرعة وحققت ما أرادوا.. فالعبرة بالنتائج لا بالوسائل.. والنتائج كلها تؤكد أنهم استفادوا من أختفاء الملك فيصل أكثر من استفادتهم منه وهو على قيد الحياة.

■■■

هوامش

(١) ، (٢) جيفرى روبنسون – مصدر سابق ص ١٤١.

(٣) الاهرام والجمهورية ١٩٧٥/٣/٢٦ ولمزيد من التفاصيل نقترح الرجوع إلى كتاب عبدالرحمن ناصر الشمرانى «فيصل القاتل والقتيل» دار الإنسان – بيروت ١٩٨٨

(٤) نيوزويك ١٩٧٥/٣/٣١.

(٥) روبنسون ص ١٤٥.

(٦) الاهرام ١٩٧٥/٣/٢٦.

(٧) الشمرانى ص ٦٦.

١١ كتابات متطرفة في زنازين «الجهاد»

■ جزيرة من الإيمان فى محيط هائل من الكفر، تحاصره أمواج النفاق، التى تحركها ريح الشرك بالله.. وعلى مرمى البصر، قصور، ونساء، وخمور، ومصانع سلاح، وآبار نفط، ونوادى عراة يحكمها الشيطان... وملحدون مسلحون بالبطش يريدون غزو الجزيرة، رافعين شعاراً دنيويا مزيفاً هو الديمقراطية.

هذه صورة العالم التى يراها قادة وامراء الجماعات والتنظيمات الأصولية المتشددة فى مصر الذين جاءوا بعد سيد قطب.. مثل محمد عبدالسلام فرج وشكرى مصطفى وعبود الزمر وصالح سرية... وغيرهم.. انهم يعتبرون جماعاتهم جزيرة الإيمان وآخر ملجأ لعبادة الله.. وهم فقط الذين نجوا من شرور الالحاد.. أما ما حولهم فمحيط من الكفر.. تعيش فيه أسماك القرش المفترسة التى تنهش من حين إلى آخر لحم واحد منهم.. وعلى الجانب الآخر يعيش الشيطان تحت راية الصليب، حيث يؤجره الغرب للفجر والنهب والنساء.. وعلى رأس الغرب.. أمريكا.. أم الشرور.

إن صورة الغرب والولايات المتحدة بالذات - فى عيون الأصوليين وأدبياتهم هى صورة «قص ولزق» من ألبوم صور ضخم يرون كل ما فيه فاسداً.. العرى.. اللواط.. السيطرة.. الجنس الجماعى.. القمار.. الخمر.. التبشير.. الفتنة.. الاثارة.. السينما.. مادونا.. مايكل جاكسون.. لحم الخنزير.. العلمانية.. الجاهلية.. المادية.. الفيديو.. الربا.. والحياة فى ترف على حساب الآخرين.

وهذه الصورة على بساطتها يصعب استخراجها من وثائق وأدبيات هذه التنظيمات، لأن غالبية قادتها يفتقدون الرؤية السياسية التى ترقى بهم إلى مستوى الرؤية الدينية، أو

حتى تقترب منها.. مع أن الدين والسياسة وجهان لعملة واحدة هى الحياة.. ولكن الوجه السياسى للعملة التى يتداولونها سرا فيما بينهم يبدو مطموساً.. ممسوحاً.

انها وثائق غاص زعماء التطرف – الذين كتبوا – فى أعماق أعماق كتب التراث الفقهية، ليفسروا ما يجرى حولهم الآن بعقول وعيون ومشاعر من سبقوهم بمئات السنين.. مثل من يفسر حركة البوينج بقانون الإبل.. ومثل من يرى التليفزيون بعيون ابن تيمية.. ومثل من يتحدث عن الديمقراطية بلسان رجال الدين في زمن التتار.. وقد استعانوا بالأقدمين للتدليل على صحة أفكارهم الاساسية.. التكفير.. الهجرة.. الجاهلية.. مقاومة العصر.. وفتوى الاغتيال.

وليس من الصعب على من يفحص هذه الوثائق أن ينتهى إلى حقيقة هامة هى أن أصحابها – رغم المثالية والرومانسية أحياناً – يعيشون فى كهوف لا يعرفون عن خارجها الكثير.. أو انهم ينتمون إلى زماننا بأجسادهم، أما عقولهم وأفكارهم فتعود إلى أزمنة أخرى غابرة. (١)

ومع أنهم يكررون الكثير من النتائج التى توصل إليها سيد قطب، فإنهم لا يملكون اسلوبه الجذاب.. ولا عيونه الناقدة، ولا ثقافته المتنوعة، ولا تجربته العريضة، ولا إيمانه بالتطور، ولا موهبته فى ربط الدين بالعصر.. ولا رجوعه إلى الحق فى الوقت المناسب.. هم صورة مهزوزة منه.

فى قضية «جماعة المسلمين» – المعروفة بالتكفير والهجرة.. قال زعيم الجماعة شكرى مصطفى:

– إن دستور البلاد مخالف للشريعة.

س : وهل قرأت الدستور؟

جـ : لا .. وأرجو ألا أقرأه...

س : وكيف تحكم على شىء لم تقرأه؟

جـ : ليست القراءة المصدر الوحيد للتعرف على الأشياء.

ولا تعليق.

س : تريد المحكمة أن تعلم رأيك فى الكتابة؟

جـ : يحرم الكتابة فى الجماعة الأسلامية إلا بقدر الحاجة العملية.. وتعلم الكتابة الزائدة حرام. (٢)

ولا تعليق.

وقبل شكرى مصطفى (برز فى ١٩٧٧)، بثلاث سنوات، كان الدكتور صالح سرية، مؤسس حزب التحرير الإسلامى، ومدبر حادث الفنية العسكرية (ابريل ١٩٧٤).. ود. صالح سرية يقسم الناس إلى ثلاثة أصناف: مسلم وكافر ومنافق.. والأخير كافر أيضاً لأنه مسلم شكلا واسماً فقط.. وهذا التقسيم يبدأ به رسالته المعروفة باسم «رسالة الإيمان».. وقد اهتم فى مقدمتها بأن يسجل لنفسه السبق فى هذا التقسيم.. مع أن ذلك غير صحيح.. وقد قال: إن هذه الرسالة هى أول رسالة من نوعها تشخص الكفر الذى وقع فيه المسلمون عن علم أو عن جهل بسبب الظروف التى يعيشونها والتى تجعلهم فى حالة من «الردة الجماعية التى لا عاصم منها إلا الله».. (٣)

ومع أنه حاصل على درجة الدكتوراه فى مناهج التربية، وكان من كبار موظفى الجامعة العربية، فإن تفسيراته السياسية يشوبها القصور.. فهو يعتبر كلمات مثل الاشتراكية والديمقراطية، والوطنية والقومية.. كلمات صريحة للكفر. «لأنها تشكل مناهج للحياة مخالفة لمنهاج الإسلام».. ويفرط فى الشرح فيقول: ففى الديمقراطية مثلاً، الشعب هو صاحب السلطة فى التشريع، يحلل ويحرم ما يشاء وله الحق أن يحلل اللواط مثلا كما حدث فى انجلترا، أو الزواج الجماعى كما حدث فى السويد.. والجمع بين الإسلام والديمقراطية كالجمع بين الإسلام واليهودية مثلا.. فكما لا يمكن أن يكون الإنسان مسلما ويهودياً.. لا يمكن أن يكون مسلما وديمقراطياً معا.

والمدهش .. أن شكرى مصطفى، ومحمد عبدالسلام فرج (مفكر الجهاد الذى دبر حادث اغتيال السادات ومؤلف الفريضة الغائبة) كرر هذا الرأى فيما بعد..

سئُل محمد عبدالسلام فرج:

س: ما رأيك فى الديمقراطية؟

فقال :

جـ : أى ديمقراطية... ديمقراطية الشذوذ الجنسى فى بريطانيا!!

انها رؤية سياسية بسيطة.. وجنيسة.. وهى نفسها رؤية الغرب وهو ينظر للإسلام الذى لا يرى منه سوى الحريم.. وأربع نساء فى خدمة شهوات رجل واحد.. والف ليلة وليلة.. وهارون الرشيد.. وخليفة يتزوج كل أسبوع عذراء فى عمر أحفاده.

جنس بجنس.. والبادئ أظلم.

ولأن الجنس هو المعيار فكل شىء حرام.. الألوان الفاقعة.. الموسيقى.. علم التشريح..

الصور الفوتوغرافية.. الفيديو.. السينما.. المسرح.. روايات احسان عبدالقدوس.. شعر نزار قبانى.. فن الباليه.. عمل المرأة.. صوتها.. شعرها.. واختلاط الاطفال فى دور الحضانة!

ولأن الدولة تبيح ذلك فهى دولة كافرة.. تصرفاتها حرام فى حرام.. بما فى ذلك – كما حدد صالح سرية – تحية العلم والسلام الوطنى وزيارة قبر الجندى المجهول.. وكل من يتعامل معها فهو كافر.. لذلك فخدمة الحكومة حرام.. والجيش أيضاً.. وخبز الحكومة حرام، ورواتبها، وبضائعها ومساجدها كذلك.

والكافر ماله حرام.. وشرفه حرام.. ودمه حلال.. ولو هجرته زوجته، وانضمت إلى احدى هذه الجماعات تصبح مطلقة شرعا.. فهى قد تركت فراش الشيطان إلى حظيرة الإيمان.. ومن حقها الزواج من رجل غيره.. مسلم تماما هذه المرة.. وهو ليس إلا واحدا منهم.

وفى اعترافات تليفزيونية مذهلة – أذيعت فى ٣ مارس ١٩٩٤ – لإرهابى تائب هو عادل عبدالباقى، نفهم نظرية الاستحلال الذى نفذتها هذه الجماعات.. وملخصها كما قال: ان النبى صلى الله عليه وسلم يقول: «بعثت بالسيف بين يدى الساعة وجعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصغار على كل من خالف أمرى».. ومحصلة تفسير الحديث أن الله خلق المال لكى يستعين به المسلمون على طاعة الله فإذا أخذ المشركون هذا المال واستعانوا به على معصية الله وجب على المسلمين سلب هذا المال من أيدى المشركين ويردونه إلى أصحابه الأصليين.. وهذا التفسير جاء فى كتاب المودودى «المصطلحات الأربعة».. وفى الكتاب اننا لا نعيش فى مجتمع إسلامى وان هذه المجتمع وجب على المسلمين أن يغيروه وبناء عليه وجب عليهم أن يأخذوا الأموال من أيدى المشركين للإستعانة بها على طاعة الله وطاعة الله تتمثل فى تغيير النظام الكافر سواء فى مصر أو فى العالم كله.. ومن كتاب المودودى خرجوا بأن كل الأنظمة على الأرض كافرة.

ويسترد عادل عبدالباقى وعيه قائلاً: كنت اقرأ عندما صادفت فى السيرة النبوية امرا كنت قرأته من قبل كثيرا فى كتاب فقه السيرة للشيخ الغزالى عن أن النبى صلى الله عليه وسلم ترك علىّ ابن أبى طالب بعد أن خرج للهجرة، رغم أن علياً كان معرضاً للقتل.. وفسر الغزالى هذا بأن النبى ترك عليا لأن قريشا كانت تستأمن محمدا صلى الله عليه وسلم على أماناتها.. أى شخص لديه شىء غال يتركه للنبى الذى ترك عليا ومعه الأمانات.

«وتوقفت أمام موقف النبى من قريش التى كانت على كفر شديد.. كان الوليد بن المغيرة يحضر عظاماً يفركها بيده ويذهب للنبى صلى الله عليه وسلم ساخراً.. ويقول:

يا محمد هل يستطيع ربك أن يبعث هذا.. إذن هؤلاء كفار لا خلاف على ذلك. وكان يمكن للنبى أن يأخذ أموالهم بحجة انهم كفار.. وأحسست بالقلق من فتوى الاستحلال».

وأخطر من الاستحلال الاستهانة بشرعية العلاقة بين الرجل والمرأة.. ويروى عادل عبدالباقى: «كانت هناك سيدة موظفة فى انشاص، متزوجة، تركب سيارة أجرة إلى عملها، صادفت السائق وهو ملتح، يرتدى جلابية، ويقول للناس: أزيك يا أخى.. وعامل ايه يا أخى.. أثناء تردد هذه المرأة عليه تعرف على وضعها.. وأحضر لها كتبا وبدأ يدعوها للفكر الذى هو عليه. وقال لها تعالى معنا لتعرفى الإسلام. وأخذت بالفعل طفلتها وذهبت مع هذا الرجل الذى كان من مؤسسى جماعات التكفير والهجرة فى مصر.. وكان اسمه عبدالمنعم عسكر.. وتركت زوجها وعاشت مع السائق على انه زوجها لأنه قال أن زوجها الأول كافر.. وانجبت من الثانى طفلا.. وبعد سنتين حدث خلاف بين السائق والمجموعة التى يعمل معها.. فعملوا جلسة وكفروا هذا الشخص.. وخيروها بين البقاء معه أو معهم.. فقالت: مادام كافرا أنا معكم.. وبناء على ذلك فرقوا بينهما.. وتزوجت للمرة الثالثة».

ويقول أيضاً: «ممكن أى واحدة تختلف مع زوجها، فنعقد جلسة ونعتبر الزوج كافرا ونفرق بينه وبين زوجته وبناء عليه كانت هناك سيدات متزوجات وهن على ذمة أزواجهن الأولين».

إن ترجمة الأفكار إلى واقع لم تكن فى صالح هذه الجماعات.. على أنهم فى النهاية كانوا يميلون إلى تفسير التاريخ تفسيرا جنسيا. التاريخ عندهم صراع بين الشيطان والإيمان.. بين هند رستم والامام محمد عبده.. لا شىء يحرك التاريخ سوى النصف السفلى للبشر.. لا اقتصاد ولا استعمار ولا تكنولوجيا ولا جيوش.. وإنما جسد امرأة وجسد رجل.. وثالثهما ابليس.

وفى احدى الوثائق الخطية نجد أن قيادة بارزة فى تنظيم «الجهاد» مثل عبود الزمر تشخص واقع العالم فى سنة ١٩٨٦ – تاريخ الوثيقة – على نحو ما سبق.. ويقول: «بعد أن خفت صوت الإسلام وخبا حكمه فى جنبات الأرض بسقوط الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ على أيدى المتآمرين، زان الشيطان أن يستكمل صولته ويتم وثبته لبسط نفوذه على البسيطة بأسرها فعاث فى الأرض فسادا، وأغرق العالم فى دنيا الشهوات فأنساهم ذكر ربهم فعمت قلوبهم وأبصارهم فضلوا عن السبيل.. وبذلك سول الشيطان للجهال من الناس أن يضعوا المناهج والدساتير يعارضون بها حكم الله ويضاهون شريعته». (٤)

ويستطرد: «وهكذا.. استطاع الشيطان أن يمسك بزمام الحكم وأن يحرك اعوانه وأنصاره ليصدوا عن سبيل الله.. وهو خاذلهم يوم القيامة» ... «ونحن نستطيع من خلال الوهلة الأولى أن نتبين تلك الأنظمة التى تحكم العالم اليوم فلا نجدها تخرج عن ذلك الاتجاه الغربى أو الماركسى أو الصهيونى، وهى جميعا أنظمة كفرية ما أنزل الله بها من سلطان».

وانعكس ذلك على الأمة الأسلامية.. فقد «تحين الإستعمار فرصتة للوثوب على صرح الخلافة بعد أن وهنت قوتها وخارت عزيمتها».. فلم تستطع أن تواجه الزحف الجاهلى المعادى الحاقد على الإسلام واهله.. فترنحت الأمة الإسلامية وسقطت ثم تفتتت إلى دويلات هشة.. حكمها حكام يدينون بالولاء للشرق أو الغرب.. فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ورفعوا لواء الديمقراطية تارة والعلمانية والوطنية والقومية والحياة النيابية والحرية الشخصية تارة أخرى!

والحل؟

الحل فى رأيه: أن «تهب جماعات من المسلمين المتحمسين إلى مواجهة ذلك الاحتلال والتحلل الاخلاقى فى محاولة لانتشال الامة واسترداد ما سلب من امجاد الآباء والاجداد».

والمقصود.. ان المشكلة فى سيطرة الشيطان وضياع الاخلاق وعلاجها فى استرداد ماضاع.

وهو تبسيط يصلح للخطب الحماسية لكنه لا يصلح لتفسير الأمور محكمة التعقيد التى تحكم العالم وتسيطر عليه.. مقل الحاجات الاقتصادية المتنوعة والموزعة فى اربعة انحاء الدنيا».

ويصل الصراع عليها إلى حد الحروب وسفك الدماء.. فالطعام والماء والطاقة اشياء اصبحت جزءاً من الأمن القومى تقاتل عليها الدول من أجل الشعوب.. فالجائع والهزيل والمصاب بفقر فى الدم والدخل لا يعرف من الاخلاق الا ما يعيد الشبع والصحة والقوة إليه.. وعند مستوى الفقر والعدم لافرق بين الإنسان والقرد.. والقرد لا يعرف الفرق بين كارل ماركس وعمر عبدالرحمن.. ولا بين أنثاه وأنثى جاره.. إن العدم يهبط بالإنسان إلى مرتبة «الزريبة» وفى الزريبة لا وجود للأخلاق كما يتخيلها عبود الزمر ورفاقه.

وبفعل ثورة الاتصالات – التى لا تتوقف معجزاتها – أصبح العالم قرية صغيرة لا يمكن الانعزال فيه عما يجرى حولنا وإلا متنا من الوحدة قبل أن نموت من الجوع.

ومن الممكن التعامل مع الدنيا كلها دون خوف من التورط فيما لا يناسبنا إذا كنا أقوياء

نثق فى أنفسنا.. ولا نخاف عليها من الفتنة.. واكتشاف واستثمار الجوانب الايجابية فى تجارب الآخرين فريضة.. فالديمقراطية مثلا ليست شذوذا فقط.. انها قبل ذلك مساحات شاسعة من الحريات والحقوق الإنسانية.. يستحيل أن تتعارض مع الدين.. فإرادة السماء لا تتعارض مع إرادة البشر.. وحكم الشعوب لا يتعارض مع حكم الله.

والقليل من وثائق هذه الجماعات هو فقط الذى يتيح لنا التعرف مباشرة على ارائهم السياسية فى الولايات المتحدة.. وفى مخططاتها للسيطرة على الشرق الأوسط.

وأوضح هذا القليل.. وثيقة خرجت من فرع تنظيم الجهاد بقيادة «سالم الرحال» فى منتصف الثمانينيات بعنوان: «أمريكا ومصر والحركة الإسلامية». (٥)

وسالم الرحال أردنى الجنسية.. كان يدرس فى الأزهر حتى يوليو ١٩٨١ ثم قامت مباحث أمن الدولة بترحيله خارج البلاد.. فترك وراءه تنظيما أسماه الجهاد.. تولى قيادته نائبه كمال السعيد حبيب، وبعد اتصالات من جانب تنظيم الجهاد الذى يرأسه محمد عبدالسلام فرج انضم جهاد الرحال إلى جهاد فرج واصبحا تنظيماً واحدا.

والوثيقة نشرها الباحث د. محمد سيد أحمد دون ذكر أسم كاتبها ونحن نعتقد أن كاتبها هو كمال السعيد حبيب.. فهو بحكم دراسته فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية مؤهل لذلك.. وفيما بعد وهو فى السجن يقضى مدة العقوبة واصل دراساته العليا وسُمح له بمناقشة رسائلة العلمية.

ومع أن الوثيقة لا تحمل تاريخا فإن المعلومات الواردة فيها تشير إلى انها مكتوبة فى سنة ١٩٨٧ على الأقل.. فهى تأخذ على مصر «انها الدولة العربية الوحيدة التى لم تدين العدوان الأمريكى على ليبيا فى خليج سرت عام ١٩٨٧».

وتدين الوثيقة التحالف الاستراتيجى المعقود بين مصر والولايات المتحدة.. هذا التحالف الذى فقدت مصر من خلاله استقلالها السياسى والاقتصادى والعسكرى.. «فهى الآن تعيش على المنح والقروض ومهددة بالافلاس فى أى وقت ومن الناحية السياسية تراعى المواقف الامريكية قبل أن تتخذ مواقفها السياسية.. أما من الناحية العسكرية فقد تحولت مصر فى ظل سياسة التسليح والتدريب المعتمدة على أمريكا.. تحولت من قوة ضاربة فى الشرق الأوسط تعادل إسرائيل وتفوقها أحيانا إلى قوة من الدرجة الثالثة أو الرابعة فى المنطقة».

وتتحدث الوثيقة عن نشأة الولايات المتحدة ونظامها السياسى وطوائفها الدينية واساليب مخابراتها المركزية التى باءت بالفشل فى أماكن كثيرة من العالم مثل كوبا ولبنان وفيتنام..

«عندما واجهت شعوبا لا تهاب الموت ويرجو ابناؤها الشهادة فى سبيل دينهم».. ثم تتحدث الوثيقة عن العوامل التى تؤثر على موقف البيت الابيض والإدارة الأمريكية من الحركات الإسلامية» مثل:

١ - انتماء دولة الولايات المتحدة إلى (النصرانية الصليبية).. التى تكن حقداً على الإسلام وأهله.. فالحقد الصليبى هو المحرك الحقيقى والاساسى لكل المواقف الامريكية تجاه الحركة الإسلامية على الرغم من كونها دولة علمانية فى حياتها اليومية وقوانينها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها».

٢ - المصالح الامريكية فى المنطقة وقناعة الولايات المتحدة بأن تنامى قوة الحركة الإسلامية يهدد هذه المصالح بالخطر».

وترى الوثيقة.. أن «الحقد الصليبى على الإسلام يأخذ فى امريكا اكثر من بعد وعلى اكثر من مستوى».. على مستوى الاعلام تبنت الصحف «توجيه الطعنات إلى الإسلام كمنهج وعقيدة».

.. ففى صحيفة «ديلى شيكاغو»: «إن الشيوعية أضل من الإسلام لأنها فى الاصل فكرة غريبة يمكن الالتقاء والتفاهم معها.. اما الإسلام فلا التقاء معه ولا تفاهم الا بلغة الحديد والنار».

وتستطرد: الصحف الأمريكية مثل الصحف البريطانية فى الهجوم على الإسلام.. جريدة» صنداى تلجراف» قالت مثلا: إن مجرد الاكتفاء بمراقبة الانتفاضة الإسلامية فى الشرق الاوسط لن يفيدنا بشىء وإذا لم نتجه إلى مقابلة هذه الانتفاضة بعنف عسكرى يفوق عنفها الدينى فإننا نكون قد حكمنا على العالم النصرانى بمصير مهين يجلبه على نفسه إذا استمر تهاوننا مع المسلمين المتطرفين.. والمقال بقلم بير جارين ردرستين.. وكتب المعلق اليهودى أشعيا برمان يقول:

«إن على أوروبا أن تظل خائفة على مستقبلها من الإسلام.. ذلك الدين الذى منذ أن ظهر فى مكة لم يضعف من الناحية العددية بل هو فى ازدياد واتساع.. ثم ان الإسلام ليس دينا فحسب بل أن من أهم أركانه الجهاد وهو مايجب أن ينتبه إليه الغرب جيداً».

وعلى مستوى صناع القرار قال الرئيس السابق رونالد ريجان أثناء حملته الانتخابية: «سأقود حرباً صليبية جديدة».. وقبل ذلك قال اوريجين روسنو مستشار الرئيس الأسبق جونسون «لقد كان الصراع محتدما بين المسيحية والإسلام منذ القرون الوسطى وهو مستمر حتى الآن».

وقال: «ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف فى الصف المعادى للإسلام وإلى جانب العالم الغربى والدولة الصهيونية لانها إن فعلت عكس ذلك فانها تتنكر للغتها وفلسفتها وثقافتها ومؤسساتها».. وفى تقرير مقدم إلى الكونجرس عن قوة الانتشار السريع.. «إن أهم الاخطار التى تتعرض لها المصالح الامريكية هو التطرف الدينى».

اما المصالح الأمريكية فى المنطقة فهى البترول الذى يفى بحوالى ٥٥٪ من احتياجات الغرب النفطية.. وتواجد مكثف لشركات البترول الامريكية التى ربحت فى عام واحد (١٩٧٩) عقودا بنحو ٦ مليارات دولار.. وتصدير السلع الامريكية إلى الاسواق العربية بمبالغ تزيد عن ٢٢ مليار دولار سنويا.. واستثمار فوائض النفط فى بنوك وشركات امريكية وهى أعلى فوائض مالية فى العالم كله.. وقبل ذلك كله ضمان أمن إسرائيل.

ولان مصر دولة كبرى فى المنطقة فإن الذى يسيطر عليها يسيطر على المنطقة وقد سعت الولايات المتحدة إلى السيطرة على مصر لاستغلال موقعها الاستراتيجي وموانيها وممراتها المائية الحيوية فى التسيهلات والخدمات العسكرية المطلوبة لمواجهة الاتحاد السوفيتى ولحماية الأنظمة العربية المعتدلة الحليفة، وللتدخل فى الخليج فى حالة وقوع ما يهدد النفط والمصالح الامريكية الأخرى هناك».

وتضيف الوثيقة:

«ولأن مصر مرتبطة بالعالم الإسلامى، وقوة مؤثرة فيه فيمكنها أن تقوم نيابة عن الولايات المتحدة بمواجهة الصحوة الإسلامية المنتشرة فى المنطقة بأسرها ويمكنها معادلة المد الإيرانى الإسلامى المحتمل أو المفاجىء بإثارة السنة والشيعة..

ولذلك يطلب «الامريكان» من مصر الاستقرار الداخلى والاستقرار الاقليمى واستمرار السلام مع إسرائيل وأن تجذب باقى الاطراف العربية للتسوية السلمية.. وحتى يمضنوا ذلك تغلغل «الامريكان» فى كل شبر فى مصر.. فى الإدارة العليا والاقتصاد والجيش والتسليح والأمن الداخلى والصحافة والتليفزيون وتنظيم الأسرة والتوكيلات التجارية والمصانع الجديدة وتوربينات السد العالى ورصف الطرق ونقل القمامة ومحطات الكهرباء وبرامج التعليم ووسائل منع الحمل.. أى تدخلوا فى علاقة الرجل بزوجته.

وتعلن الوثيقة: إن الحركة الإسلامية فى مصر «ترفض» الوجود الامريكى وتعمل على طرده وترفض الوجود السوفيتى فى سوريا وافغانستان وتعمل على هزيمته.. أى انها ضد القوى العظمى وعملائها.. خاصة وأن المصالح الاميريكية فى المنطقة تعنى نزيفا للموارد الإسلامية واستمرارا لتبعية الأراضى الإسلامية لها.. وتعنى تغييبا للإسلام عن

الاراضى المسلمة.. وتعنى اضعاف الإدارة الإسلامية ومسح الشعوب الإسلامية وتفريغها من قيمتها ومفاهيمها».

وتنتهى الوثيقة بمطالبة الحركة الأسلامية بأمور كثيرة منها:

١- استيعاب الحقائق وتوعية المسلمين بها.

٢- مواجهة امريكا وعربدتها وبطشها بتقديم مزيد من الدماء ومزيد من الشهداء ورفع شعار «الخلافة أو الشهادة».

٣- العمل على افشال كل ماهو امريكى.

٤- مقاطعة العدو الصليبى ومحاربته ومحاصرته ومنع التعامل معه.

٥- كشف الدور الذى يلعبه الحكام العلمانيون العملاء للولايات المتحدة ومدى خدمتهم للمصالح الصليبية الأمريكية فى المنطقة.. «وهم بهذا مرتدون يجب محاربتهم وخلعهم من كراسيهم». (٦)

انتهى اهم ما جاء فى الوثيقة.

وواضح انها معدة بخبرة وقدرة على جمع المعلومات وتحليلها واستعمالها فى الوصول إلى النتائج المطلوبة.. وهو ما تفقده معظم ادبيات ووثائق الجماعات المتطرفة وهو ما يجعلها وثيقة متميزة.. ولو نزعنا منها العبارات ذات الصبغة الدينية لما تصورنا أن الوثيقة صادرة عن جماعة من هذه الجماعات ولكن من الممكن أن نتصور أنها صادرة من جماعة يسارية.. وليس فى هذا التصور مفاجأة.. فالهدف واحد والعدو واحد.. حتى ولو كانت الوسيلة والصياغة يحملان الاختلاف.

كان سالم الرحال أمير التنظيم الصادرة عنه الوثيقة يعيش فى رواق «الشوام» فى الأزهر قبل ترحيله.. وكان مثل صالح سرية - الفلسطينى المولد - يؤمن بسياسة الانقلاب العسكرى.. فورا.. لذلك سعى إلى اختراق الجيش ونجح فى ضم رائد المدرعات «عصام الدين القمرى» الذى كان على رأس خلية متطرفة فى الجيش ولم يقبض عليه الا فى ٢٥ اكتوبر ١٩٨١ بعد اغتيال السادات بأكثر من اسبوعين.

وكان سالم الرحال يستهين بمحمد عبدالسلام فرج ويقول عنه «العيل بتاع بولاق عاوز يعمل أمير».. ولكنه كان يُودع ثقته فى كمال السعيد حبيب الذى كان عمره ٢٤ سنة عندما عرض عليه الرحال مشاركته فى تأسيس التنظيم.. ووافق كمال السعيد الذى سيعرف فيما بعد فى التنظيم بأسم أبو عبد الرحمن.. وهو الأسم الذى وقع به وثيقة

«الاحياء الإسلامى» التى كتبها فى السجن فى سنة ١٩٨٦ ونشرها - وبعد ٥ سنوات - الدكتور رفعت سيد أحمد. (٧)

فى هذه الوثيقة يفسر كمال السعيد التاريخ على أنه صراعات مستمرة بين الاديان بالتحديد بين الإسلام من جهة واليهودية والمسيحية من جهة أخرى.. وهو يصف العالم الغربى الذى تقوده الولايات المتحدة بالعالم النصرانى.. ويصف اهتمام الغرب بالإسلام بأنه اهتمام بلغ حد الفزع.. ثم هو يميز بين «خمس» مراحل لهذا الاهتمام:

١- مرحلة العصور الوسطى التى كان فيها رجال الدين المسيحى يسيطرون على الحكم المدنى أيضاً وكانوا يسعون إلى ادخال العالم الإسلامى فى الديانة النصرانية.. الكاثوليكية.. وهذا ما جعلهم يشعلون نيران الغزوات والحروب الصليبية التى سبقتها حركات فكرية تبشيرية حاولت اقناع العالم بأن محمد صلى الله عليه وسلم من حيث الجوهر - كان كاثوليكيا وأن الإسلام حلقة من حلقات التطور بين الالحاد والكاثوليكية».

٢- مرحلة الامبراطورية العثمانية (الإسلامية) التى طرقت بيد قوية أبواب أوروبا فى باريس وفيينا والأندلس وجعلت الغرب يهب من نومه فزعاً فى عصر النهضة.

٣- مرحلة الاستشراق التى بدأت بغزو من الرحالة والعلماء والجواسيس لاعادة اكتشاف الإسلام وبلاد المسلمين تمهيداً لغزو أشد.. الغزو الاستعمارى المسلح.

٤- مرحلة اسقاط الخلافة الإسلامية واستبدالها بالحضارة الغربية.

٥- مرحلة الغزو اليهودى الصليبى المشترك أو بلغة السياسة مرحلة الهيمنة الصهيونية الأمريكية.

ونحن الآن فى المرحلة الأخيرة وقد بدأت بإعلان دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ وتدعمت بهزيمة يونيو عام ١٩٦٧ . (٨) وقويت بعد اتفاقية فض الاشتباك بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٤ .. «حيث استطاعت الولايات المتحدة (زعيمة العالم الصليبى) ومن خلال سياسة كيسنجر اليهودى أن تثبت اقدامها فى المنطقة بعد غياب طويل وذلك باستيعاب أكبر أطراف الصراع مع إسرائيل تحت ابطها بحيث صار طرفا الصراع يستظلان بمظلة واحدة هى المظلة الأمريكية، وقد اصبح العم «سام» هو الأب الأكبر الذى يختصم إليه طرفا الصراع حين يختلفان، ويقوم هو دائما بحل هذا الخلاف بطريقة هزلية، حيث يربت على كتفى كل منهما (باعتبارهما طفلين صغيرين) ويعطى كلا منهما قطعة حلوى».

والتكامل بين إمريكا وإسرائيل فى هذه المرحلة - من مراحل الصراع بين الإسلام والصليبية - تستهدف تجزئة المنطقة العربية وغزوها معنويا وهو غزو يستهدف فى

النهاية إلى «افقاد هذه الشعوب الثقة فى دينها وتاريخها وحضارتها وثقافتها».. أى يهدف إلى عزلها عن بيئتها الطبيعية ليضعها فى «صوبة» الحضارة الغربية، وهذا ما جعل المجتمعات العربية الإسلامية «مجتمعات موزاييك».. أى مجتمعات مكونة من «كسر» حضارات مختلفة.

والوجه الاقتصادى لهذه «العزلة الثقافية» هو جعل العالم الإسلامى سوقا إستهلاكية لفائض المنتجات الغربية!.

ويتساءل أبو عبد الرحمن: «أليس الذى يحكم قيم مجتمعنا فى مصر ويوجهها هى قيم اعدائنا.. خاصة الأمريكان؟

.. إن كل ما هو امريكى اصبح دليلا «على التحضر والمدنية».. وكل ما ينتمى إلى الإسلام اصبح دليلاً على «التخلف والرجعية».. وكل ما ينتمى إلى عالم المادة والمتعة والراحة يعبر عن التحضر وروح العصر.. «بينما كل ما ينتمى إلى الأخلاق والزهد وكبح جماح النفس أملا فى متعها فى عالم الآخرة هو تعبير عن افكار بالية لا معنى لها.. «أليس ذلك كله هو ما يسود مجتمعنا الآن؟

ثم يضيف: وهنا علينا - كطليعة مجاهدة للأمة - ورغم وجودنا خلف الأسوار أن ننبه إلى خطر ما يتعرض له شعبنا من عملية غسيل مخ جماعية واعادة تشكيل كاملة لقيمة من خلال الهيمنة الامريكية التى ستستهدف صميم وجودنا كمسلمين.. وذلك يستلزم:

١ - التعامل مع أدوات حمل العدوى الفكرية.. النصارى واليهود.

٢ - التعامل مع الطبقات المختارة لاضعاف المفاصل المتحكمة فى الجسد السياسى، ويمثل هذه الطبقات.. رجال الحكم وقادة الفكر واصحاب الأعمال واساتذة الجامعة ومشاهير الادب والصحافة ونجوم الفن ونساء المجتمع.. انهم «الطابور الخامس» الذى ينخر فى عظام المجتمع لمصلحة القوى الأجنبية.

٣ - التعامل مع مراكز الابحاث التى - تحت دعاوى العلم - تقوم باستكشاف حركة الفهم النفسى ومعرفة ما يعطل الغزو الثقافى الغربى.. ومعظم هذه الابحاث تسيطر عليها «المخابرات الامريكية».. التى تعتبرها خطوة متقدمة لا تقتصر فقط على جمع المعلومات وانما تمتد إلى تحليلها وإستعمالها فى التنبؤ بما سيحدث حتى لا يتكرر ما حدث فى إيران التى عجزت المخابرات الامريكية - رغم قوة نظام الشاه وتوافر المعلومات عنه - أن تتنبأ بما سيحدث له.. حتى أن الرئيس الأمريكى وقتها جيمى كارتر قال قبل أربعة اشهر فقط من قيام الثورة الخومينية: إن إيران جزيرة من الأمان فى وسط محيط

من البركان.

ومن ثم فان التقاليد الامريكية فى التعامل مع الشعوب قد تعرضت لاعادة تقييم كاملة بعد الثورة الإيرانية لمحاولة الاحاطة بمعرفة الوقائع المستقبلة خاصة فيما يتعلق بحركات الرفض الثورية التى تستند إلى الإسلام».

ويستطرد: ولا جدال فى أن السياسة الأمريكية والإسرائيلية قد نجحت تماما فى بث الفرقة داخل المعسكر الإسلامى - خاصة العربى - وذلك بتحييد مصر وتمزيق لبنان واثارة الفوضى فى بلاد أخرى.

كذلك نجحت السياسة - بشكل لا نظير له - فى احداث هزة عميقة فى كيان المجتمعات المسلمة على المستوى القيمى خاصة فى مصر.. «بلغت حدا من العمق اعظم مما عانت منه لأكثر من قرابة قرن من الزمان.. مثل المخدرات.. الانفتاح الاستهلاكى.. تفجر التطلعات الطبقية.. تنشيط رغبات جمع المال المحمومة.. الغزو التليفزيونى.. الاباحية.. الاختلاط.. وحصر معنى الحياة فى مفهوم يدور حول اللذة والسرعة والاستجابة لمطالب اللحظة الحالية.. واختزال دور الإنسان إلى حد كبير واحلال الاله محله.

وتقول الوثيقة: انه فى مواجهة هذه السياسة قامت الحركة الإسلامية لانقاذ المجتمعات التى تنتمى إليها.. وهذه الحركة تفهم الصراع بين الإسلام والنصرانية واليهودية على انه صراع حضارى ومن ثم فهو مصيرى».. وتفهم أن «انتهاء هذا الصراع لا يكون الا بالاجهاز على الخصم أو ادخاله فى دائرة النفوذ للخصم الاخر وذلك باعلان تخليه عن اعتقاده».. إن الإسلام.. وهو وحده القادر على أن يمثل بحق قوة ثالثة يمكنها أن تقود العالم الفقير كله لتحقيق شىء من العدل على هذه الأرض».

أنتهى أهم ما فى الوثيقة.

وكاتب الوثيقة حالة فريدة بين قيادات التطرف.. فهو يتمتع بثقافة مدنية يوظفها فى خدمة دعوته الدينية.. وليس العكس.. إنه يفهم فى السياسة والجغرافيا وعلم النفس.. وهو قادر على قراءة التاريخ ومناقشة اراء الخصوم وهو لا يشعر بحساسية من قراءة افكار غيره من خارج الحركة الإسلامية.. مثل فرويد وسلامة موسى وحامد ربيع وهيكل!

بدرجة اقل عمقاً تدخل وثيقة إسلامية أخرى حلبة التفسير.. والوثيقة عنوانها «فلسفة المواجهة».. صدرت سنة ١٩٨٧ وكاتبها شخص يدعى «أبو الفداء»(٩) وهو يقول: إن المواجهة الإسلامية المطلوبة اليوم لازمة بشقيها.. الحجة والسيف.. اللسان والأسنان.. الدعوة والقسوة.. البيان والنيران.

وبعد أن يدلل على شرعية المواجهة يحدد مصر ارضا لها.. فالحركة الإسلامية فى مصر كانت ولا تزال «رائدة الحركات الإسلامية فى العالم» والثورة الإسلامية فى إيران. «استمدت جذورها من رائدى التحول الإسلامى: حسن البنا وسيد قطب» إن مصر ينبغى أن تصبح هدفاً لكل رجال الحركة الإسلامية فى العالم.. لانها القلب.. ولو سيطرت عليها الحركة الإسلامية وحكمتها، وسيطرت على ماحولها.. فهى كبيرة السكان، متنوعة الموارد، متوسطة الموقع.. وقوية من الناحية العسكرية.

والمعنى.. أن سقوط مـ ر ضرو ة لهم، وبـ اءهـ علـ ما هـــى عليه ضـــرورة للغـــرب.. خاصة الولايات المتحدة التى تقول الوثيقة.. أنها مستعدة «للتدخل العسكرى ضد أى خطر داخلى من قبل المتطرفين المسلمين.. والتى تحرص – كما تضيف الوثيقة – على ألا تفلت من قبضتها إلى قبضة المتطرفين المسلمين وقد أدى ذلك إلى التدخل المباشر فى مصر لأن مصر أصبحت حجر الزاوية للنفوذ الامريكى فى الشرق الاوسط.

ويعتقد «ابو الفداء» أن الولايات المتحدة تسعى إلى:

١– القضاء على ظاهرة التطرف الدينى.

٢– تدعيم الأنظمة التى تمثل خط الدفاع الأول للغرب ضد الإرهاب القادم فى العالم الإسلامى.

ثم.. يقول: «إن امريكا لم تعد تعطى أهمية لأجهزة مخابرات الدول التابعة لها بعد الصفعة التى تلقتها فى إيران.. حيث غابت كل تقديراتها وسقطت أمام الثورة الإيرانية.. فاصبحت امريكا تباشر مهامها المخابراتية بنفسها وليس أدل على ذلك من أن التنظيم الناصرى (يقصد تنظيم ثورة مصر) الذى كُشف عن وجوده فى الجيش المصرى قيل ان المخابرات المركزية الامريكية هى التى كشفته.. ولهذا فإن امتلاء الشارع المصرى والمؤسسات المصرية برجال المخابرات المركزية لم يعد من الأمور المستنكرة.

ويستطرد: «أن هذا وغيره يدعونا إلى القول بأن معركتنا مع العالم الغربى انما هى معركة واقعة بالفعل وتستخدم فيها ضدنا كل الاساليب والوسائل العسكرية والمخابراتية والفكرية والاجتماعية.. فلا ينبغى بحال اغفال هذه المعركة أو تنحيها من تصورنا فى صراعنا مع الجاهلية اليوم والا فستكون معاركنا هامشية لا نصر فيها مهما كان حجم النجاح».

ثم.. يرصد النظام المصرى لمواجهة حركة التطرف الدينى فى ٢٢ وسيلة منها: تشويه الحركة.. حشد الجماهير ضدها.. محاولة عزلها.. التعتيم الاعلامى حولها.. بذر بذور الخلاف بين فصائلها.. اختراق تنظيماتها.. توجيه الضربات الأمنية لقياداتها.. تفنيد افكارها بواسطة رجال الدين الرسميين.. استخدام الديمقراطية لسد الفراغ الذى تنمو فيه الحركة.. استقطاب احزاب المعارضة ضدها.. والاستعانة بالغرب للتدخل فى الوقت المناسب.

وتنتهى الوثيقة بهتاف: «الله اكبر.. الخلافة قادمة».

ويبدو أن هذا التقرير – الذى يتسم بالقوة والخطورة – للدور الامريكى فى مواجهة الحركات الإسلامية، ودعم النظم المضادة لها قد خلق تيارا – داخل التنظيمات المتطرفة – يرى ضرورة التفاهم والتعامل مع الإدارة الامريكية.. وبسبب علاقات قوية تكونت فى افغانستان كان من السهل اعادة الود القديم وتجديد ميثاق التعاون المشترك.. وفى الوقت نفسه وجد هذا الاتجاه هدى داخل الإدارة الامريكية التى تعلمت الدرس فى إيران، ولم تعد تقبل بوضع البيض كله فى سلة واحدة.

وهكذا.. التقت إرادة الطرفين.. وسافر عمر عبد الرحمن إلى الولايات المتحدة ليصبح بفضل أضواء الاعلام – البديل القادم فى مصر!

■■■

هوامش

(١) هذه الوثائق جمعها ونشرها الباحث الدكتور رفعت سيد أحمد، مما وفر مجهود الحصول عليها، وهو مجهود لا يمكن الاستهانة به وكان نشر الوثائق فى كتاب «النبى المسلح» .. صدر الجزء الأول منه بعنوان «الرافضون» وصدر الجزء الثانى والأخير بعنوان «الثائرون» - الناشر: رياض الريس - لندن ١٩٩١ ولكن يمكن معرفة صورة مناسبة عن اهم هذه التنظيمات وتاريخها وتكوينها وأفكارها فى كتاب عادل حمودة: «الهجرة إلى العنف» .. ١٩٨٧ وكتابه «اغتيال رئيس» .. ١٩٨٥ و«قنابل ومصاحف» ١٩٨٥، و«سيد قطب من القرية إلى المشنقة» .. ١٩٨٧ وهذه التواريخ للطبعات الأولى.

(٢) محضر التحقيق مع شكرى مصطفى - جلسة ١٩٧٧/١١/٩ القضية ٦ لسنة ١٩٧٧ - امن دولة عسكرية عليا ويمكن معرفة المزيد عن افكار شكرى مصطفى التى عرضها أمام المحكمة بالرجوع إلى كتابنا «الهجرة إلى العنف» - ٢٢٥ وما بعدها.

(٣) وثيقة «رسالة الإيمان» .. النبى المسلح جـ ١٠٠ ، ص ٣١.

(٤) عبود الزمر «منهج جماعة الجهاد الإسلامى» .. - مخطوط وثائقى غير منشور - القاهرة ليمان طره ١٩٨٦ من المصدر السابق جـ١ هى ١١٠ وما بعدها.

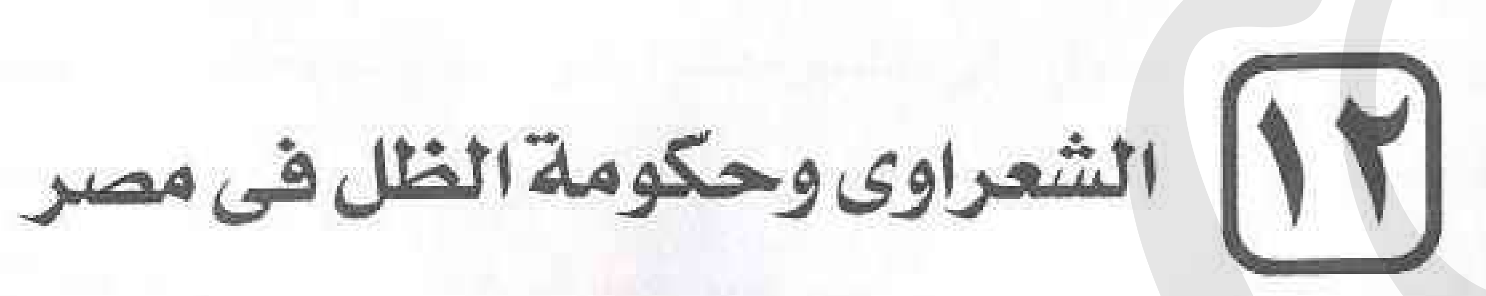
(٥) «النبى المسلح» جـ ١ ص ١٧٩ وما بعدها، ولمزيد من التفاصيل حول تنظيم سالم الرحال، نقترح الرجوع إلى كتابنا «قنابل ومصاحف» ص ٥٣ وما بعدها.

(٦) المصدر السابق جـ ١ ص ١٩١.

(٧) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٦٩ وما بعدها.

(٨) نلاحظ فى هذه الوثيقة عبارة هزيمة يوليو وليس هزيمة يونيو ولا نعرف هل الخطأ فى الأصل أم هو خطأ مطبعى.

(٩) المصدر السابق جـ ٢ س ٢٩٣ ومابعدها، ويلاحظ عموماً اننا حاولنا التبسيط حتى يسهل على القارىء متابعة أهم افكارها.



■ فى الشوارع، والمترو، والمطاعم، والصحف، وشبكات التليفزيون كان السؤال الذى بلا اجابة:

هل تورطت المخابرات المركزية مع عمر عبد الرحمن؟

انفجر السؤال على لسان الإنسان العادى فى امريكا بعد أن انفجر «مركز التجارة العالمى» فى نيويورك وأصبح الشيخ الضرير نجماً فى الأخبار.. لكن.. لا أحد فى وكالة المخابرات المركزية أُجبر على الإجابة إلا بعد أن تحول السؤال إلى استجواب فى الكونجرس.

وعلى حد قول مراسلة روزاليوسف فى واشنطن «حنان البدرى» فإن مصدرا مسئولا فى وكالة المخابرات المركزية قال على استحياء: نعم.. نحن نعرف الشيخ عمر عبدالرحمن.. ونحن الذين سهلنا له الحصول على تأشيرة دخول الولايات المتحدة من القنصلية الامريكية فى السودان.. فى يوليو ١٩٩٠ دون النظر فى كشوف وقوائم الارهابيين الموجودة فى كومبيوتر السفارة.. والتى كان فيها أسم عمر عبد الرحمن.. والذى حدث أن مسئول القنصلية سأل مندوب وكالة المخابرات المركزية عن أسم الشيخ.. لكن مندوب الوكالة أكد لمسئول القنصيلة ضرورة تحرير الأسم «كأسم نظيف» وبالتالى أُعطيت التأشيرة له. (١)

لم يكن الأسم نظيف كما قال الناطق بأسم الخارجية الأمريكية ريتشارد باوتشر.. بل كان الأسم فى القائمة «الحمراء» التى تضم الاشخاص غير المرغوب فيها فى الولايات المتحدة.. ولكن.. «نتيجة اخطاء بيروقراطية.. دخل عمر عبد الرحمن نيويورك.. ما قاله باوتشر جاء فى بيان رسمى صدر عن الخارجية الامريكية فى مارس ١٩٩٣، ولكن فى يوليو من العام نفسه جاء اعتراف المخابرات المركزية ليحسم الأمر.

وعمر عبد الرحمن لم يذهب إلى باكستان أو افغانستان.. لكنه كان على علاقة قوية بحكيمتيار الذى كان على ما يبدو حلقة الصلة بينه وبين المخابرات المركزية.

وأغلب الظن أن المخابرات المركزية تصورت أنه خومينى مصر، وأن احتضانه ورعايته فى نيويورك يجعلها تراهن على المستقبل فى مصر إلى جانب أنها تمسك بخيوط الواقع.. ومرة أخرى كانت عقدة الفشل فى إيران تسيطر عليها.

وجرى بين وكالة المخابرات المركزية (CIA) وجهاز الأمن الداخلى المتمثل فى المباحث الفيدرالية (FBI) ما يجرى عادة من صراعات بين هذه الأجهزة.. وكان وجود عمر عبدالرحمن فى نيويورك أحد الموضوعات الساخنة التى فجرت مزيداً من الصراعات بين الجهازين اللذين يضعا الولايات المتحدة بين انيابهما.

كان من رأى المباحث الفيدرالية أن الشيخ يجب أن يذهب.. وكان من رأى المخابرات المركزية أن يبقى.. وقد انتصر رأى المخابرات.. لكن المباحث لم تيأس.. وهكذا دست بين رجال الشيخ واتباعه عميلاً لها.. نجح فى أن يكشف قبل التنفيذ عملية «فخ كوينز».. لتفجير مقر الأمم المتحدة ومقر المباحث الفيدرالية ونفقى «هولاند ولنكولن» وتدبير اغتيال بطرس غالى وحسنى مبارك وعدد من النواب الامريكيين.

العميل أسمه عماد سالم.. وهو مصرى الأصل.. هاجر إلى امريكا لتحسين اوضاعه المالية.. وقد وصف نفسه بأنه كان ضابطا فى الجيش المصرى، وانه أحد افراد الحراسة الخاصة بالسادات وأنه بعد ١٨ سنة خدمة حصل على عدة نياشين واوسمة عسكرية.. لكن المعلومات الرسمية المصرية أكدت أن هذا ليس صحيحاً.

وقد تزوج عماد سالم ثلاث مرات.. الأولى مصرية.. والثانية أمريكية تكبره بست سنوات وهى طبيبة تعرف عليها فى مدرسة كاراتية بعد وصوله مباشرة للولايات المتحدة.. أما الثالثة فهى المانية حاصلة على جائزة فى تصميم المجوهرات.

ونجح عماد سالم فى زرع أجهزة تصنت فى بيت عمر عبدالرحمن وتليفونه، أدت إلى كشف عملية «فخ كوينز» والقبض على من كانوا سينفذونها ثم القبض على عمر عبدالرحمن نفسه، مما جعل المباحث الفيدرالية تكسب الجولة.

وبهذه الجولة اعترفت شبكة «سى. إن. إن» بالصراع بين المباحث الفيدرالية والمخابرات المركزية على عمر عبدالرحمن.. فالأخيرة تستخدمة كورقة احتياطية للعب بها وقت

الحاجة والأولى ترى فيه سببا كامنا وراء عديد من حوادث الارهاب فى امريكا العالم».. وأضافت الشبكة الأمريكية: «أن الشيخ الضرير ينتقل من جحر المخابرات الدافىء إلى قدم المباحث الذى تركله بألم».

وكادت ركلة القدم الأخيرة أن تلقى به إلى الخارج.. وصدر بالفعل قرارا بترحيله خارج الولايات المتحدة.. ولكن قبل ٧٢ ساعة من موعد التنفيذ صدر قرار باتهامه فى قضية «فخ كوينز».. ووصف الاتهام – الذى كان نصيب عمر عبد الرحمن منه ٢٧ صفحة – الشيخ بأنه قائد المجموعة التى كانت ستنفذ العملية.. وكشف الاتهام عن محاولة المتهمين تفجير مقر الرئاسة فى مصر ومبنى السفارة الامريكية فى القاهرة من خلال تجنيد أحد الطيارين.. والأعداد لخطف رهائن بغرض استخدامهم للافراج عن إسلاميين محتجزين.. وتبلغ عدد التسجيلات التى تمت بمعرفة عماد سالم – ٣٠٠ ساعة للمتهمين – ولو صحت الاتهامات فإن العقوبة المتوقعة للشيخ لن تقل عن ٢٠ سنة. (٢)

والحقيقة أن هذه ليست المرة الأولى التى توجه فيها اتهامات من هذا النوع، وليست المرة الأولى التى يدخل فيها السجن.. لكنه فى المرات السابقة كان يخرج من القضايا، كما تخرج الشعرة من العجين.

١– أُعتقل أول مرة فى سجن القلعة فى اكتوبر ١٩٧٠ لمدة ٨ شهور وكان السبب انه أعلن أن الصلاة لا تجوز على جمال عبدالناصر بعد وفاته.. وقد منع البعض من اداء الصلاة فعلا فى المسجد الذى كان يخدم فيه. (٣)

٢– أُعتقل مرة اخرى بتهمة اغتيال السادات وبتهمة قيادة تنظيم الجهاد الذى نفذ عملية الاغتيال وقد قُبض عليه يوم ١٨ اكتوبر ١٩٨١ وهو فى بيته بالفيوم.

٣– حُوكم فى القضية ١٣٥ لسنة ١٩٨٩ أمن دولة عليا بتهمة اثارة الشغب هو وآخرون فى الفيوم والاعتداء على الاموال والمنشآت العامة.. ولم يكن موقفا حرجاً.

٤– ثم اخيرا دخل سجن «اوتسفيل» الفيدرالى.. وهو سجن مبنى فى سنة ١٩٨٠ على شكل حدوة الحصان ومسور باسلاك شائكة ويقع فى مدينة هادئة جداً.. عدد سكانها لا يزيد على ألفى نسمة وبها بقال واحد.. والسجن يسع لـ ٦٦٧ نزيلا بينما يضم حالياً أكثر من ألف سجين ومعظم المساجين (٦٠٪ تحديدا) محتجزون على ذمة قضايا مخدرات.. اما السياسيون فيه فهم من متمردى الجيش الأحمر الايرلندى وانفصاليون فى دولة

بورتريكو (امريكا اللاتينية) فضلا عن عدد من الإيرانيين.

والتزم عمر عبدالرحمن بقانون السجن.. فكان يتناول الافطار فى السادسة صباحاً، والغذاء فى حدود الثانية عشر ظهرا والعشاء فى الرابعة، وبينما يسمح للمساجين بالاختلاط لخمس ساعات من (٤-٩) الا أن العنابر تغلق عليهم فى الساعة الحادية عشر تماماً.. وقد غضب عمر عبد الرحمن من نوعية الطعام لعدم معرفته بذبحها على الطريقة الإسلامية أم لا (يوجد بالسجن متخصص فى الذبح على الطريقة الإسلامية).. كما ابدل ملابسة وارتدى عمامته.. لكنهم رفضوا ارتداءه للجلباب واصروا على زى السجن الاخضر.. ويشرف على علاجه اطباء لاربع وعشرين ساعة.. فهو يعانى من الربو والسكر والضغط المرتفع والقلب.

ولعل خروج عمر عبدالرحمن من كل القضايا التى أُتهم فيها بسبب أنه لم يكن مسئولا عن أى فعل جنائى مباشر مثل التنظيم أو التدبير أو التنفيذ.. وأقتصرت مسئوليته على الفتاوى.. وهى على ما يبدو لا تخضع لقانون يعاقب عليها.. حتى لو حرضت هذه الفتاوى البعض على تنفيذها.. واشهر فتاوى عمر عبدالرحمن إلى جانب عدم جواز الصلاة على عبدالناصر.. فتوى قتل السادات وفتوى «الاستحلال» التى اباحت سرقة محلات الذهب التى يملكها اقباط..

وفتوى «الغنيمة» التى تبيح الاستيلاء على اسلحة رجال الشرطة والقوات المسلحة.. وافتى باهدار دم نجيب محفوظ.. وبقتل فرج فوده.. وافتى بما سماه «عقدة النكاح» التى اباح فيها لأمير الجماعة أن يطلق الزوجة دون ارادة زوجها إذا تركها مدة تزيد على ثلاثة أشهر.. وافتى بتحريم العمل فى اجهزة الدولة.. ووصف مرتبات الحكومة بانها حصيلة الربا والخمور والمال الحرام.. واخر فتاواه كانت تحريم السياحة.

وعمر عبد الرحمن تزوج ثلاث مرات.. زوجته الأولى عائشة حسن تزوجها وعمره ٢٢ سنة وهى حاصلة على ليسانس الآداب قسم اللغة الإنجليزية وعملت مدرسة فى الثانوى.. وانجب منها ٧ ابناء.. وطلقها وهو يحاكم على ذمة قضية الجهاد.. وفى شهر اكتوبر ١٩٨٣ اعلن أثناء محاكمته مفاجأة زواجه من مهندسة شابة منقبة «تعلق قلبها بالإيمان وارادت أن تهب حياتها لى إيمانا منها بدورى فى المجتمع الإسلامى ودعوتى لاعلاء كلمة الحق والدين».. وهى فتاة مثقفة رشيدة تقدمت إلى عن طريق شقيقتى وطلبت منها أن

تعرض على الزواج منها.. فقبلت.. اما زواجة الثالث.. فقد أكد وزير الداخلية السابق عبدالحليم موسى، أنه جرى فى نيوجرسى وان العروس شابة امريكية سمراء. (٤)

ويبدو أن تصرفات عمر عبدالرحمن قد نفرت منه عدد كبيرا من المتطرفين والمتشددين وحصرت نفوذه فى «الجماعة الإسلامية» وقد فشلت هذه الجماعة فى الانضمام لتنظيم الجهاد بسبب الخلاف على الامارة.. فقد إراد عمر عبدالرحمن أن يصبح الأمير، فرفض عبود الزمر قائلا: لا ولاية لضرير.. وتصور عبود الزمر أن الامارة ستكون له.. لكن عمر عبدالرحمن رد قائلاً: ولا ولاية لأسير.

وفى الحديث التليفزيونى سُئل الارهابى التائب عادل عبدالباقى: لماذا لا تحب عمر عبدالرحمن.. هل هناك واقعة تبرر ذلك؟ فقال:

اكثر من واقعة.. اهمها اننى كنت اجد فى سلوكياته انحلالا.. مرة كنت معه فى مستشفى ليمان طره لمدة شهرين.. وجدته يسلك مسالك يستحى اللسان أن يقولها.. كانت زوجته - مدرسة انجليزى درست لى فى الثانوى - فوجئت به يتزوج فى السجن.. كان امرا مستغربا بيننا.. وعندما حاورته فى عنبر المستشفى وجدت اتباعه صنعوا له خباء من البطاطين تدخل إليه فيه زوجته.. كنت صغيراً وأحسست أن هذا أمر يتنافى مع إنسان لديه مروءة وكرامة.. واحتقرته.

ثم.. اننى كنت اسأله فأجده يرد بدون دليل.. ويقول لى: «انت عيل صغير لن تفهم الدليل».. كانوا يتعاملون معه بمنطق «الشيخ قال» و«الدكتور قال».. بدون نقاش لدرجة أننى فوجئت به فى السجن يأمرهم صيام ٦٠ يوما.. سألتهم: لماذا؟ اجابوا: لأننا قمنا باحداث اسيوط (اكتوبر ٨١) وقتلنا الضباط والعساكر خطأ والشيخ عمر امرنا بالكفارة.. قلت لهم يعنى ارواح الناس «مسألة لعب بقى».. وشعرت أن الأمر عنده مزاجات شخصية واهواء.. يحكمة هوى وليس دينا.. وانه مفتون بالزعامة.. به صفة من صفات الشيعة اى يثبت العصمة لنفسه بدون حجة. (٥)

وقد ولُد عمر عبدالرحمن فى ٣ مايو ١٩٣٨ فى قرية «الجمالية» بمحافظة «البحيرة».. وفقد بصره بعد ١٠ أشهر من ولادته.. ويبدو أن السبب كان البيئة الفقيرة التى ولد وعاش فيها أمثال الدكتور طه حسين، ولم تستطع أن تنقذ بصره.. وفى الخامسة من عمره دخل معهد من معاهد الأكفاء فى طنطا.. ثم التحق بالمعهد الدينى بالمنصورة.. ثم كلية أصول

دين فى القاهرة.. وتخرج فيها عام ١٩٦٥ .. وبعد عامين حصل على الماجستير، وفى
عام ١٩٧٢ حصل على شهادة «العالمية» وعمل معيدا فى أحد المعاهد الدينية حتى سافر
ى السعودية ليعمل مدرسا فى كلية البنات فى الرياض فى عام ١٩٧٧ وكان مقرراً أن
يعود بعد ٤ سنوات.. اى فى عام ١٩٨١ لكن شيئا مجهولا لا يعرفه أحد جعله يعود قبل
لك بعام ليصبح مركز جذب للجماعات المتطرفة الشابة التى كانت تبحث عن زعامة
دينية متميزة.. ووجدتها فيه. (٦) ثم ماكان فى حادث المنصة.

فى عام ١٩٨٤ خرج من السجن ليعود إلى بيته فى الفيوم التى اتخذها مركزا يجتذب
المتطرفين الذى سعوا لاعادة تنظيماتهم من جديد، ولم يتنازل رغم تجربة السجن المريرة
عن زعامته لهم.. وهو يحظى بينهم بقدر كبير من الهيبة والاحترام.. ويتميز بالخشونة
والعنف فى توجيه الأوامر إلى اتباعه وهم لا يملكون الا السمع والطاعة.

ويبدو أن نشاطه المتزايد جعل الزمن يجبره على البقاء فى بيته.. نوعا من تحديد
الاقامة.. لكنه عاد إلى حرية التنقل بحكم قضائى.. وفى بداية سنة ١٩٩٠ فوجىء انصاره
برغبته فى السفر خارج البلاد، وفى الساعة الرابعة من مساء يوم السبت ٢٤ مارس
١٩٩٠ استجاب وزير الداخلية السابق عبد الحليم موسى لطلبه وقابله فى مكتبه.. وجرى
بينهما حوارا يمكن ان يوصف بأنه «حوار طرشان».

فقد تحدث عمر عبدالرحمن عن تجاوزات الشرطة والاعتقال العشوائى واستخدام
النساء رهائن وضرب المساجد بالقنابل واقتحامها.

ولم يجد وزير الداخلية السابق سوى أن يقول له «انت ستدخل النار» لانك تعطى
فتاوى للاولاد بأن يقتلوا ويحرقوا.. والقتل فى الإسلام عقوبته النار.

ولم يكن عمر عبد الرحمن ليذهب إلى مكتب وزير الداخلية الا لغرض اخر ثبت فيما
بعد انه تجاوز تقيرات الوزير الامنية.. فقد طلب من الوزير السماح له بالخروج لاداء
العمرة.. وتصور الوزير انه سيكسبه.. فوافق على السفر.. فخرج من المطار فى حماية
الأمن ورعايته.

طار إلى الرياض .. ومنه إلى الخرطوم.. وهناك حصل على تأشيرة دخول نيويورك..
واغلب الظن انه قابل فى السودان حسن الترابى زعيم الجبهة الإسلامية هناك والذى
تربطه به علاقة قوية.. وتشير بعض المصادر الرسمية فى القاهرة انها جزء من تنظيم

اصولى دولى يضم ايضاً «عباس مدنى» زعيم «الانقاذ» فى الجزائر وراشد الغنوش زعيم
حركة النهضة فى تونس.. وليس من الصعب على هذا التنظيم ان يفتح قنوات مع «واشنطن»
وأن يدبر سفر عمر عبد الرحمن إلى الولايات المتحدة.

وفى مناقشة جرت فى لجنة الأمن بالكونجرس حول الطريقة التى دخل بها الشيخ
عمر عبدالرحمن إلى الولايات المتحدة كشفت المناقشة أنه حصل على تأشيرتى دخول..
الأولى فى أوائل عام ١٩٨٧ من القنصلية الأمريكية فى القاهرة.. انتهت مدة صلاحيتها
قبل أن يستخدمها..

والثانية فى اوائل عام ١٩٩٠ من القنصلية الامريكية فى الخرطوم.. بكل ما فيها من
غموض وملابسات لا تخلو من الريبة.

وفى نيويورك كان فى استقبال الشيخ المصرى الذى خدم المخابرات المركزية بافتتاح
أول مركز لاستقبال المتطوعين للقتال فى افغانستان.. وكان المركز فى نيويورك.. وهو
مصطفى شلبى الذى ضمن الشيخ عند دخوله الولايات المتحدة.. وكان ذلك فى يوم ١٨
يوليو سنة ١٩٩٠.

وبدأ الشيخ يمارس نشاطه فى مسجد الفتح فى نيوجرسى ثم امتد هذا النشاط عبر
الولايات من نيويورك على الساحل الشرقى إلى سان فرنسيسكو على الساحل الغربى..
وعندما سئُل عن سبب اختياره لامريكا للاقامة وهى دولة الفساد والسياحة واهل النار –
كما يعتقد – فأجاب:

اننى دخلت امريكا للدعوة إلى الله وقبلها ذهبت إلى بريطانيا خمس مرات والى الدنمارك
والسويد وسويسرا وغيرها من الدول. (٧)

لكن.. لا احد فى مصر صدق ما قاله عن «الدعوة لله» فى بلاد «اهل النار».. فقد
تصاعدت احداث العنف فى مصر – بعد أن رحل الشيخ – ولم تهبط كما كان الأمن
يتوقع.. وامتدت العمليات – بفتاوى الشيخ – إلى مناطق موجعة للاقتصاد الوطنى..
السياحة والبنوك.

وبدلاً من أن يواجه وزير الداخلية عبدالحليم موسى الموقف بمزيد من الذكاء والنشاط
الأمنى تصور أنه يمكن أن يستعمل الخلاف بين «الجهاد» و«الجماعات الإسلامية».. فطلب
تدبير لقاء مع عبود الزمر خصم عمر عبدالرحمن.. وجرى اللقاء فى بيت مجهول من

بيوت الامن بعد أن سمحوا لعبود الزمر بالخروج من السجن لحضور اللقاء الذى استمر ٥ ساعات وكان فى شهر فبراير ١٩٩٣.. وقد قطع الزمر على نفسه كلمة شرف بانه لن يستغل الموقف ويهرب.. وسُجل اللقاء على شريط فيديو.

وكان اللقاء هو الخطوة الأولى فى مشوار الوساطة بين الأمن والمتطرفين، وقد تشكلت لجنة الوساطة من ٢٠ شخصية تمثل الإسلاميين كان ابرزه الشيخ متولى الشعراوى والشيخ محمد الغزالى والدكتور محمد عمارة والشيخ عبدالحميد كشك، والشيخ عبداللطيف مشهور، والدكتور عبدالصبور شاهين والدكتور عمر عبدالكافى وأحمد فراج وفهمى هويدى.. وقد وضعت اللجنة بنودا للاتفاق تنص على إن يوقف المتطرفون العنف مقابل الافراج عن ٦٠٪ من المعتقلين طبقاً لقانون الطوارىء.. وتحويل القضايا من المحاكم العسكرية إلى المحاكم المدنية.. ومنع القتل العشوائى لافراد الجماعات.. وإعادة المساجد إليهم.. ثم فرضت البنود شروطا بدت تدخل فى سلطات الدولة.. وناقشت ثلاث قضايا هى ما اسموه بالاعلام الفاسد والسيطرة على السياسة التعليمية.. واعادة النظر فى الحالة الاقتصادية المتدهورة باختصار تحولت لجنة الوساطة إلى حكومة ظل.

وقد كشفت روزاليوسف ذلك.. لكن رئيس الحكومة د. عاطف صدقى اتهمها – فى تصريح علنى للصحافيين – بالكذب.. لكن.. سرعان ما اتضح أنه آخر من يعلم.. وقد جرى اتصال بينه وبين رئيس الدولة انتهى بإقالة وزير الداخلية. (٨)

لقد اراد وزير الداخلية استعمال المتطرفين.. فإذا به هو الذى إستعملوه وإستعملوا الحكومة.. وكادوا أن يقوموا بانقلاب صامت.

وفى هذه الظروف – التى تنازلت فيها الحكومة عن سلطتها – وجدت السفارات الاجنبية فى القاهرة – وعلى رأسها السفارة الأمريكية – أن من الافضل أن تنشط اتصالاتها بالتيار الإسلامى بكل فصائله المعتدلة والمتطرفة – وتعاملت مع السلطة الحالية على انها سلطة انتقالية «مؤقتة».. ولم تعترف هذه السفارات بهذه السلطة مرة أخرى الا بعد أن استردت هيبتها.. واستعادت سيطرتها على الموقف ووجهت ضربات أمنية حادة ومتلاحقة للتطرف.

ولم يكن من الصعب على السفارة الامريكية فى القاهرة – فى ظروف تراجعت فيها السلطة فى مصر – أن تبرق إلى واشنطن تطالبها بتلميع البديل.. وهكذا سُلطت الاضواء بشدة على عمر عبد الرحمن.. واقترح عليها بعض خبراء الدعاية تحسين صورته بأن

وضع على عينيه نظارة سوداء واستبدل ملابسه الغامقة اللون بأخرى ألوانها فاتحة تضفى عليه ثقة وتفاؤلا فى المستقبل.. وكان الخبر الأول فى نشرات التليفزيون المصورة.. وفى الصحف الأمريكية المؤثرة.. وعندما زار حسنى مبارك واشنطن واجرت شبكة «سى.. ان. ان» حوار معه لم تمر دقائق حتى كانت تُذيع حوارا مضاداً مع عمر عبدالرحمن.

وظلت واشنطن تلعب بهذه الورقة حتى فوجئت بانفجار مركز التجارة العالمى، فاستيقظت مؤمنة بانها وقعت فى الحفرة التى حفرتها لغيرها!

وأغلب الظن أن ورقة عمر عبدالرحمن قد احترقت.. ولكن لا يزال فى جراب الذين استعملوه اوراقاً ومفاجآت أخرى.

■■■

هوامش

(١) روز اليوسف – ١٩٩٣/٧/١٩ – العدد ٣٣٩٧.

(٢) روز اليوسف – ١٩٩٣/٨/٣٠ – العدد ٣٤٠٣.

(٣) راجع كتابنا «قنابل ومصاحف» – فصل «الضرير لا يطلق الرصاص» – القاهرة ١٩٨٥ – الطبعة الأولى دار سينا.

(٤) أنور محمد : جنرالات الإسلام – ص ١٥١ و١٥٢.

(٥) روز اليوسف – ١٩٩٤/٣/٢٨– العدد ٣٤٣٣.

(٦) قنابل ومصاحف : ص ١٩٩ و٢٠٠.

(٧) مجلة المجلة – ١٩٩٣/٣/٢٣ – العدد ٦٨٤.

(٨) روز اليوسف: عدد ٢٠/٤/.. و٢٧/٤/١٩٩٣ وفيها قصة أخطر وساطة بين الحكومة والمتطرفين، وقصة نجاح حملة صحفية فريدة من نوعها.

الفهرس

صلاة الجواسيس

الإسلام والسعودية والمخابرات الأمريكية



هذا الكتاب

- كيف استعملت المخابرات الأمريكية الإسلام لاجبار العرب على الصلح مع إسرائيل
- اليهود والملحدون يحررون المسلمون فى الكويت ويحمون السعودية
- مجلة أمريكية تتساءل : لماذا يستيقظ الملك فهد متأخراً ؟
- الشيخ الشعراوى فى نقد المسيحيين إلى الدعوة للمشركين
- الرسول يزور نابليون فى المنام .. إدعاء سياسى
- المخابرات الأمريكية فى رئاسة الجمهورية المصرية
- الأمريكيون يتهمون السادات بتعاطى المزاج
- متى قررت المخابرات الأمريكية أن يذهب السادات إلى الجحيم ؟
- غسيل مخ لقاتل الملك فيصل
- عملية الإستيلاء على الكعبة
- واشنطن تستغل (موت أميرة) فى الهجوم على الرياض
- إتصالات السفارة الأمريكية بالجماعات الإسلامية فى القاهرة
- وغيرها من الأسرار التى ينشرها عادل حمودة بالوثائق الدامغة .

الناشر